كتاب الهلال

كلام دبلوماسى

معصوم مرزوق



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن موسسة دارالهلال

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص.ب: ١١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع

تلكس:

Telek: 92703 hilal u n

فاكس:

FAX : 3625469

الإصدار الأول / يونيو ١٩٥١

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٧٢ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٤٠ دولارا - أمريكا وكندا والهند ٤٥ دولارا - باقى دول العالم ٧٥ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

ثمن النسخة: سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٢,٥ جنية

البريد الإلكترونى: darhilal @ idsc. gov. eg

كـــلام دبـلـومـاسى

بقلم :
معصوم مرزوق

الغلاف للفنان : محمــد أبو طالب

مستشار التحرير : محمد رضوان

رقم الإيداع
٢٩٥٠ / ٢٠١٠
I.S. B. N
977 - 05 - 2657 - 6

مقدمة لازمة

اعتدت أن أنظر إلى مقدمات الكتب باعتبارها زوائد غير لازمة ، فلو أن للكاتب إضافة يريدها على كتابه فلماذا لا يدرجها فى نص الكتاب ؟ ، وإذا كان يرغب فى تفسير بعض ما غمض أو شرح بعض ما قد يلتبس ، فمعنى ذلك أن كتابه ليس كاملاً ، وبشكل ما كنت أرى أن لجوء الكتاب إلى كتابة المقدمات بأنفسهم لمؤلفاتهم مضيعة للوقت : وقتى ووقتهم ... حتى المقدمات التى يكتبها شخص آخر غير المؤلف ، كنت أراها فرضاً ثقيلاً وإقحاماً لشخص آخر يريد أن يحدثنى عن كتاب سأقرأه ، مثل من يقاطعك قبل مشاهدة فيلم كى يحكى لك نتفاً من روايته وحبكته وشخصياته ، وهى مسألة سخيفة تفسد متعة المتلقى ، وتطفىء غريزة الفضول لديه ، فإذا ما خبت الشهوة

انسحبت الرغبة وانقضت المسألة .. وأحيانا يكون كاتب المقدمة صديقاً أو معجباً بالكاتب ، وهو على الأغلب يمارس نفس المهنة وربما يكون أكثر شهرة لدرجة الحرص على إدراج اسمه على الغلاف إلى جوار اسم المؤلف بل وبخط أكبر كى يجذب القارئ، وكنت دائما أظن أن ذلك نوع من النصب والاستغفال ، وكثيراً ما كان هذا النوع يصدنى عن شراء الكتاب نفسه ربما نكاية فى المؤلف الذى أراد الغش بإضافة اسم كاتب شهير على الغلاف ، فهو مؤلف لا يثق فى نفسه ولا فى سطوره، ويحاول التسلق على أكتاف غيره ...

كنت أقفز دائماً فوق صفحات المقدمة إلى صلب الكتاب ، وقلما كنت أعاود النظر فى المقدمة وظللت على هذه الحال سنوات طويلة حتى لاحظت أن بعض المقدمات لها بالفعل جاذبيتها وضرورتها، فبدأت أعيد النظر فى خطة قراءتى ، حيث أتصفح بسرعة بعض السطور فى المقدمة فإذا تحققت فيها شروط الجاذبية والضرورة قرأتها بنفس عناية نص الكتاب ، وبالفعل وجدت

العديد من المقدمات المفيدة الممتعة ، وشعرت أننى خسرت كثيراً عندما كنت أهمل المقدمات بالكلية ...

وإذا أردت أن أحصر الشروط الواجب توافرها فى مقدمات الكتب الناجحة ، فأهم هذه الشروط هو أن تكون إضافة جاذبة ، بحيث تكون جزءاً من الكتاب نفسه وليست مجرد تعليق عليه أو تلخيص له ، كما يجب أن تكون ضرورية أى تحتوى على رصيد معرفى لا غنى للكتاب نفسه عنه ، كأن تسرد تسلسلاً زمنياً تاريخياً لتطور موضوع الكتاب ، أو تتناول الموضوع بشكل نقدى مقارن وقياسه على موضوعات مشابهة ، أو تلقى الضوء على منهج الكاتب أو رؤيته دون تفاصيل تشبه السيرة الذاتية ، ويجب على المقدمة أن تتفادى دائماً أسلوب الاستعلاء على القارئ ، أو اعتباره عاجزاً عن التوصل بنفسه لبعض الاستخلاصات من الكتاب ، وكذلك ينبغى ألا تكون مجرد تسلق على اسم كاتب كبير ، أو نبذة شخصية عن المؤلف .

والكتاب الذى بين يديكم الآن هو جماع

مجموعة من الأفكار التى راودتنى وراودتها خلال الأعوام القليلة الماضية ، ولو أنها ليست كل الأفكار التى وجدت طريقها إلى سطورى ، فقد كنت كدبلوماسى محترف أتعامل مع أفكارى عند النشر بمشرط الجراح ، أى بمنتهى الوعى والحرص، ورغم أننى أمارس الكتابة بشكل منتظم منذ ما يزيد على الأربعين عاما ، إلا أننى ومنذ التحقت بوزارة الخارجية المصرية اتخذت لنفسى بعض المحددات التى ألزمت بها قلمى :

أولا : ألا أتناول أبدا موضوعات تتعلق بالبلد الذى أمثل بلدى فيه .

ثانيا : ألا أخرج بأى شكل من الأشكال عن إطار الخطوط العامة لسياستنا الخارجية ، طبقاً لقاعدة «العقد شريعة المتعاقدين» ، والتزامى هو الدفاع عن ، وتنفيذ السياسة الخارجية الرسمية.

ثالثاً : أنه ليس كل ما يعرف يقال ، وليس كل ما يقال قد جاء أوانه .

رابعا : أن يكون توقيع مقالاتى بصفتى

الشخصية وليس الوظيفية.

....

وقد أتاح لى إصدار مجلة الدبلوماسى فرصة أن أجد متنفساً لآلاف السطور التى اكتظ بها مكتبى ، وبطبيعة الحال كنت آنذاك أنشر بعض مقالاتى فى الصحف والمجلات المصرية والعربية ، إلا أن انشغالى المستمر فى عملى لم يتح لى فرصة إصدار كتاب سوى فى بداية التسعينيات ، حيث نشرت رواية ومجموعة قصص قصيرة تعود أغلبها إلى فترة الستينيات والسبعينيات ، كما أن ظروف النشر المعروفة لم تكن مشجعة ، بل إن بعض دور النشر - التى لا أرغب فى ذكر اسمها الآن - أضاعت بعض أصول كتبى بالإهمال أو ربما لعدم الاقتناع بقيمتها «التسويقية» ، وأذكر هنا كتاباً أعددته عن التفاوض ، وبذلت فيه مجهوداً كبيراً ، وقدمته لدار نشر تحمست له فى البداية ، ثم انتقلت للعمل فى إحدى سفاراتنا فى الخارج ، وكنت كلما اتصلت بالمسئول فى الدار يطمئننى

بأنه قد أخذ دوره فى النشر وأنه لا داعى للقلق ، وعندما نزلت إجازة وتوجهت إلى تلك الدار ، طلبوا منى نسخة أخرى لأن الأولى ضاعت منهم فى زحام الأوراق .. والمشكلة أنه نتيجة لظروف عملى التى تستغرق كل وقتى تقريباً ، كنت قد اكتفيت بإعداد الكتاب فى صورة واحدة ، لم أتخيل أنها يمكن أن تضيع ...

وذات مرة سألنى أحد الناشرين المعروفين عما إذا كان اسمى يمكن «أن يبيع» ؟!! ، ونصحنى بأن أهتم أولا بالنشر فى الصحف القومية حتى يصبح اسمى مشهوراً ، وبطبيعة الحال لم يدرك أننى لا أسعى إلى الشهرة ، وأن تجربتى مع بعض هذه الصحف كانت مخيبة للآمال ، ومن ذلك مثلا أنه ليس مهماً مادة الكتابة أو جودتها ، وإنما المهم هو العلاقات الشخصية أو ما يطلق عليه «الشلة» .. وذلك ترف لم أمتلكه ولم أسع إليه ولم أجد فى نفسى ما يجعلنى أتقبل فكرة أن «أتسول» نشر أفكارى ...

وحتى كتابة هذه السطور لا أدرى ما هو مصير هذا الكتاب ، وعما إذا كان فى العمر بقية حتى أراه فى شكله النهائى ، ورغم أنه مجموعة من الأفكار والخواطر التى عاصرت أحداثاً ماضية ، إلا أنه - كما قدمت - ليست كل أفكارى ، فلقد حاولت أن أنتقى مجموعة من الأفكار والخواطر التى تمثل تاريخ أفكارى ومشاعرى خلال السنوات الأخيرة ، تلك التى يختلط فيها الأسلوب الأدبى مع الأفكار السياسية ، وقررت أن أطلق على هذه التجربة عنوان : «كلام دبلوماسى» .. ربما للتنبيه بأن ما سيطل منها هو مجرد قمة جبل الثلج ، أما الجبل نفسه ومعاناة اكتشافه وصعوده فإننى أتركه للزمن ولفطنة القارئ العزيز وذكائه . إنها تجربة أرجو أن تكون مفيدة لقارئها ، وعرفان بالجميل للعديدين من ذوى النوايا الطيبة الذين وجدوا فى سطورى فائدة ما ودفعونى دفعاً لإعداد هذا الكتاب الذى أرجو ألا يلاقى مصير أسلافه ، على أمل أن يكون بداية لغيث متناثر بين أوارقى وخلايا عقلى ...

معصوم مرزوق

كلام دبلوماسى !!

من المعتاد أنه حينما يشتجر خلاف بين طرفين ، ويصبحان على حافة الاشتباك ، يقول أحدهما للآخر بصوت تكسوه الحكمة : «يا أخى .. خليك دبلوماسى !!» .. وفى الغالب الأعم يكون هذا القائل هو أضعف الطرفين الذى يعلم تماماً أن عضلاته لا تتيح له سوى ذلك فقط : «الكلام الدبلوماسى» .. !! ..

وتمتلئ كتب «الدبلوماسية» بالحكم والنصائح ، فالدبلوماسى لا ينبغى أن يبدأ الرد على أى طلب أو اقتراح مستخدماً كلمة : «لا» أو «أرفض» .. وإنما يجب أن يبدأ بتفهم وجهة نظر الطرف الآخر ، وقد يبدى إعجابه الشديد بالطرح ، ثم يستدرك مشيراً بأدب إلى بعض الجوانب التى يرى أنه يمكن إعادة النظر فيها ، وتدريجياً يهدم الحجج التى استند إليها الطرف الآخر ، ويكون فى قمة النجاح لو استطاع أن يقنعه بأن يتبنى وجهة النظر المضادة ، ولا مانع أن يجعله يظن أن هذا الرأى المناقض كان هو رأيه منذ البداية !!..

لا يصح للدبلوماسى أيضا أن تكشف ملامحه أية مظاهر عاطفية من فرح أو غضب أو استياء أو قرف ، يجب أن تكون ملامحه محايدة تماماً ، ولكن هذه القاعدة ليس مطلقة ، فقد

يكون مطلوباً أن يضع قناعاً سعيداً مثلاً فى مناسبة تتطلب ذلك ، حتى ولو كان غير سعيد ، أو أن يرسم حزناً عميقاً فى سرادق للعزاء لمسئول دولة أجنبية يخدم فيها ، وأحياناً يكون إبداء الغضب مطلوباً ، فعلى مائدة التفاوض قد يكون من المفيد أن يكشر الدبلوماسي عن أنيابه ، ويبدى الثورة ويطرق بقبضته على المنضدة ، ويهب واقفاً مهدداً بمغادرة القاعة ، ويعلن بصوت عال أن الاقتراح المعروض هو إهانة لا يقبلها .. كل ذلك ، رغم أن الحقيقة قد تكون أن يسعى فى النهاية للتوصل إلى اتفاق حول هذا الاقتراح ... !!

وبدون إغراق فى تفاصيل النصائح الذهبية للخدمة الدبلوماسية ، فقد يلاحظ القارئ أن بعض هذه الصفات المطلوبة لا تختلف كثيراً عن صفات المنافق ، أى أن المطلوب من الدبلوماسي أن يكون «منافقاً» أو «بعض منافق» ، والغايات تبرر الوسائل ، والمسألة هنا لا علاقة لها بالأخلاق ، فكل مهنة لها أدواتها ، وإحدى الأدوات فى هذه المهنة قد تكون النفاق ، فما هى المشكلة ؟!..

على موائد الطعام الدبلوماسية يتوزع الحاضرون حول المائدة بحيث يكون كل رجل محاط بامرأتين ، ومن التقاليد المرعية أن يقوم الرجل بمجاملة هاتين السيدتين عن يمينه ويساره ، كأن يسأل إحداهما عن المكان الذى اشترت منه

عقدها البديع ، أو يمتدح الفستان الذى ترتديه ، ولا يخلو الأمر أحياناً أن تكون إحداهما أو كلاهما سيدة شمطاء قبيحة متصابية ، وهنا يكون مطلوباً زيادة جرعة المدح مثل أن يسألها الرجل عن آخر قصيدة شعر كتبها أحدهم فى جمالها ، وعليه أن يقبل بلا مناقشة رواياتها عن الرجال الذين يطاردونها كالذباب ، ولا مانع أن يرف بجناحيه كذبابة لبعض الوقت !! ..

والحقيقة أن الممارسة تكشف أنه ليس كل الدبلوماسيين يلتزمون بتلك القواعد الذهبية ، فمنهم من لا يبدأ أى حوار سوى بمعارضة كل المتحدثين ، ورفض أى رأى ، وإبداء عواطفه وانفعالاته وخاصة القرف والضيق والملل ، بل وقد يصل إلى حد الجليطة ، مثل أن يذكر لجارته الحيزبون على مائدة الطعام أنها فى عمر جدته تقريباً !! ..

ومن ناحية أخرى فهناك من يبالغون فى اتباع هذه النصائح بشكل مكشوف ، مثل أن يقهقه أحدهم إلى حد الاختناق على نكتة بائخة أطلقها شخص ، أو يطنب فى أوصاف مسئول وشمائله بشكل ممل ومحرج للمسئول نفسه، أو يسارع بالنزول عن رأيه لمجرد إرضاء محاوره ، ومنهم من يسمع بأذنيه انتقادات مهينة للبلد الذى يمثله ، وليته يكتفى بالصمت ، بل إنه يشارك فى إضافة إهانات أخرى ، كى يقنع

الآخرين بموضوعيته أو فكاهيته !! ..

وإذا كـانت تلك التـقـاليـد هى أدوات المهنة ، فليس من المفـروض أن تصبح إحـدى طبـائع الدبلومـاسى فى النوم واليقظة ، فإذا كان الدبلوماسى يستخدم هذه الأدوات - التى يصل بعضـها إلى حد النفـاق أو الكذب - من أجل مصـالح بلاده ، فليس من المتصـور أن يستخدمـها أيضـاً فى حيـاته الخاصة ، مثل ذلك الذى يحرص على منافقة ومداهنة رئيسه، وإذا اعترض عليـه أحد يرد بكبرياء : «لا تنس يا أخى .. أنا دبلومـاسى !!» ، وهـو جامـد العـواطف حـتى مع زوجـتـه ، أو حتى إذا شتمـه أحد ، فـهو يعيش الدور ويحافظ على حياد مـلامحـه ، ومن الطريف أن كل النسـاء اللائى يصادفـهن فى وظيفته يحصلن من كلامه اللطيف ومجاملاته الساحرة ما لا تحصل زوجتـه على ذرة منه ، وإذا احتجت المسكينة قال لها باستعلاء : «هل تريدين أن أعـاملك كمـا أعامل الأخريات ؟ .. إن ما أفعله معهن هو أصول المهنة !!» ..

والدبلومـاسى فى عـرف هذه التـقـاليـد المرعـيـة ، يجب أن يكون ملمـاً بآخر تقاليع الموضـة ، وبأنواع أحدث السيارات ، وأن يكون مـاهراً فى التمييز بين أنواع الخمور المختلفة ، وأن يحرص دائماً على لفت نظر الآخرين بأن رباط عنقه مستورد

من باريس أو إيطاليا ، وأن ثمن حذائه يزيد على حفنة مئات من الدولارات ... إلخ ، وليس مهماً أن يكون آخر كتاب قد قرأه في حياته هو كتاب «المطالعة الرشيدة» ، غير مطلوب في هذا العرف أن يكون هذا الشخص الأنيق مثقفاً ، فهو لديه قدرات رجل العلاقات العامة في تسويق أي بضاعة بابتسامة عريضة ، وبرص كلام لا يهم معناه ، لأن المهم هو الشكل والمظهر الذي يمكن أن يبيع أي شيء ...

ومن هذا النوع نجد ذلك الدبلوماسي الذي يجيد أكثر من لغة ليس من بينها لسان أمه ، بل إنه يفاخر بذلك على أساس أنه ربيب التعليم الأجنبي ، ثم هو مشمئز من القذراة في بلاده ، وهو «قليط» (هذه الكلمة مشتقة من «إليت» أو Elite ، أي ليست كلمة قبيحة) ، يتعالى برأسه على أهل بلاده الغلابة ، وينحني بنفس الرأس أمام أي أجنبي ...

ربما .. أقول ربما .. كان لبعض التقاليد السالفة بعض الجدوى في بعض المواقف ، ولكنني أعتقد جازماً أن المفهوم كله عبارة عن سوء فهم ، أو – وبشكل دبلوماسي – تبسيط للأمور لعقول لا تريد أن ترهق نفسها .

أدب الحوار مطلوب ، ليس للدبلوماسي فقط ، بل لكل متحاور ، إلا أن هذا الأدب لا يعني كما يقول أهلنا «أدب

القرود» ، فالمتحاور يجب أن يكون قوياً ، والقوة لا تعني علو الصوت أو بروز العضلات ، وإنما تعني قبل كل شيء قوة الحجة والمنطق ، وذلك يتطلب أن يعد المتحاور نفسه ويتزود بكل المعلومات التي تكسب حجته قوة ومنطقه سلاسة ، وذلك يتطلب جهداً قبل الحوار يزيد أضعافاً مضاعفة عن الجهد المبذول في الحوار نفسه ، بل إن هذا الجهد الأول يخفف كثيراً من أعباء الجهد الثاني .

المجاملة أيضا مطلوبة ، ولكن بشروط حتى لا تنقلب إلى نفاق وتزلف رخيص يؤدى إلى عكس المطلوب منه ، ولأن المجاملة ترتبط أكثر بالشكل وتمتزج به ، فإن الاقتصار عليها يسطح صاحبها وما يقوله ، ولا يصح أن تزيد عن كونها غلافاً أنيقاً لخطاب ، أما المبالغة فيها فهى تشبه غلافاً كلما فتحته وجدت غلافاً آخر دون أى خطاب !!

ولا شك فى أهمية السيطرة على العواطف والانفعالات ، لأن هذه المشاعر شخصية إلى حد كبير ولا يجوز مد تأثيرها إلى موضوع عام يتجاوز الفرد نفسه ، كما أن الاستسلام لهيمنة هذه المشاعر يؤثر سلباً على التقدير الموضوعى العقلانى الذى ينبغى أن يكون ضالة الدبلوماسى فى ممارسته لعلمه ، إلا أن ذلك لا يعنى أن يتجمد إنسانياً بحيث

تمتد هذه السيطرة إلى حياته الخاصة ، كما لا تجوز المبالغة في إدعاء هذه المشاعر لأنها مثل ملح الطعام ، لو زاد أو قل فسد المذاق ..

والدبلوماسى لا يصح أن يكون «قليطا» ، فهو مرآة هذا المجتمع الذى يتأفف منه ، ومن المفترض أن جذوره عميقة فى تلك الأرض التي يريد الانعزال عنها، والدبلوماسى الحقيقي هو المتشبع حقاً بتاريخ وثقافة وأحلام وآلام أهل بلاده ، لأنه – مثل المحامى – لن يستطيع أن يدافع عن قضية لا يعرفها أو يفهمها ....

أخلص من ذلك بالعودة إلى المثال الذى أوردته فى رأس هذا المقال ، فحين يقول أحد المتشاجرين للآخر : «يا آخى .. خليك دبلوماسى !!» ، فهو لا يقول ذلك لأنه الأضعف ، كما أنه ليس نفاقاً أو هروباً من مواجهة ، فربما هو الأقوى عضلياً ، ولكنه يدعو الآخر إلى استعمال الحكمة والتعقل بدلاً من العنف والتهور ، إنها لغة الحوار والتحضر الجذيرة بالإنسان أينما كان ، وبالتالى لا يمكن أن تعنى أبداً نفاقاً أو كذباً أو هروباً ...

هذا عن دبلوماسية الأفراد .. أما دبلوماسية الدول فلها شأن آخر ليس هذا مكانها ... •

مساحة للتنفس .. !

ماذا تعنى الكتابة فى زمن تضاءلت فيه ظاهرة القراءة ؟ .. لقد اختطفت الفضائيات عيون وعقول ووقت الإنسان المعاصر ، وتحول ذلك الإنسان إلى كائن سلبى يتلقى ما يصب فى عقله دون مجهود فى البحث أو الإمعان أو الفسير ، وكأن ذلك العقل مجرد معدة تبتلع دون أن تهضم ، رغم أن الطعام يتم امتصاصه كى يضرب بعناصره حتى النخاع ، ولقد فقد الإنسان المعاصر أيضا حياته الأسرية والاجتماعية فأمام شاشة التليفزيون يتجمع البشر دون أن تتاح لهم فرصة الحديث أو النقاش ، فكل واحد مختطف ويتولى خاطفوه التفكير بدلاً منه ، ويقدمون إليه الخبر والتحليل والرأى والتفسير حتى ينام كى يحلم بالكوابيس !! ..

إذن ، لماذا يكتب الكاتب ؟ ولمن ؟ ...

أحيانا تكون الكتابة نوعاً من التوثيق للأحداث ، وهى فى ذلك تكون تقريرية جافة وإن كانت لها قيمة كبيرة للمؤرخين فى زمن قادم ، وبالتالى فهى لا تهم كثيراً القارئ المعاصر ، فضلاً عن أن الكمبيوتر ووسائل الحفظ الحديثة للوثائق الأصلية قد لا تجعل هذا النوع من الكتابة ذا ضرورة ،

فيمكن لأى مهتم أن يصل عن طريق الإنترنت الآن إلى أية معلومات تاريخية يريد الاطلاع عليها ، كما يمكنه أن يطلب من مراكز التوثيق فى بعض الدول أن توافيه بصورة من وثائق معينة مقابل رسم معين .

أحيانا أخرى تكون الكتابة مجرد ملاحقة لاهثة للأحداث ، وهى بلا شك تخسر كثيراً فى سباقها من الفضائيات فى هذا المجال ، وذلك بالطبع فى إطار الخبر ، ولكن يبقى مجال التحليل والرأى الذى يتيح للقارئ التأمل من وضع هادئ ، والاستيعاب بشكل أفضل من مجرد مشاهدة برنامجاً للرأى فى التليفزيون ، لأنه فى حالة القراءة يستخدم عدداً أكبر من مدركاته بشكل لا يتوفر فى اللقطة الضوئية الخاطفة التى تجتازه فى ثوان معدودة ، كما أنه أمام التليفزيون قد يشرد أو يلتفت فيفقد جزءاً من تركيزه ، بعكس الكلمة المقروءة التى يمكنه استعادة قراءتها أكثر من مرة .

وأحيانا تكون الكتابة – من وجهة نظر الكاتب – مجرد مساحة للتنفس ، مساحة حرة للسجال مع نفسه وأفكاره وخواطره ، فهو حين يمسك بالقلم فى لحظة الإلهام أو الاختناق لا يفكر فى القارئ ، وربما لا يعنيه كثيراً أن تتاح

سطوره للنشر لأن مجرد فعل الكتابة بالنسبة له يمثل جزءاً أساسياً من جوهره كإنسان ، وهو حالة حوار مستمرة مع النفس ، وعلاقة جدلية مع الوجود والأحداث والبشر ، وهى أكثر حالات الإنسان صدقاً ودفئاً وحميمية ، كما أنها تجمع ما بين عبقرية الإبداع وخصوبة الفكر واستمرارية التجربة .

السياسة والكتابة

والكتابة السياسية من أخطر وأهم أنواع الكتابة ، لأنها - فى الغالب الأعم - نوع من الاستشراف والتنبؤ على ضوء معطيات تمتزج فى عقل الكاتب بثقافته ورؤيته وقدرته على الإبداع ، وهى فى بعض الحالات تصبح مغامرة حقيقية قد تؤدى بصاحبها إلى السجن أو الموت ، ولكن الكاتب الصادق يشعر أن موهبته تمثل منحة إلهية بحيث تتحول إلى رسالة يحاسب عليها إذا قصر فى آدائها ، ولا جدال فى أهمية هذا النوع من الكتابة للمجتمع ، فهى أسلوب من أساليب التثقيف السياسى لرفع مستوى الوعى السياسى للشعب ، كما أنها تمثل نوعا من الإضاءة لبعض المواقف التى قد يكتنفها الغموض ، ويمكن القول أيضا أنها أحياناً يمكن أن تقدم عونا كبيراً فى التوضيح والتلميح والمساهمة فى بناء المستقبل.

والكاتب السياسى ليس معصوماً من الخطأ ، فهو مجرد مجتهد قد ينال ثواب اجتهاده إذا صح ، ويكفيه شرف المحاولة إذا أخطأ ، ومن المفترض أنه لا يكتب من فراغ ولكن عليه قدر الإمكان أن يتنزه عن الاصطناع والذاتية المفرطة ، وأن يحاول الالتصاق بقضايا شعبه المصيرية بكل إخلاص وبأكبر قدر من الموضوعية .

الخيال السياسى

وكما أن هناك كتاباً سياسيين ، فهناك أيضا سياسيون يمارسون الكتابة ، ورغم أنه من المفترض أن تكون كتابات هؤلاء السياسيين «سياسية» ، فمن الملاحظ أن بعضهم يكتب أدباً ، وليس غريباً أن يكون السياسى أديباً ، فالسياسى هو أحياناً أديب ضل طريقه فاتجه إلى العمل السياسى ، وهو دائماً ذو خيال خصب يحتاجه كي يتجاوز اللحظة الحاضرة إلى آفاق مستقبل لا يراه سواه ، ولكى يلهب مشاعر الجماهير بالصور التى يلونها سواء فى لحظات التحدى أو فى لحظات الحلم القومى :

إذن فالسياسى يحمل دائماً فى أعماقه مشروع أديب متخفٍ ، والعكس ليس صحيحاً على الدوام ، ومن المقطوع به أن بعض الأدباء الناجحين قد يكونون أسوأ السياسيين ، لأنه

وإن كان الخيال مادة أساسية لكليهما ، إلا أن السياسى يمشى فوق الأرض بينما يحلق الأديب فوق السحاب ، وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى أن جمال عبدالناصر كانت له محاولة أدبية غير كاملة هى قصة «فى سبيل الحرية»، ولا أعلم عما إذا كانت بين أوراقه محاولات أخرى ، ولكننى أظن أن ما صادفه خلال حياته القصيرة قد فاق كل خيال بما فيه خياله الشخصى ، كما أنه وبشكل واضح كان براجماتى يدوس على الأرض أكثر مما يحلق فى الفضاء .

ولقد كتب الرئيس الراحل أنور السادات عدداً من الكتب أثناء وجوده فى السلطة لعل من أبرزها كتابيه «يا ولدى .. هذا عمك جمال» و«البحث عن الذات» ، وبينما اختفى الكتاب الأول من الأسواق تقريباً فى ظروف غامضة ، فلا يزال الثانى متاحاً للقراء ، ومن المدهش أن أحداً لم يتناول أيا من الكتابين من زاوية أدبية رغم أن الكاتب كان حريصاً على إمكانياته الأدبية ، وكانت الموضوعات فى مجملها قطعاً فريدة من الخيال السياسى المتقن .

إن قراءة بعض الكتب التى كتبها بعض قدامى السياسيين حول حياتهم الشخصية أو دورهم السياسى ، تؤكد أنه مثلما يوجد نوع من أدب «الخيال العلمى» Scientific Fiction

فهناك نوع من أدب «الخيال السياسى» Political Fiction ، وفى هذا النوع الأخير تتلاشى المسافات بين الواقع المعاش وبين شطحات الخيال ، فنرى مثلاً من يكتب عن قراراته الخاطئة بشكل يعيد صياغتها من جديد بحيث لا تصبح كذلك أو يصبح الخطأ ناتجاً عن آخرين أو أسباب قهرية يتم صنعها أو إبداعها من جديد ، وفى هذه الحالة فإن السياسى المتقاعد يسترد الأديب المتخفى كى يأخذ من السياسة مادته الأدبية ، ويصب سيرته فى ذلك القالب كى يقدم لنا بطلاً لا يختلف كثيراً عن أى بطل لرواية كتبها أى أديب ، حيث إن شخصيتها الرئيسية تمت صياغتها بخيال خصب يمزج بين الواقع والخيال بقدر ما تسعفه إمكانياته كأديب .

ومن الملاحظ أن المكتبة العربية كانت فقيرة فى هذا النوع من «الخيال السياسى» ، إلا أنه خلال السنوات الماضية شهدت طفرة هائلة خاصة فى كتب المذكرات السياسية التى انتشرت بشكل واضح ، وهى فى أغلبها تشبه عمليات «غسيل النقود» من حيث استهدافها خلق شخصية جديدة تم تأليفها تأليفاً ومعها حوادث لا تكاد تمت بصلة لواقعها التاريخى سوى فى بعض قشور تستند عليها لإضفاء قدر من المصداقية .

وهكذا يقرأ الناس ويستمتعون بأدب بعض السياسيين ، بما يتيح لهم أن يستنبطوا ما لم يتح لهم فهمه أثناء تولى السياسى لمنصبه ، حيث إن ما يكتب يظل تراثاً سوف تتأمله الأجيال المقبلة فربما فهمت بعض ما دار فى زماننا السعيد ، وهكذا يقدم بعض السياسيين خدمة كبيرة للأدب والسياسة فى آن واحد .

عود على بدء

ربما هذا ليس زمن القلم ، وقد يكون على الكتاب أن يبحثوا لهم عن مهنة أخرى ، كما أن إيثار السلامة وتفادى الألغام التى تختبئ خلف كل كلمة وحرف قد يكون أفضل كثيراً من حلم باهظ التكلفة ويبدو محال التحقيق ، ولعل البعض قد يقولون ما فائدة القلم فى زمن القنبلة ، وما جدوى السطور فى مخاطبة القبور ؟ ... وهذه كلها - بلا شك - أسئلة مشروعة بل وجدية ، ولكن ليست هذه هى المشكلة .. فالمشكلة هي أن «داء الكتابة» ليس خياراً للكاتب ، فهو مجبول على ذلك ومدفوع دفعاً عليه ، كما أنه لا جدال فى أنه فى التحليل الأخير يبقى للقلم سطوته وقيمته ، وكيف لا إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أقسم به ؟ ، وسوف تبقى للكلمة قيمتها التنويرية مهما تكاثفت السحب وطال زمن الظلام ..

ألوان من الفن الدبلوماسى

عزيزى القارىء .. إن الوثائق الأمريكية السرية التالية تعد نماذجاً للدبلوماسية فى التطبيق ، وبعضها يمثل بالفعل مستوى راقياً من الفن الدبلوماسى ، وهذا فى حد ذاته – وبغض النظر عن الموضوع – يقدم فائدة قيمة للمهتمين بهذا الفن الدولى ، ولسوف نعرض لخمس وثائق ، منها اثنتان تمثلان ما أسميناه «دبلوماسية الخطابات» ما بين رؤساء الدول ، واثنتان تعرضان ما نطلق عليه فى العمل الدبلوماسى «محاضر المقابلات» ، بينما تمثل الوثيقة الأخيرة ما يمكن أن نسميه «تقدير موقف سياسى» ، وهى عبارة عن تلخيص لبرقية من سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة .

والخطابات المتبادلة بين رؤساء الدول ، تعكس بالفعل مستوى عالياً من الدبلوماسية ولا يعلوه سوى اللقاء المباشر بين هؤلاء الرؤساء ، فهى تحمل تلك «اللمسة الشخصية الخاصة» للرئيس ، وقدراً كبيراً من المصداقية والالتزام ، وغنى عن الذكر أن أغلب الرؤساء يعتمدون فى كتابة هذه الخطابات على أشخاص متخصصين ، بل يتم عرض فقرات الخطاب على جهات اختصاص مختلفة (الخارجية – الأمن القومى – الاقتصاد .. إلخ) ، وذلك لخطورة وأهمية هذه الوثائق ، فكل كلمة فيها يمكن أن تؤدى إلى مفهوم معين

بالنسبة للطرف المستقبل ، وكل التزام الدولة فيها يمثل أعلى درجات التزام الدولة التى يمكن أن تتحمل مسئولية عدم الوفاء به ، فالخطاب رغم سماته الشخصية ليس مجرد خطاب شخصى بين صديقين ، وإنما هو «وثيقة» تحمل بلا شك أبعاداً قانونية لكون الموقع عليها هو رئيس الدول الذى أرسلها بهذه الصفة.

والخطابات الرئاسية تحمل فى الغالب تأكيداً على مواقف معينة ، وحثاً على اتباع سياسية معينة ، وتكريساً لمضامين محددة ، ويتم كل ذلك بشكل عام ، وبإشارات تغنى عن التفصيل ، فليس من المتوقع أن يحمل خطاب رئاسى سرداً تفصيلياً ، وإنما يترك ذلك لجهاز الدبلوماسية المتخصص .

ويتم اللجوء إلى هذا الأسلوب إذا ما اقتضت الحاجة تسجيل مواقف محددة ، أو فى الحالات التى يصعب فيها اللقاء المباشر بين الرئيسين ، وقد يقول قائل إن الهاتف أو وسائل الاتصال الأخرى يمكن أن تحل محل هذا الأسلوب ، ولكن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق ، أو على الأقل لن يحدث نفس الأثر ، فالدول فى علاقاتها تحرص على توثيق مبادلاتها المختلفة ، ليس فقط لأسباب كتابة التاريخ ، وإنما – وهو الأهم – للاحتجاج بتلك الوثائق إذا اقتضى الأمر ذلك .

وسوف نلاحظ أن الخطاب الموجه من الرئيس جونسون إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى أشكول ، يركز على قضيتين

رئيسيتين هما : قضية مياه نهر الأردن ، وقضية اللاجئين الفلسطينيين ، وبدون تفاصيل يشير الخطاب إلى أهم مسألتين على أجندة الولايات المتحدة فيما يتعلق بالشرق الأوسط في ذلك الحين ، وهما : كيفية الحفاظ على شكل «الوسيط المحايد» «لعدم التأثير سلباً على العلاقات الأمريكية/ العربية بما يعنيه ذلك من تأثير على مصالحها الإستراتيجية والمتمثلة أساساً في مناهضة النفوذ السوفييتى فى المنطقة ، وكذلك البترول والممرات المائية والجوية والبرية الإستراتيجية ، أما المسألة الثانية فهى السعى للتوصل إلى صيغة لتحقيق السلام بين إسرائيل وجيرانها . ولا شك فى أن صانع القرار الأمريكى آنذاك كان يواجه معضلة حقيقية ، لأن إسرائيل كانت تسعى إلى توريط الولايات المتحدة إلى جانبها بشكل سافر فى الصراع العربى / الإسرائيلى ، وكانت تتخوف من مظاهر التقارب الأمريكى / العربى وخاصة بعد الرسائل المتبادلة بين ناصر وكيندى ، ولقد كان ذلك هو السبب في أن خطاب جونسون إلى أشكول قد تضمن تأكيدات بضمانات أمريكية لأمن إسرائيل ، وكأنما هى وسيلة كى تبتلع إسرائيل موضوع «خطة جونسون لتوزيع مياه نهر الأردن» وكذلك «موضوع اللاجئين الفلسطينيين» .

أما الخطاب الثانى والموجه إلى الملك حسين ، فإنه يقتصر

على التشجيع وإعطاء الثقة للملك الشاب كى يستمر فى لعب الدور المرسوم له فى المنطقة كما ستكشف عنه الوثائق التالية، فهو نوع من الطمأنة بأن الولايات المتحدة الأمريكية موجودة وراءه ، وبأنه يستطيع أن يواصل سياسته المضادة لعبدالناصر بالشكل الذى يتناسب مع السياسة الأمريكية فى المنطقة . أما «محاضر المقابلات» فهى تسجيل آخر لإحدى وسائل الفن الدبلوماسى ، وهى إما محاضر مقابلات معتمدة من الجانبين (أى يقوم الجانبان بتوقيعها فى نهاية المحادثات) وتشتمل فقط على ما يتم الاتفاق على إدراجه فيها ، وإما محاضر مقابلات يقوم بتحريرها كل طرف على حدة بواسطة أحد حضور هذه المقابلات، وتكون أكثر تفصيلاً وتشمل أغلب ما دار من حوار . وهذه المحاضر ذات فائدة كبيرة ، حيث إنها تقدم دروساً فى تكنيك إدارة الحوار والتفاوض ، كما أنها تعكس إلى حد كبير المواقف السياسية المعتمدة للطرفين، وهى تعتمد إلى حد كبير على حنكة ودراية المشاركين فيها ، وعلى دقة التدوين ، ولكنها من ناحية أخرى قد تكون غير دقيقة إذا كان أحد الطرفين (أو كلاهما) يعبر عن رؤاه الشخصية التى لا تعكس بحق موقف حكومته ، كما أن الشخص المفاوض أو المحاور قد تكون لديه خصائص نفسية معينة تجعله مثلا أكثر ميلا للخضوع للرأى الآخر ، أو أكثر

مبالغة فى تقديم وجهة نظره ، وفى كلتا الحالتين لا يمكن لمحضر المقابلة أن يعكس بشكل صادق موقف الدولة التى يمثلها هذا الشخص ، وتتمثل الخطورة فى أن يبنى الطرف الآخر مواقفه بناء على عناصر منها ذلك المحضر .

والمحضر الأول يعكس نشاطاً محموماً للسفير الإسرائيلى فى واشنطن ، وسنجد محاضر أخرى كثيرة للقاءات بين هذا السفير ومعاونيه مع المسئولين الأمريكيين ، ويركز فيه على مخاوف إسرائيل الأمنية ، وخاصة من التطور العسكرى للجمهورية العربية المتحدة (مصر) ، وسنلاحظ أنه يقدم معلومات محددة عن التفوق المصرى العسكرى ، ويشير فى نفس الوقت إلى ما تتكبده الميزانية الإسرائيلية من نفقات عسكرية ، ولسوف تكون تلك هى النغمة الأساسية فى الموقف الإسرائيلى كما ستكشف عنه الوثائق التالية .

أما المحضر الثانى فهو مع الملحق الصحفى لسفارة مصر فى واشنطن ، ونلاحظ إشارة المحضر إلى أن هذا الملحق هو القوة الحقيقية فى السفارة ، وهى إشارة لها مغزى ، فهى تؤكد اختراق السفارة نفسها وتعرف مراكز القوة فيها، ومن ناحية أخرى مدى مصداقية ما ينقل على لسان هذا الشخص إلى الإدارة الأمريكية ، وفى نفس الوقت أهمية ما تنقله هذه الإدارة إليه بغرض نقله إلى القاهرة . وتشير مقدمة المحضر

إلى أن المقابلة تمت بناء على طلب الملحق الصحفى المصرى وذلك قبل نزوله إلى القاهرة لحضور القمة العربية ، وهى إشارة أخرى ذات مغزى ، فحين يطلب الدبلوماسى مقابلة المسئولين فى الدولة المعتمد لديها قبل نزوله إلى بلاده (وخاصة قبل مؤتمر كانت أمريكا تتحسب له) ، فهذا يعنى أنه مكلف بتوصيل رسالة أو مفهوم معين ، أو مطلوب منه أن يتلقى رسالة أو مفهوماً معينا ، وباستقراء ما جاء فى المحضر، سنجد أن الملحق الصحفى المصري ركز على تحسن العلاقات المصرية / الأمريكية ، والمعونة الأمريكية بشكل عام، بينما حدد المسئول الأمريكي موقف بلاده فى إبداء اعتراض ضمنى على خطاب للرئيس ناصر ومقال للصحفى هيكل ، ثم (وبمناسبة القمة العربية) تهديد ضمنى بعدم التصعيد ، مع السخرية من عبارة تكررت كثيراً فى الوثائق على لسان سفير مصر فى واشنطن آنذاك وهى أن مصر (وضعت موضوع إسرائيل فى الثلاجة) . وتحليل مضمون هذا المحضر يكشف فى تناقض واضح بين موقف الممثل المصرى وموقف حكومته (وهو ما كشف عنه المحاور الأمريكي نفسه) ، ثم أنه - طبقا للمحضر - أبدى تفهمه للموقف الأمريكى (وهذا يعنى دبلوماسياً أن هناك قناعة مسبقة بهذا الموقف من جانب حكومته) ، بل وأكد ذلك حين طلب من المحاور الأمريكى أن

يعطيه «مخرجا» ، وكأن الحكومة المصرية تتبنى بالفعل الموقف الأمريكى ، وكل ما تريده هو أن تقدم لها الحكومة الأمريكية صيغة يمكن تسويقها ، وبالطبع، وطبقاً لمجرى الوثائق فيما بعد ، بل وطبقاً لما هو معلوم من الموقف المصرى آنذاك ، فإن ذلك لم يكن دقيقاً على الإطلاق .

وهنا يجدر التأكيد على أهمية أن يلتزم ممثل الدولة بموقف بلاده (مهما كان رأيه الشخصى فى ذلك الموقف) ، لأن الأطراف الأخرى لا تدرك بسهولة أنه لا يعبر بدقة عن هذا الموقف ، وقد تبنى سياساتها بناء على ما ينقله إليها ذلك الممثل ، ومن ناحية أخرى تبرز أهمية تزويد ذلك الشخص بالمعلومات الكافية فى التوقيت المناسب كى يتسلح بها فى مثل هذه اللقاءات ، فلربما كانت مشكلة ذلك الشخص تحديداً أن الموضوع لديه لم يكن مكتملا أو أن المعلومات لم تكن كافية ، وبالتالى (وبعكس محضر المقابلة مع السفير الإسرائيلى) ، كانت مشاركته قاصرة على تأكيدات عامة حول رغبة فى الحفاظ على العلاقات ، ثم إضافات غير موفقة فيما يتعلق بموقف مصر فى تلك الفترة .

ولا يمكن أن يفوتنا التنويه أيضا على ما ورد فى ذلك المحضر من أن «الملحق الصحفى» هو القوة الحقيقية فى السفارة المصرية بواشنطن ، فمن المعروف أن «السفير» هو

الذى يمثل شخصياً رئيس الدولة ، أما باقى أعضاء السفارة فهم معاونون له ، ولا ينبغى أن تكون للسفارة أكثر من رأس فى التعامل مع الدولة المعتمدة لديها ، ولا شك أن تلك الأوضاع الشاذة تؤثر سلباً على مصالح الدولة ، بل وتؤدى إلى تضارب وتخبط فى علاقاتها مع الدول الأخرى ، وتتيح لمن يريد الصيد فى الماء العكر أن يقتنص المعلومات ، ويرسل إشارات متعارضة من خلال أشخاص متعددين ، ولسوف توضح لنا الوثائق الأمريكية أن السفير الإسرائيلى كان على الدوام هو المتحدث الرئيسى مع الإدارة الأمريكية ، وكان يصحبه فى لقاءاته عدد من المتخصصين فى سفارته ، وبالتالى كان هناك استقرار وتأكيد على الخطوط السياسية الإسرائيلية ، وبتنسيق كامل مع وزارة الخارجية الإسرائيلية.

أما آخر الوثائق فى هذا الفصل ، فهى نوع آخر من أنواع «الفن الدبلوماسى» ، ويتمثل فيما أطلقنا عليه «تقدير الموقف السياسى» ، ويتمثل فى محاولة لوضع تصور لما وصلت إليه الأوضاع السياسية فى توقيت معين ، ورسم بعض ملامح التحرك السياسى المطلوب خلال المستقبل ، وهو ما يعكسه - بشكل مقتضب - ملخص برقية السفير الأمريكى فى القاهرة خلال تلك الفترة . وهذا التقدير ليس

رجماً بالغيب ، أو مجرد خيال أدبى ، وإنما هو نتاج عمل مجهد واستقصاء شاق لكل مصادر المعلومات المتوفرة ، فهو حصيلة لقاءات وقراءات وخبرة السفير الذى وضع هذا التقدير .

نوع الوثيقة : خطاب من الرئيس جونسون إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى أشكول .

تاريخ الوثيقة : ٢ يناير ١٩٦٤.

مصدر الوثيقة : مكتبة جونسون ، ملف الأمن القومى ، الخطابات الخاصة برئيس الدولة / سرى .

ملحوظة : تم إرسال هذا الخطاب فى البرقية رقم ٥٩٤ إلى تل أبيب.

عزيزي السيد رئيس الوزارء ..

إن الزيارة التى قام بها إلى إسرائيل صديقى «سارجنت شرايفر» مدير فيلق السلام ، قد أتاحت لى فرصة كى أجدد الاتصال الأخوى الصادق بين حكومتينا . (١)

إننى أعلم بالطبع المراسلات التى تمت بينك وبين الرئيس كيندى وكذلك مع بن جوريون . وأنا أقدر كذلك بشدة العلاقات الطيبة والقوية التى توحد بين حكومتينا ، وهو ما ينبغى أن يستمر ، ولذلك فإننى أتطلع إلى تأسيس نفس الدرجة العالية من التفاهم المشترك كما كانت موجودة مع

أسلافنا .

ومن بين أهم المشاكل التي يجب أن نبحثها في المستقبل القريب ، مشكلة مياه نهر الأردن ، حيث نقف وراءكم في حقكم لسحب كميات المياه طبقاً للخطة الموحدة (Unified Plan) (٢) .

وكذلك يحتل تأكيدنا لمستقبل أمن اسرائيل قمة الأولويات، بالشكل الذي يتيح استقرار الأوضاع في المنطقة وليس زعزعتها ، ويقلقنا كذلك إيجاد حل مرضٍ لمشكلة اللاجئين باعتبار ذلك شرطاً أساسياً للسلام العربي - الإسرائيلي ، ويمكنكم أن تتأكدوا من أننا نولي هذه المسائل اهتمامنا الأقصى ونأمل في تبادل الرأي بشكل كامل وودي مع حكومتكم حول أفضل الوسائل لمعالجتها ، وآمل أن أكتب إليكم في أقرب فرصة رداً على خطابكم المؤرخ في ٤ نوفمبر حول مشاكل إسرائيل الأمنية .

وفي نفس الوقت ، فإنني أود أن أؤكد لكم أنني أدعم بشكل كامل البيان الذي أعلنه الرئيس كيندي في ٨ مايو ١٩٦٣، بأننا مصممون على الدفاع عن أمن كل الدول في الشرق الأدنى ، وكذلك تأكيداتنا العلنية والخاصة بدعم أمن إسرائيل ، ولن يكون هناك أي تغيير في سياسة حكومة الولايات المتحدة في هذا الصدد.

أرجو أن أتطلع إلى سعادة الالتقاء بكم فى المستقبل القريب للحديث حول هذه الأشياء وجها لوجه (٢).

المخلص،

ليندون ب. جونسون

نوع الوثيقة : رسالة من الرئيس جونسون إلي الملك حسين.

تاريخ الوثيقة : ٢ يناير ١٩٦٤ م.

مصدر الوثيقة : مكتبة جونسون، ملف الأمن القومي، رسائل رئيس الدولة.

ملحوظة : تم إرسال الخطاب في برقية رقم ٢٦٩ إلي السفارة الأمريكية في عمان بتاريخ ٣ يناير .

صاحب الجلالة :

أنتهز فرصة زيارة صديقى العزيز ورفيقى سارجنت شرايفر إلى الأراضى المقدسة كى ينقل لجلالتكم تحياتى المخلصة وأمنياتى الحارة الطيبة .

رغم أننى لم يسبق لى زيارة الأردن، أشعر أننى أعرف بلادكم بسبب اهتمامى العميق بالإنجيل وبسبب العلاقات القوية والأخوية التى تربط بين بلادى والأردن، لقد أوضحنا بطرق عديدة دعمنا لتقدم الأردن تحت قيادة جلالتكم الحكيمة، ونتتبع بكل فخر الإنجازات فى الرخاء السياسى والاقتصادى فى الأردن، وتشعر الولايات المتحدة بالسعادة لارتباطها مع جهود جلالتكم لبناء بلادكم وخدمة شعبكم.

أعلم بالعقبات الخطيرة والمشاكل الثقيلة التى تواجهكم يا صاحب الجلالة فى قيادة الأردن إلى الأمام، فمنذ سنوات قليلة فقط، كان الأمر يتطلب إيمانا قويا بأن الأردن يمكنه التغلب على العقبات التى تواجهه فى سبيل الاكتفاء الذاتى اقتصاديا، ولقد قدمتم ذلك الإيمان يا صاحب الجلالة من خلال قيادتكم، وإن ثقتكم الدائمة قد أوضحت الآن أن الاستقلال الاقتصادى فى المستقبل القريب ليس مجرد حلم وهمى.

دعنى أؤكد لكم بشكل مخلص وكامل بأن الولايات المتحدة سوف تستمر فى المساعدة بكل ما تستطيع لدعم جهود الأردن لتحقيق الأهداف التي قمتم بوضعها بحكمة (٤).

نوع الوثيقة : محضر مقابلة .

تاريخ الوثيقة : ٣ يناير ١٩٦٤ .

مصدر الوثيقة : الملفات والتسجيلات الوطنية للإدارة، سري - تم صياغتها بواسطة فليبس تالبوت مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدني وجنوب آسيا .

موضوع المقابلة : طلب إسرائيل لمساعدات عسكرية .

الحضور :

- الوزير (وزير الخارجية الأمريكى) .
- صاحب السعادة أفريل هارمان، سفير إسرائيل (فى واشنطن).

- السيد موردخاى جازيت، وزير مفوض بسفارة إسرائيل.
- السيد شاؤول بارحاييم، المستشار بسفارة إسرائيل.
- مساعد الوزير فليبس تالبوت.

ذكر السفير أنه فى استشارة قريبة فى إسرائيل وجد أن حكومته كانت قلقة بموضوع رئيسى عن الدفاع، وتعتبر إسرائيل أن المحادثات أيام ١٢ و ١٣ نوفمبر بين ممثليها وممثلى الحكومة الأمريكية كانت مفيدة للغاية، وقدمت معلومات خاصة بالنسبة لوضع الدبابات، وهو يعتقد بأن الولايات المتحدة لديها الآن صورة طيبة عن احتياجات إسرائيل.

ذكر السفير أن رئيس الوزراء فى جيروزاليم قد طلب منه أن يضع أمام الوزير لتنظر الحكومة الأمريكية الوضع الأمنى بالكامل فى إسرائيل، وخاصة الموقف فيما يتعلق بالدبابات، الذى يعتبر خطيراً بالفعل، وأنه ينتهز الفرصة كى يقوم بذلك الآن، فهناك عنصران : نوعى وكمى، من الناحية النوعية ليس هناك شك فى أن إسرائيل حاليا فى وضع أقل كثيرا من الجمهورية العربية المتحدة (مصر)، فإسرائيل تملك دبابات السنتوريون، والأماكس، والشيرمان، بينما تملك الجمهورية العربية المتحدة الدبابات السوفييتية ت - ٥٤، وستالين ٣،

وعدد متناقص من ت - ٣٤.

إن دبابات ت - ٥٤ التى تصل فى أعداد متزايدة تتفوق على أى شىء فى مخزون إسرائيل من الدبابات وذلك فى كل النواحى مثل قوة النيران والتدريع والمناورة .. الخ، وبالتالى، فإنه من الضرورى لإسرائيل أن تقوم باحلال ٣٠٠ دبابة على الأقل بدبابات أكثر تأثيرا . وهى تترغب فى الحصول من الولايات المتحدة على ٢٠٠ دبابة م ٤٨ - أ٣ خلال عام أو شئ من هذا القبيل، على أن تحصل خلال عامين أو ثلاثة على مائة دبابة م ٦٠ ، وكل ذلك كإحلال للدبابات القديمة .

ذكر السفير أن إسرائيل تواجه أيضا مشكلة كمية، ففى محادثات نوفمبر أعرب ممثلو إسرائيل بما اعتقدوا أن الأمريكيين قد وافقوهم عليه، بأن أقل احتياج أمنى يتوافر إذا احتفظت إسرائيل بمعدل واحد إلى اثنين أو على الأسوأ واحد إلى ثلاثة فيما يتعلق بعدد الدبابات التى يملكها العرب، ولتحقيق ذلك المعدل خلال العامين أو الثلاثة القادمين فإن إسرائيل تحتاج لإضافة ٢٠٠ دبابة م ٦٠ .

تساءل الوزير عن المكان الذى حصلت منه إسرائيل على دبابات شيرمان، فأجاب الوزير بأنه تم شراؤها على الأغلب من أوروبا، وأن إسرائيل حصلت عليها بسبب أنها كانت كل ما هو متوافر .

صرح السفير بأن إسرائيل تعتقد أن سياستها فى الردع قد نجحت خلال الخمسة عشر عاما الماضية، والآن فإن إسرائيل تواجه مشاكل الخفاظ على هذا الردع، وهى تعتبر هذه المشاكل ذات طبيعة متناهية، وبأن المساعدات التى يناقشها تجعل إسرائيل في وضع يسمح لها أن تحافظ على موقفها خلال الأعوام الخمس القادمة أو ما بعدها بما يقنع الغرب بأن الهجوم على إسرائيل لن يكون مفيداً .

قال السفير إنه بينما تمثل الجمهورية العربية المتحدة التهديد الرئيسى لإسرائيل، فإن بلاده يجب أن تحتفظ ببعض القوة المدرعة في مواجهة القوات المسلحة الأردنية، التى يقدرها الإسرائيليون بشكل كبير. كما احتفظت بقوة صغيرة من الدبابات فى مواجهة السوريين والعراقيين، لأن إسرائيل معرضة للغاية فى منتصف البلاد، فى مناطق لاتزيد على عشرة أميال فى العرض بما يجعلها ميداناً جيداً للدبابات.

أوضح الوزير أنه لن يعنى شيئا من السؤال الذى سيطرحه، قائلاً عما إذا كانت إسرائيل قد نظرت إلى موضوع السباق ما بين الدبابات والصواريخ المضادة للدبابات، لأن لديه انطباع بأن الدبابة فى طريقها للخروج من التسليح، مثل سلاح الفرسان، وأنه كرجل مشاه سابق سوف يكون أكثر سعادة فى استخدام سلاح حديث مضاد للدبابات،

بدلا من وجوده داخل دبابة، قال السفير إن هذا الموضوع قد أثير بشكل عابر أثناء محادثات نوفمبر، وإن الجنرال رابين قد أوضح وجهة نظر إسرائيل بجلاء، فهى تفكر فى مشكلة الدبابات الحالة كموضوع على المدى القصير خلال فترة من الخطورة القصوى، والشئ الوحيد الذى يجب أن يتم خلال السنوات القادمة هو مواجهة الدبابات بالدبابات .

استطرد السفير موضحا أن إسرائيل تأمل فى الحصول على هذه الدبابات من الولايات المتحدة الأمريكية كمساعدة عسكرية، فقد أصبح العبء العسكرى ثقيلا، ورئيس الوزراء لديه خبرة كبيرة فى المجال العسكرى كوكيل سابق لوزارة المالية ثم وزير للمالية والآن كوزير للدفاع ورئيس للوزراء، وبالتالى فهو واع بالأبعاد المالية للهم العسكرى، وأظهر حساسية شديدة تجاه ذلك، وبالتالى فهو لايضخم الاحتياج .

قال الوزير إن مخصصات المساعدات العسكرية محدودة جدا فى الوقت الحالى، وبعض الاستقطاعات التى أجريت مؤخراً قد أضرت ببرنامجنا للمساعدات أكثر مما أضرت ببرنامج المساعدات الاقتصادية، ولكننا على أية حال سوف ندرس الطلب، ثم سأل الوزير عما إذا كنا قد حصلنا من إسرائيل على أية معلومات بشأن نفقاتها العسكرية خارج مسألة المساعدة، فأجاب السفير بأن أحدا لم يسأل إسرائيل

لتقديم ذلك، فأشار الوزير أن ذلك سوف يكون مفيدا، ذكر السفير أنه يريد أن يتحدث قليلا عن الجانب البحرى، فلقد طورت الجمهورية العربية المتحدة مقدرتها على الحصار والقصف والإنزال، بشكل لايمكن للدفاعات الإسرائيلية مواجهته، والآن تواجه أيضا مشكلة الصواريخ الموجهة من السفن إلى الشاطئ، وذلك هو بعد آخر من الحمل الدفاعى الثقيل لإسرائيل، ففى ميزانية العام القادم الذى يبدأ فى أول إبريل، سوف تحصل المؤسسة العسكرية الإسرائيلية على ٤٠٪ من الميزانية العادية، و١١٪ من متوسط الدخل القومى.

قال الوزير إننا متعاطفون مع مشكلة الدفاع وسوف ننظر إلى طلبات إسرائيل، إلا أن المساعدة العسكرية تعتبر مشكلة كبيرة بالنسبة لنا بسبب تضاؤل المتوفر والاحتياجات الشديدة، وذكر أنه قد يكون من المفيد أن تخطرنا حكومة إسرائيل بمعلومات عن نفقاتها الدفاعية الخارجية، لأن هذه المعلومات ذات صلة كبيرة ومتوقعة من متلقى المساعدات العسكرية.

وسأل الوزير عما إذا كانت حكومة إسرائيل قد قدمت طلبها كتابة، فأجاب السفير أن ذلك لم يحدث باستثناء ما ورد فى الخطاب الذى أرسله أشكول إلى الرئيس كيندى .

نوع الوثيقة : مذكرة للتسجيل .

مصدر الوثيقة : مكتبة جونسون، ملفات الأمن الوطني،

سري، ملف الجمهورية العربية المتحدة .

تاريخ الوثيقة : ٣ يناير ١٩٦٤ .

بناء على طلبه، حضر اليوم الملحق الصحفي بسفارة الجمهورية العربية المتحدة (حبيب) (وهو القوة الحقيقية فى سفارة الجمهورية العربية المتحدة، وسوف يغادر إلى القاهرة ٦ يناير ليتولى الأعمال الصحفية مع المراسلين الأجانب خلال مؤتمر القمة العربى (٥) أشار إلى التحسن الملحوظ فى العلاقات المصرية/ الأمريكية من خلال المراسلات المتبادلة مع الرئيس كيندى، وهى السياسة التى قال الرئيس جونسون لناصر عنها أنه سوف يستمر فيها (٦) .

ركزت على أن عام ١٩٦٤ يبدو أنه سوف يكون اختبارا حقيقيا لتحسن علاقاتنا، وذلك بشكل أساسى فيما يتعلق بمياه نهر الأردن، وهو واحد من الموضوعات العربية/ الإسرائيلية التى يختلف حولها بالضرورة موقف الولايات المتحدة مع موقف الجمهورية العربية المتحدة، ولقد تأثرنا حتى الآن بمعالجة ناصر لهذه المشكلة، وأشرت إلى خطاب بورسعيد وتعليق هيكل عليه، ونحن نأمل بقوة فى أن ناصر بوصفه الزعيم العربى الأول يمكنه أن يمارس سياسة ضبط النفس، وذكرت حبيب بشكل هادئ أن الظروف خلال العام السابق – خاصة اليمن – قد أدت إلى صدور قانون جروينن

(٧) ، الذى قيّد حريتنا فى المناورة، وأننى أخشى من أن انفجاراً عدائماً عربيماً حول موضوع مياه نهر الأردن سوف يؤدي إلي مزيد من ضغوط الكونجرس على الإدارة ، وذلك (رغم اعترافنا بأن العرب ليست لديهم نوايا عمل عسكرى) سوف يغل يدينا، فإذا كان من الممكن أن نعبر فقط خلال ١٩٦٤ بدون انتكاسة فى علاقة الولايات المتحدة مع العرب، فإننى أشعر بالثقة بأن التطور الواضح فى العلاقات خلال السنوات القليلة الماضية سوف يستمر ويقوى.

بدا على حبيب أنه متفهم، لكنه تساءل عما يمكن أن نوفره كمخرج للعرب، فأجبت بأننا حاولنا ذلك خلال الخطة الموحدة عام ١٩٥٥ ، التى تدعو إلى تقسيم عادل لمياه نهر الأردن بين المستخدمين المتعددين، ولقد ضممنا على التزام إسرائيل بنصيبها الذى يترك ٦٠٪ من المياه للعرب، وتساءل حبيب عن موقفنا تجاه دعوة عربية لنظام دولى للمراقبة والمحاسبة بالنسبة لعمليات سحب المياه وأيضا للتطورات النووية، أوضحت بأن ردنا سوف يتوقف على طبيعة المقترحات، ولكن من حيث المبدأ فأنا أشعر بأنني سوف أفضل أى ترتيبات دولية تبدو مقبولة للأطراف .

وعند مغادرة حبيب ، أشار إلى «أبو سنبل» وأن الجمهورية العربية المتحدة تأمل أن الرئيس جونسون سوف

يرسل رسالة شخصية عند تقرير المساهمة الأمريكية فى هذا الصدد، فقلت له بشكل تغلب عليه السخرية إذا تمكنت بشكل ما من الاحتفاظ بموضوع إسرائيل فى الثلاجة (IN THE LCEBOX) كما اعتاد السفير المصرى كامل أن يقول، خلال مؤتمر القمة العربى، فإننا قد نستطيع أن نتذكر مساعدة أمريكية لأبى سمبل .

التوقيع ر . دبليو . كومر.

نوع الوثيقة : ملخص تم إعداده في وزارة الخارجية.

مصدر الوثيقة : مكتبة جونسون – سري – كل من الملخص والخطاب من تسع صفحات من بادو تم حفظهما مع مذكرة في ١٤ يناير من راسك إلي الرئيس، وتوجد أيضا مذكرة عليها في نفس اليوم من كومر إلي بيل مويرز تشير إلي أن الرئيس قد يريد أن يسأل بادو الاستمرار في موقعه خلال تلك الفترة الشائكة من العلاقات المصرية الأمريكية التي من المتوقع أن تتطور بسبب موضوع مياه نهر الأردن، كما توجد مذكرة بدون تاريخ من مويرز إلي السكرتير التنفيذي لمجلس الأمن القومي «بروملي سميث» تذكر أن الرئيس قد اطلع علي الموضوع، وأن «بوندي» سوف يتحدث إليه بشأن الطلب من بادو أن يستمر في موقعه .

ملخص لخطاب السفير بادو المؤرخ في ٣ يناير ١٩٦٤ إلى الرئيس .

١ – إن مصر هي بشكل أساسي دولة عربية شرقية

وزعيمة لحركة الإصلاح القومى، ورغم أن حركة الوحدة العربية قد تباطأت، فإن ناصر قد ظل أكثر الزعماء العرب احتراما، وقد أعطى ذلك لمصر مقدرة مستقلة مميزة للتأثير على المصالح الأمريكية فى المنطقة.

٢ – إن مصالحنا هى : أن نوقف الاختراق السوفييتى، أن نحافظ على المعابر الغربية للطرق الجوية والبحرية وكذلك للبترول العربى، وأن ندعم السلام والتقدم فى المنطقة.

٣ – وقد كانت سياستنا على النحو التالى : مد المساعدة الاقتصادية، التعامل العادل مع مشاكل المنطقة، استعدادنا للتدخل بالقوة وبالهيبة دفاعا عن مصالحنا.

٤ – وقد ظهرت حكمة هذه السياسات من خلال زيادة النفوذ الأمريكى على حساب النفوذ السوفييتى منذ ١٩٥٦، وبالإضافة إلى ذلك، فإن النزاعات العربية/ العربية قد تضاءلت، كما أن الموقف العلنى للجمهورية العربية المتحدة بالنسبة لموضوع مياه الأردن كان معتدلا، وكذلك بالنسبة للدعم الأمريكى مؤخراً لإسرائيل، لقد حافظت الجمهورية العربية المتحدة على موضوع إسرائيل فى الثلاجة، وهى تعتبر أنها لن تهاجم إسرائيل إلا إذا تأكدت أن الأخيرة سوف تبدأ فى إنتاج أسلحة نووية. وقد تم حل المطالبات الأمريكية الخاصة بشكل بطىء، وتم تأكيد مرور الغرب من قناة

السويس (باستثناء قيام تعرضات عسكرية عربية إسرائيلية)، وقد أبدى المصريون تفهما متزايدا لميزة العلاقات الطيبة مع الغرب.

٥ - إن المشاكل المتبقية بين القاهرة وواشنطن يمكن السيطرة عليها. لقد كان الانسحاب المصرى من اليمن بطيئاً، ولكنهم يعترفون بمبدأ فض الاشتباك، لايوجد تهديد حالى ضد الحكومة السعودية أو عدن، ومن الممكن أن تعم الفوضى فى اليمن إذا خرجت منها الجمهورية العربية المتحدة بسرعة كبيرة .

٦ - تظل الجمهورية العربية المتحدة معتمدة بشكل كبير على المساعدة العسكرية السوفييتية، ولكن المساعدة الغربية وخاصة برنامج PL 480 قد ساعدت على الحفاظ على سياسة عدم الانحياز، والجمهورية العربية المتحدة لاتزال معادية لإسرائيل، ولكنها تميل إلى سياسة الاحتواء، وحتى ذلك الجرح يمكن للزمن أن يشفيه .

والخلاصة، أن توقف المساعدة الأمريكية إلى الجمهورية العربية المتحدة لن يؤدى إلى تحسين سياساتها، بل إلى القضاء على المكاسب التى تحققت منذ ١٩٥٦ ويهدد مصالحنا، أن المقصلة يمكن استخدامها فقط مرة لكل موضوع.

الهوامش

(١) كان شرايفر قد سلم رسالة الرئيس إلي أشكول يوم ٧ يناير، وتم تلخيص المقابلة بينهما في برقية السفارة من تل أبيب رقم ٧٥١ التي تم إرسالها في ٨ يناير، وفي مذكرة أعدها روبرت كومر من مجلس الأمن القومي يوم ٢٩ يناير أشار إلي أن شرايفر قدم دعوة إلي أشكول لزيارة واشنطن.

(٢) الخطة الموحدة أو خطة جونسون تم إعدادها خلال الفترة من ١٩٥٣ - ١٩٥٥ بالنسبة للدول المشاطئة لنهر الأردن وأعدها ممثل الرئيس إريك جونسون. ولم تحظ هذه الخطة بموافقة الأطراف.

(٣) أجاب أشكول في خطاب بتاريخ ٢٢ يناير بأنه يتطلع إلي لقاء جونسون، وأنه يرحب بما ذكره جونسون عن العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، ويأمل في رد قريب علي خطابه في ٤ نوفمبر، وأنه قد تشجع بما ورد من تأكيد لجونسون بدعم الولايات المتحدة لسحب إسرائيل من مياه الأردن طبقا للخطة الموحدة .

(٤) قام شرايفر بتسليم رسالة الرئيس إلي الملك حسين يوم ٦ يناير، وقد أرسلت السفارة الأمريكية في عمان برقيتها رقم ٣١٩ يوم ٧ يناير تلخص فيها المقابلة، حيث طلب شرايفر من الملك إذا كان من الممكن أن يقوم بزيارة غير رسمية للرئيس جونسون في إبريل، فرحب الملك بقبول دعوة لمثل هذه الزيارة.

(٥) انعقد مؤتمر القمة العربي في القاهرة خلال الفترة من ١٣ إلي ١٧ يناير .

(٦) الإشارة هنا إلي رسالة شفوية من جونسون إلي ناصر لم يكن قد تم تسليمها بعد إلي القاهرة.

(٧) هو القانون الصادر لتعديل قانون المساعدات الأجنبية لعام ١٩٦٣ ، يحظر تقديم المساعدات الأجنبية إلي أي دولة يقرر الرئيس أنها متورطة أو تعد لاعتداء عسكري ضد الولايات المتحدة أو أي دولة تتسلم مساعدات أمريكية، وكان من تبنوا هذا التعديل قد أوضحوا أنه موجه ضد الجمهورية العربية المتحدة.

أرجوحة الزمن !!

(١)

على طول هذا المدى العميق من العمر الذى ولى، تتزاحم الصور والمشاهد، تتقاطع الأصوات مع أصدائها، تختلط الألوان، تتبارز المشاعر .. يقف الشيخ الذى أحناه الدهر وزلزلته نوازل الأيام كى يتأمل إلى هذا المدى المتشابك المعقد، وقد تبلدت حواسه (إن لم تكن تجمدت)، محاولا أن يعيد تركيب الصور وفك شفرة الأصوات، ربما تمكن - أخيرا - أن يفهم ولو بعض ما حدث .

(٢)

من المحتم أن يكون معلوما أن الشيخوخة لاتعنى بالضرورة الحكمة، وأن مدى العمر لأى إنسان ليس إلا نفقا ضيقا لايقتنص من الضوء سوى ما يمكن لعين هذا الإنسان أن تراه، وأن الحقيقة خارج هذا النفق الضيق تبقى لديه مجهولة، وأنه يمر من النفق إلى منتهاه دون أن يعرف سوى ما يراه .

لذا فإن الذى يتنهد قائلا : « علمتنى الحياة» كى يلقى بحكمته على الآخرين، ينبغى عليه أن يتنهد ثانية ويستكمل

العبارة قائلا :

«علمتنى الحياة أننا لانعرف شيئا» .

(٣)

هذا المشهد الغائم من أرجوحة الصبا، يهتز، يتبدى، يتبدد ، ثم يتجدد .. دفء الفراش، الأمان المطلق، الأحلام الدافقة الملونة، الدهشة التى تتجدد مع كل لحظة، الأب المقتصد فى كلماته، المنشغل فى هموم العيش، الأم الحاضرة التى تملأ خلايا الزمن، هى الغذاء والماء والكساء وغطاء الأمان.. الصبى يغوص فى أعماق السطور والصور، يكتشف عوالم أخرى، يجوب كالسندباد عبر محيطات الفكر دون أن يغادر فراشه المحدود، يشيد مدنا بيضاء يحلق فى سماواتها وهو يتعجل مرور الزمن كى يقبض بيديه على أحلامه الوردية، يتعلم أن يستعيض بالخيال ويستعين به كى يقفز فوق الواقع.

(٤)

عصا المعلم أو المعلمة أهم كثيرا من الدروس، والحفظ أهم من الاستيعاب، قصيدة المحفوظات المقررة يجب أن يتم حفظها وتلاوتها حتى وإن لم تكن مستساغة، النجاح هو كم المعلومات المحفوظة فى الذاكرة، والتفوق هو إضافة بعض النوع بمجهود فردى.

المبادرة الوحيدة المتاحة لتلاميذ مدرسة «الجيل الجديد الخاصة» هى دقائق «الفسحة» التى يمارسون فيها الحرية بما تحمله من شقاوة وانطلاق، ثم لحظة «جرس نهاية اليوم»، ثم بعض السهرات المتاحة مع الرفاق فى شوارع المدينة، والحواديت التى أغلبها إن لم يكن كلها «فشرا» واختلافاً.

الطفل ليس كاذبا بالفطرة، لكنه يكذب اضطرارا، حتى تتحول حالة الاضطرار إلى اعتياد ، ثم يصبح الاعتياد قانونا .. «هل ذاكـــرت دروسك؟» .. «نعم» .. يكذب، لأنه يريد أن يلعب، واللعب هو الساحة الوحيدة التى يتحرر فيها عقله وينطلق إلى ما وراء الآفاق.. هو يخاف من الغش فى البداية نتيجة لموروثه الدينى العميق، لكنه يكتشف أن الغشاشين ببساطة يحصلون بأقل مجهود على درجات أعلى، فيختلق لنفسه المبرر دون أن يتخلى عن موروثه، ويتوالى تراكم المتناقضات .

(٥)

انبهر بعبد الناصر، اعتنق شعاراته، وككل الأطفال كان يقلده، مجتمع العدل والكفاية، الفرصة المتكافئة والتكافل الاجتماعى، مناهضة الاستعمار والأحلاف، الحياد الإيجابى، تأميم القناة، العدوان الثلاثى، السد العالى، الأدب، المسرح،

السينما .. التليفزيون يدخل ضيفا مدهشا في نسيج العين، وتبدو الآمال بلا حدود وهي في نفس الوقت ممكنة التحقيق. المعرض السنوي للكتاب، مناسبة فرح وبهجة، يخرج الصبي بقروشه المعدودة، ويعود حاملا أكياس الكتب الثقيلة وكأنه يحمل مفاتيح أبواب الجنة، ينثرها فوق فراشه الذي أصبح حدود عالمه الذي بلا حدود، يتمنى لو استطاع أن يقرأها جميعا في نفس اللحظة، يلتقط بسرعة بعض العناوين، يمني نفسه بليال سعيدة بين صفحات تلك الكتب، يجهز دفتراً لتسجيلها وتلخيصها، يخطط ويرسم صور المستقبل مع كل سطر يقرؤه .. يرى مصر وقد استعادت ثوبها الامبراطوري العتيق جالسة على عرش الزمن .

(٦)

الخامس من يونيو ١٩٦٧ .. لم يجد تفسيرا فأغرق في الرمز .. كتب قصة لم يفهمها تحت عنوان «صاحب الخيمة» .. دم وخراب ونساء ثكالي ورجال عاجزون مع صورة لطائر «الرخ» الذي يحمل كل معاني الانتقام في إطار كابوسي أسطوري .. شارك في المظاهرات التي طالبت باستمرار ناصر والمقاومة، وتلك التي طالبت بعد ذلك بالتغيير .. وحين صدمته الحقائق المتتالية، تشاور مع بعض أصدقائه

الحميمين، اتفقوا سراً على فكرة المنشورات، والتقى بصديقه ناجى فى إحدى الليالى الماطرة كى يناقش المنشور الأول الذى يصدر بتوقيع «تنظيم الطلبة الأحرار» .. كانت السطور بريئة، غاضبة، سطحية.. تزمجر بطلب التغيير، وبأن يتم التخلص فورا من الفاسدين والمفسدين، ومن المدهش أنها أشارت إلى أن تحرير الأرض المحتلة يجب أن يمر عبر تحرير الإنسان والوطن أولا .. لقد أصيب ناجى بالذعر، حاول أن يستجمع أنفاسه وهو يتلفت حوله، لم يكن قادرا على استيعاب تلك السطور التى انهالت كالمعول على آلهة معبودة وأفكار مقدسة .. ومات التنظيم قبل أن يبدأ .. فلا زالت عصا المعلم أو المعلمة أهم من الدروس، ولازالت المبادرة متاحة فقط فى دقائق «الفسحة» .. وعاد صاحبنا إلى فراشه، إلى عالمه الخيالى البديع فى دفء الفراش ورعاية الأب وحدب الأم، رغم يقينه أن وطنه الصغير المحدود بفراشه قد أصيب بشرخ واسع فى هذا التاريخ الحزين .

(٧)

الشاى والسجائر ومقهى ريش .. فتية أطهار يثرثرون .. حرب الاستنزاف تصنع عناوين الصحف اليومية، يتبادلون نسخة مهربة من قصيدة «نزار قبانى» (هوامش على دفتر

النكسة)، حوار حول الاشتراكية والإسلام، مقابلة بين استشهاد عبدالمنعم رياض على الجبهة وانتحار المشير عامر .. هل يجوز أن نتحدث عن الماضي حين تكون الأخطار محدقة بالحاضر والمستقبل؟ .. الديمقراطية وحقوق الإنسان ترف يقبل التأجيل إلى ما بعد إزالة آثار العدوان .. المسألة ليست أن ننتصر وإنما متى؟ .. روايات عن شباب خرجوا من الجامعة إلى الجبهة مباشرة .. ما هو دورنا ؟ .. هل نكتفي باتخاذ قرارات غير قابلة للتنفيذ من مقرنا الدائم فى المقهى؟

(٨)

بعد قصف مدرسة بحر البقر ومصنع أبو زعبل، كان القرار بمثابة مخاض فكرى هائل، أيام وليال تم تسجيل بعض الخواطر التى دارت فيها، معاناة هائلة لكنها أسفرت فى النهاية عن قرار بغير عودة .. لا فائدة من مواصلة الدراسة فى الجامعة، لقد كتب على هذا الجيل أن يخوض المعركة فى جبهة القتال .. لم يعد من الممكن تحمل البقاء فى الحياة المدنية بينما الأرض محتلة والعدو يمعن فى إذلالنا ..

ولأول مرة يتخذ الصبى مبادرة خارج حدود فراشه الآمن، وكأنما يولد من جديد ويتخلص من الحبل السرى ويقذف به مرة واحدة إلى خشونة الواقع، حياة المعسكرات، التدريبات

القاسية، رائحة البارود وطائر الموت المحلق فوق كل لحظة .. تلاشت صور المدن البيضاء الجميلة، حلت محلها الخنادق ومساحات الرمال الصفراء اللامتناهية .. تكسرت قشرة الأمان التى عاش فى قوقعتها، لم يعد لديه حتى الوقت الكافى لقراءة كتبه وأوراقه، حتى قلمه أصبح أكثر جفافا وبخلا .. كتب عن طفل يرتدى خوذة ويحمل رشاشا .. فى نهاية الأسبوع الأول على وجوده فى المعسكر، توارى فى دورة المياه الميدانية كى يبكى .. لم يستطع أن يفهم سر دموعه .. ربما كانت تشبه إلى حد كبير ، أول بكاء لطفل جديث الولادة يواجه لأول مرة خشونة الحياة خارج رحم الأم الحانى .

(٩)

حين قالت له حبيبة القلب : «هل تظن أنك وحدك مسؤول عن تغيير العالم؟» قال لها : «أنا الوريث الوحيد لأحلامى» .. كانت تحاول أن تثنيه عن قراره، تقول له إنه يستطيع أن يفعل ما يشاء بعد التخرج، وأن الوطن ليس فى حاجة إلى مزيد من الجنود بقدر حاجته إلى مزيد من العلماء والأطباء والمهندسين .. قال مجادلا : « ما فائدة أن أكون مهندسا فى وطن محتل؟ .. إن مكان جيلنا كله الآن هو جبهة القتال» .

لم يأبه بتهديدها بأنها سوف تنزعه من أحشائها إذا

أصر على قراره، تركها في حديقة الكلية دون أن يلتفت وراءه، كان يشعر في قرارة أعماقه أن رحلته هذه المرة تحمل تذكرة ذهاب بغير عودة، خاصة وأن الصحف كانت تحمل يوميا أسماء العشرات من الشهداء في حرب الاستنزاف .

(١٠)

طبقا لتعليمات الأمن العسكرى، كانت كل الخطابات تمر تحت عين ضابط مسئول، وكان ملازماً أول احتياط اسمه رأفت، استدعاه ذات مساء كي يستفسر عن أحد خطاباته إليها، وقف صاحبنا وقد اعتراه الخجل والغضب في نفس الوقت بسبب هذه الإجراءات التي تعرى أشد مناطق الإنسان حساسية .. امتدح رأفت أسلوب الخطاب، ثم طلب منه أن يروى له الحكاية، وعندما تمنع صاحبنا بإباء عن استباحة قدس أقداسه، لوح الضابط بأن الشفرة التى يحملها الخطاب قد تعنى أكثر مما يحمله ظاهرها .. وكانت مناقشة محتدمة أصر خلالها صاحبنا على موقفه، وتسبب ذلك في توتر العلاقات بينه وبين ذلك الضابط لفترة، ثم اختلف الوضع بعد ذلك حتى وصل إلى حد أن الضابط نفسه كان يطلب منه أن يساعده في كتابة خطابات لخطيبته ..!!

ولم يتلق صاحبنا أى رد على خطاباته، ولم يتوقف عن الكتابة إليها .. وللأسف لم يحتفظ بأصول أغلب هذه الخطابات.

(١١)

صباح الرابع من أكتوبر ١٩٧٣ .. كان في منطقة «الروبيكي» لصرف بعض الوقود لوحدته، حدثت مشادة بسبب التأخير مع مسئول الصرف، وتدخل قائد المستودع وكان بدرجة مقدم، فوجئ صاحبنا بأن القائد يعنف مسئول الصرف ويقول له بحسم : «الصاعقة ستكون أول من يعبر .. أعطه ما يريد على الفور» .. كان ذلك قبل العبور بيومين ، ورغم إحساسه العميق بأن الحرب حتمية وآتية، لم يكن يتخيل أنها صارت قريبة إلى هذا الحد، وفكر أن يسأل القائد عما يعنيه، ولكن ذلك أمر غير مستساغ في الحياة العسكرية، فالمعلومات فقط على قدر الحاجة، والسؤال يتركز فقط فى مهمة محددة .. عاد إلى وحدته منتشياً، وهو يشعر بروح محلقة بين جوانحه، امتزجت الفرحة مع الرهبة فى أفق من أمل رحيب، لم يناقش الموضوع مع رفاق وحدته، احتفظ به كقدس من الأقداس، لكنه كتب رسالتين فى مساء نفس اليوم إحداهما لأسرته والأخرى لحبيبة القلب ، كانتا متشابهتين تقريبا، تحملان العديد من المشاعر الحبيسة فى لغة شبه رمزية، وكأنهم رسالتي وداع تتركان لدى القارئ وصية

الكاتب حول رؤيته للوطن والمستقبل.

(١٢)

٦ أكتوبر ١٩٧٣ .. تاريخ آخر يشع في مدى العمر، وقد كان هو وما تلاه من تواريخ محل آلاف السطور التي سجلت حركة الفكر والمشاعر بكل دقة .. وحين يتأمل الشيخ الآن في تلك السطور لايجد حاجة لأى إضافة إليها سوى الدهشة والغضب والأسى مما يدور الآن من مذابح في الأراضي الفلسطينية .

(١٣)

يغمض الشيخ عينيه ويتنهد عميقا، عاد لتوه من رحلة منهكة عبر المشاهد والصور التي ازدحمت في نفقه الضيق عبر نصف قرن .. يتمتم لنفسه : هذا هو تاريخي ، تاريخ إنسان مصري عاصر النصف الأخير من القرن العشرين، وها هو على وشك مغادرة النفق بينما الأسئلة لاتزال أكثر من الإجابات، والمعروف مجرد نقطة في بحار ومحيطات المجهول والمسكوت عنه .. يتساءل عما إذا كان الزمن سيتيح له يوما أن يسجل تفاصيل تلك الرحلة بالكامل كي يتركها لأجيال قادمة قد تكون أكثر قدرة على فك شفرتها وفهم ألغازها؟ .. يبتسم وهو يردد جملته الأثيرة : «أنا الوريث الوحيد لأحلامي».

زمن المهلبية !!

(١)

كلمـا انخلـع أو سـقط ضـرس أو ناب أو سنة من فكى، تنتابنى حالة عميقة من التأمل مقرونة بالأسى، فهذا جزء من تاريخى يسقط أو يخلع خلعا ، ذلك الذى صاحبنى مشوار العمر، طحنا وقطعا ومضغا، وشاركنى الاستمتاع بطيب الطعام والشراب، وتلون بدخان سجائرى وسائل القهوة ، وصرخت منه ألما فى ليال لاتنسى .. ذلك الجزء العضوى الحميم، يغادر بلا عودة .. فهو مثل العمر لايعود..

واليوم فقدت سنة أخرى، ظلت تترنح لفترة طويلة بينما أتفادى الاعتراف بهذه الحقيقة، فهى من ضمن تشكيلة أسنان الواجهة، أى تلك التى تظهر عند الحديث أو الابتسام، ولن يكون سقوطها سوى بداية لتوالى سقوط باقى الواجهة مع ما يلزم من تجعيدات وتشوهات أخرى، لذلك ظللت أعاند وأقنع نفسى أنها سوف تثبت وتستعيد مكانتها وأن ذلك الترنح ليس إلا أمرا طارئا يرتبط بشدة انفعالى بسبب المذابح التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى، وتغافلت عن ازدياد الترنح المصحوب بالتهاب وألم، وساعدنى فى ذلك أن آلاما

أكبر كانت تحتوينى ويهون أمامها أى ألم .. ظللت صامدا، إلا أن السنة المتآمرة لم تستطع، فسقطت اليوم وحدها، دون أى ضغط أو إجبار، وحملتها بين أصابعى - كالعادة - متأملاً فى أسى .

(٢)

لماذا يترنح كل شىء ويسقط وحده، دون ضغط أو إجبار؟ .. هل هو فعل الزمن وحده ؟ .. ولكن أين فعل الإرادة ؟ .. إن منظر «السنة الساقطة» لايغريننى بالتفلسف، ويكفى القول هنا أن ذلك هو عمرها الافتراضى، لقد أدت مهمتها على خير وجه وجاء دورها فى التقاعد، بالضبط كما سيحل دورى ذات يوم .. ولكنها لم تنتقل إلى التقاعد، لأن المتقاعد يمكن أن يقوم، إنها ماتت، شطبت من سجل الحركة والنشاط بلا عودة، وأيا ما كانت إرادة المقاومة عندى فإنها كانت ستسقط، وأيا ما كان تغافلى عن الحقيقة، فإنها غالبة وها هى أمامى بلا حول أو حركة .

هل يمكن أن تسقط الأمم والشعوب مثل الأسنان؟ هل يمكن أن تتخلخل وتترنح ثم تسقط؟ وهل تفيد محاولة التغافل أو التعامى عن هذا الترنح، على أمل أنه مؤقت وطارئ ..؟،

ولكن ما العمل إذا سقطت بالفعل؟ .. وإذا ماتت، هل تعود ؟

(٣)

ذهبت الأمثال على أن صعوبة انتزاع الشئ تشبه «خلع الضرس» ، فيقال مثلا أن فلان لايتنازل عن الموضوع الفلانى ولا بخلع الضرس .. ولكن ذلك يعنى أيضا أنه يمكن أن يتنازل بعد خلع ضرسه !! .. ويبدو أن فلاناً على استعداد كامل للتنازل وأنه فقط يتمحك بموضوع خلع الضرس ربما كي يقوم خصمه بعملية الخلع مجانا .. ولكننى لم أكن أتمحك، وكنت أريد الاحتفاظ بسنتى، لكنها سقطت وحدها، دون أن أتنازل عنها، ودون أى استعداد للتنازل أصلا .. وهكذا يمكن استنتاج أن هناك نوعين من «خلع الضرس» : نوع لا مناص منه، ونوع يسعى بعض الناس إليه، ولكن النتيجة في الحالتين واحدة وهى الخسارة، سواء أكان التنازل طوعا أم إجبارا .

والحديث عن الأسنان، يستدعى على الفور فواتير أطباء الأسنان، فطبيب الأسنان يعيش على خسارتى وخسارتك لأجزاء حية من تاريخنا، فهو حينا يوهمك بأن المسألة لاتعدو تسوس بسيط فى ذلك التاريخ يمكن علاجه، ويقوم بآلاته

الحديثة بتخريم تاريخك، وحشوه بجزء من تاريخ مصنوع، ولأنه غير أصيل يسقط، كي يعاود حشوه، وفي كل مرة تدفع مقابل تزييف تاريخك من مالك ومن وقتك ومن أعصابك، ثم فى مرحلة معينة ينصحك الطبيب بتركيب «طربوش» ، وتخرج من عيادته سعيدا بذلك الطربوش الذى يحمل بعض ذكريات الماضى فى ثوب عصرى، ولكن سرعان ما يسقط الطربوش أيضا لنفس السبب السابق، وينصحك الطبيب - كى تحافظ على تاريخك - أن لا تأكل أو تشرب ساخنا أو باردا ، فالعلاج هو الفتور، أن يصبح طعامك وشرابك فاتراً، أى التوقف عند الوسط تماما ، ومع ذلك، أو رغما عن ذلك يستمر التدهور، وتستمر محاولات الطبيب المخلصة فى إنقاذ التدهور بحلول صناعية مبتكرة، دون أن يتوقف لحظة واحدة عن انتزاع مالك ووقتك وأعصابك .

والمشكلة أن عصب الضرس قد مات وتعفن .. ولم تعد هناك عوائق للتنازل، فما أسهل خلع الضرس، وكل محاولات الطبيب لاتعدو سوى خداع للنفس وتمويه على الحقيقة .

(٤)

لقد خارت الأعصاب وانكمشت اللثة وأصبح الفك منفكاً،

لابد من التسليم بواقع الحال، لقد انقضى زمن طحن اللحوم وحل زمن المهلبية، فلا بارد ولا ساخن ولا حتى فاتر، لقد تساوى المذاق وأصبح «لامذاق» .. ومن محاسن هذا الاعتراف أنه يوفر مبالغا طائلة لأطباء لايفعلون شيئا سوى خداعنا وإيهامنا بقوة لم تعد موجودة، وإرادة مسوسة، وطرابيش لاتثبت فوق الرؤوس .. لن يكون أحد مضطر للادعاء بأنه لن يتنازل إلا بخلع الضرس، حيث لايوجد ضرس ولا دياولو، وإذا أراد أحد أن يكون جادا فعليه أن يهدد بأنه لن يتنازل إلا بخلع الرأس أو خلع الروح نفسها .

ولأنه زمن المهلبية، فلن يفيد التباكى على زمن مضى، فالماضى لايعود مثل الأسنان تماما، وعلى كل من يعنيه الأمر أن يبحث عن طاقم أسنان صناعية تتيح له بالكاد أن يلحس سائل المهلبية، دون أن يتعجب إذا أحس أن عقله أصبح مهلبية، وأن أفكاره مهلبية، وأن جماع إرادته وقراراته مهلبية .. ثم لماذا يتعجب، إذا كانت حياته كلها فى التحليل الأخير كانت مجرد سوس وخلخلة واهتزاز تمهيدا للخلع أو السقوط.

(٥)

تأملت فى السنة الساقطة وقد حال لونها وغشت أطرافها

بقايا من آخر لون أسود لدخان سيجارتي .. ستـرتاح هذه السنة أخيـرا بعد نصف قرن من مكابدة عنادى وإصـرارى، فكم كززت بها غضبا وانفعالا، كم عضضت بها على أصابع الندم، وكم تحملت مرارة لعابى وأحزان أيامى .. إنها ترحل اليوم عن عالمى، آثرت ألا تصاحبنى إلى مقبرتى، رفضت أن تدفن معى.. لقد قررت أن تمضى وحيددة مثل صاحبها، وكأنها لاتريد أن تعيش معى زمن المهلبية بعد أن استمتعت بزمن اللحوم والفواكة والخضراوات، إننى شديد الزهو بها لاصرارها على الاستقلال رغما عن كل محاولاتى، لقد انفذت إرادتها وانتحرت فى ريعان شبابها تفاديا لمهانة زمن المهلبية .. والخوف كل الخوف من أن ما تبقى فى فكى من أسنان وضروس قد يتخذون كذلك قرارات مشابهة ويتركونى أواجه وحدى هذا الزمن الرجـراج الأملس .. وداعـا يا سنتى العزيزة، وأشكرك على سنوات الخدمة الطويلة التى تفانيت فيها لإسعادى، واعذرينى إذا كنت عاجزا عن أن أفعل شيئا فى تاريخك المسوس، كان لابد أن تسقطى .. تلك هى الحقيقة بكل الأسى والأسف .

النظرية الحلزونية !!

شنفت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، آذاننا وعيوننا بحكايات مثيرة عن «التوربيني» ، ذلك الذى كان ينتهك أعراض الصبية ويلقيهم إلى حتفهم من فوق القطارات، وقد قيل ما قيل عن التحليل النفسى لتلك الشخصية المشوهة، وهى مسائل أيضا لا تغيب عن فطنة الحصيف فى علم الاجتماع والسياسة .. ولكن ليس هذا هو موضوعنا !!

كما امتلأت الساحة ضجيجا حول مقدمة برامج تليفزيونية قامت بالاحتفاء بظاهرة العهر أيما احتفاء ، وأفردت لها زمناً وعملاً ، وأنجزت ما أثار اللغط واستحق أن يضع صورتها فى صدر أخبار المجتمع ، رغم أنها ليست فى حاجة إلى مزيد من الشهرة ، ولكن .. على أى حال .. فالبحر يحب الزيادة، ولا بأس من مساحة ضوء إضافية ولو على حساب أعراض الناس .. ولكن ليس هذا أيضاً موضوعنا !!

بعض الشخصيات السياسية وخاصة تلك البيروقراطية الطبع لها أيضا ملامح مميزة ، ولا تقل تشوهاً عن ملامح شخصية التوربينى ، والاختلاف لايزيد عن كونه خلافاً فى النوع فقط ، فلكل مقام مقال ، وليس مقام من اعتلى

القطارات ونام فى الخرابات ، كمن اعتلى المقاعد الوثيرة وحفلت به أروع الصالونات .. والتوربينى غير متعلم ولا يمكن اتهامه بصفة التحضر ، أما تلك الشخصيات السياسية البيروقراطية يملك بعضها أعلى الشهادات من الجامعة ، وأغلبها يبدو متحضراً إلى أقصى درجات التحضر المعروفة لدى العامة .. حيث معنى التحضر لا يتجاوز الصوت الرقيق الأنثوى حتى ولو كان على وجه صعيدى ، والابتسامة الصفراء الباهتة ، وإتقان التزلف إلى درجة الإبداع ...

وهذه الأنواع تختلف بعض الاختلافات الطفيفة ، إلا أن أبرزها هو شخصية «الحلزونى» ، وأهم صفاته أنه متملق بشكل لزج وممجوج ، ونطاط بشكل مفضوح ، ومتسلق بنعومة الثعبان ، وهو يعلم أنه لا يملك أى إمكانيات أو قدرات أخرى ، وليس لديه ما يجيده سوى تطوير تلك الصفات ووضعها فى الوقت والمكان المناسبين ، وهو ضعيف مكسور الجناح مع أى مصدر للقوة ، ولكنه كاسر مهاب الجناح مع أى إنسان لا يوحى بسلطة أو مكانة ، وهو مثل كل الطفيليات يقتات على كسب غيره ، ولا يمانع فى طعن الظهر إذا حانت الفرصة ، يأكل عى كل الموائد ، ويغتاب الناس بلا خجل ، ويحترف الكذب ...

وأسـوأ من فى هذه الطبـقـة هو من لا يكون طاهر اليـد أيضـاً ، فتكتمل نجاسة الفكر مـع إثم السلوك ، فـهو أبعد مـا يكون عن الطهارة ، ولكنه أكثر الناس حديثا عنها ، ولديه فى ذلك نظرية حلزونية فريدة ، يري فيها باختصار أنه يمكنه أن يخدع كل الناس كل الوقت ، لأنه يظن أنه أذكى من الآخرين، ومن المعروف أن الخنزير لايشم رائحـتـه ، لأنه لو فعل لمات مخنوقا بها .

أزعم أننى قـابلت عـشـرات ممن يحـملون شـخـصـيـة «الحلزونى» ، وهـم يختلفـون فـى الدرجـة فـقط ، فمنهم واحد كان يتملق كى يغش فى الامتحـان المدرسـى ، ويذل نفسه من أجـل رضـا الأذكيـاء الحـقـيـقـيين فـى فـصلنـا ، ومـا أن تظـهـر نتـائـج الامـتـحـانـات فـإنـه يـدور فـى كـل مكان متفاضلاً بعلمه ومتفاخـراً بالمساعدات التـى أسداها للآخرين كى ينجـحـوا ، ومن المدهش أنه كـان يعـامل أولئك الذين ساعدوه بشكل خاص بطريقـة غليظة ، ولأنه أغلب الأذكيـاء ضعفـاء مسالمين فإنهم كـانوا يستسلمـون لأسلوبه الردىء ، دون أن يتعلمـوا الدرس ، فحين يقـترب مـوعـد الامـتـحـانـات التالية ، يعـاود تملقـه الـرخيـص لهـم ، ويساعدوه بطيبـة قلب وسذاجة ، كى يعيد معهم الكرة فيما بعد ..

والحلزونـى السـابق غيـر شديد الخطـر علـى أيـة حـال ،

وأثره معنوى على محيطه من الطلاب ، إنما الأخطر هو ذلك الحلزوني الذي يؤثر وجوده وتحركه في محيط أوسع ، ومصيبة المصائب أنه يشبه الخلايا السرطانية التي تتكاثر بشكل مهول في زمن قياسي ، بما يهدد نسيج المجتمع ويقوض مستقبل الذكاء فيه .. إنه الحلزوني الذي يلتف صاعدا هابطاً بشكل ملتو ، فهو عدو الخط المستقيم ، يبادرك بابتسامة صفراء واسعة ، يمطرك بالقبلات ويعصرك بالأحضان ، يجد الكلمات المعسولة بسهولة كي يرشرشها عليك في ثوان معدودة ، فأنت جميل وحبيب وليس في الكون لك مثيل ، وأنت الصديق الشقيق الرفيق ، وأنت أخ لم تلده أمه ، وأنت نور عينيه وتاج رأسه ، وأنت وأنت وأنت .. حتى تنتهى المصلحة أو دعوة الغداء أو العشاء ، أو حتى ينتزع منك حقك أو يسرق منك فكرة ، وبعد ذلك .. بعد ذلك أنت قبيح عدو ، يلقاك جافياً ويرمقك شذراً ، إذا بادرته بالتحية أدار الظهر إعراضاً ، وإذا أقبلت عليه باشاً أولاك وجهاً ثلجياً متأففاً ، فإذا هممت بتقبيله تراجع للخلف مشمئزاً ، وإذا عانقته تأذى ، يستسيغ لحمك على كل الموائد ، فينهش سيرتك ناكراً فضلك وعلمك ، بل يصبح ذلك الفضل والعلم عاهته التي يمعن في محاولة مداواتها بتفاهته وسخريته منك .

ذلك الحلزونى الاجتماعى يتصور أنه الأفضل والأذكى ، رغم أنه فى أغلب الحالات يكون أشد الناس وضاعة وخسة وغباء ، لكنه يعيش هذا التصور / الوهم حتى يصدق كذبته الكبرى ، وتساعده إمكانياته الحلزونية على أن يغطس ويختفى داخلاً فى الجب إذا واجهته الخطوب والمهام الجسام، وهى نفس الامكانيات التى تساعده على الالتواء صاعداً برأسه من الجب إذا حانت الفرصة لجنى الثمار التى غرسها غيره ، ولديه صفات المسمار الحلزونى الذى يجب أن تضربه على رأسه كى يختفى ، إلا أنه يبقى هناك مفروساً يتحين الفرص كى يقب برأسه مرة أخرى ، وهو جبان رعديد لكنه يجيد المناورة ويقتصر نكاؤه على ملكات الهروب من المسئولية ، وادعاء القدرة والموهبة فى نفس الوقت ، وبعض هؤلاء يتمكنون بالفعل من تسلق السلم الاجتماعى وارتقاء أعلى درجاته ، فيكون وبالاً على ذلك المجتمع الذى تمكن من خداعه ، حيث إن أولى مهامه التى يقررها لنفسه هى القضاء علي كل الأذكياء والشرفاء ، ورفع مرتبة الخسة والغباء ..

وتذهب مدرسة من الرأى إلى تعظيم النظرية الحلزونية ، ويرونها نوعاً من الذكاء الاجتماعى المطلوب المرغوب ، وتؤكد هذه المدرسة أن الحلزونى هو شخصية نادرة تستحق ما

تصل إليه من سمو ورقى ، وأن قدراته الحلزونية تثبت بلا شك مرونة تستحق الإعجاب ، وفى مذهب هذه المدرسة أن الحلزونى لا يخدع أحداً ، بل إن الناس التى ليست حلزونية هى التى تستحق أن يلعب أحد فى رؤوسها ، وهى التى تقتنع بأن الهواء يمكن أن يدهن بالدوكو ، فأى ذنب جناه ذلك الحلزونى إذا استخدم موهبته فى الضحك على الدقون والصعود على أكتاف السذج ؟! ، بل إن الحلزونى هو النمط الجلوبالى الأمثل الذى ينبغى أن نقتدى به إذا أردنا نجاحاً أو فلاحاً ، والطبيعة نفسها خير دليل على ذلك ، فالمواسم تتغير، والثعابين تضع اللون الذى يناسب واقعها وموسمها ، ونقطة الماء التى تعبر من أمامنا فى النهر ليست هى نفس النقطة التى تعبر بعدها فى نفس النهر، ثم إن الرزق يحب الخفية ، أى الحركة ، والحركة المستمرة بغض النظر عن المحتوى ، لأن الحركة بركة ، والبركة هى غاية كل نشاط إنسانى ، والقول بغير ذلك ليس إلا جموداً وتصلباً إلى حد التحجر ، ثم ما هو عيب النفاق ؟! ما هى مثالب التسلق ؟! ، إن الذى يطلق الناس عليه صفة النفاق ليس إلا أدب القرود فى مقام الود ، أما التسلق فهو إرادة الصعود الغالبة التى لا ينالها إلا كل مجتهد صبور... .

ويبدو أن هذه المدرسة من الرأى قد سادت ، وصار سدنتها ورهبانها أعلام هذا العصر ، فأصبح الإنسان غير الحلزونى ، المستقيم النبيل المخلص ، أصبح مذموماً مقبوحاً، فهو خائب الرجا ، مقطوع الأمل ، يستحق ما يلقاه من عنت وألم ، وأصبحت الظاهرة الحلزونية هى دليل القوم فى وادى العدم ، حتى تكاد الشوارع تمتلىء بالنطاطين الأفاقين من كل شكل ونوع ، وامتلأت شاشات التليفزيون وصفحات الصحف بصور الإنسان الحلزونى الجديد ، الذى يتحدث فى كل شىء دون أن يفقه شيئاً ، ويجلس على القمة دون أن يذرف نقطة عرق واحدة فى الصعود إليها ، وتسلط عليه الأضواء الكاسحة دون أن تكشف عن الظلام العميق الكامن فى أعماقه ، ويملأ الدنيا ويشغلها دون أن يتضح لأحد الفراغ الذى يحتل رأسه ؛ فهو ظاهرة حركية تزحم المحيط المجتمعى فتدفع بالمجتمع كله إلى حالة من التنطيط واللغو والانشغال بما لا طائل وراءه ، بينما يتوارى الإنسان الحقيقى الذى صنع الحضارة بالكد والعرق والدموع، ويتوارى معه أى أمل فى الغد ... ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

البلطجة الدولية !!

كتب نجيب محفوظ سلسلة من أروع أعماله عن طائفة «الفتوات» ، وحاول أن يبرز بعض عناصر النبل والكبرياء لدى بعض هؤلاء الفتوات ، وربما خلط الناس بين تلك الطائفة ، وطائفة أخرى يطلق عليها اسم آخر ، وهى طائفة «البلطجية»..

النظام البلطجى الجديد :

البلطجى شخص عاطل يتميز فى الغالب بضخامة الجثة وقلة العقل ، لا يفهم سوى لغة القوة ، ولا يشعر بفحولته أو رجولته سوى من خلال استخدام عضلاته حتى مع أقرب الناس إليه ، وهو شخص مقزز مزعج لجيرانه ، وينتهى دائماً نهاية بشعة ، حين يفيض الكيل بضحاياه أو يقع فى قبضة بلطجى آخر أكثر قوة ، أو ينتهى فى السجن أو معلقاً فى المشنقة .

هذا على مستوى حارة نجيب محفوظ ، وبين أروقة شوارع المدن أو على مستوى أكثر رقياً من البلطجة فى صورة «المافيا» الشهيرة ، وغيرها ... ولكن على مستوى الشارع الدولى فهناك أنواع أكثر تعقيداً من البلطجة الدولية التى لا تختلف كثيراً عن المواصفات الأساسة لبلطجى الحارة ، فهى

مرة أخرى استخدام للقوة العمياء لطائفة متخلفة عقليا مقززة ومزعجة لجيرانها .. ومن المؤكد أن نهايتها أيضاً ستكون بشعة ..

وفي حين يمكن للشرطة والقضاء أن تتعامل مع بلطجي الحوارى الضيقة ، فإن بلطجي الحوارى الدولية لايزال يتمتع بحريته بدون رادع حقيقي ، ولعل السادة القراء يعرفون جيداً من هو بلطجي الشرق الأوسط الأشهر ، ومن هم الذين يقومون بدور «السنيد» و«المطيباتية» ..؟..

فهل الحوارى الدولية أقل أهمية من حوارى عمنا «نجيب محفوظ» ؟.. خصوصاً في هذا الزمن العولمي الجميل الذي نشاهد فيه البلطجة الدولية يومياً على شاشات التليفزيون كمسلسل يتجاوز كثيراً مسلسل «الحرافيش» الشهير ..

ربما يقول قائل من أصحاب العقل الزينة الواقعيين (أو الوقوعيين) : ليس في الإمكان أبدع مما كان !! .. وهؤلاء كما أشرنا لايزيد دورهم التبريرى عن دور «المطيباتية» ، فهم مثل الديدان الطفيلية أو تلك الذبابة الشهيرة التي تحوم حول الحيوانات الوحشية راضية بفتات فرائسها ، وهو منطق لا غبار عليه لأولئك الذي يتعايشون ويتعيشون على هامش المبادىء وحواف المثل ، فهم أصحاب الطبل والزمر في الموالد

وعلى كل الموائد ، و هم أيضا أشهر الندابات فى الحداد الرسمى، وهم الذين يلتفون حول أى بلطجى مصفقين مهللين «الله عليه.. الله عليه»، هم الذين يملكون القدرة الفذة على التلون مثل الحرباء،وللأسف يتزايد عددهم مثل خلايا سرطانية..

لقد حاول العالم أن يجد وسيلة للتعامل مع ذلك النوع من البلطجة الدولية، فى رغبة للوصول إلى نوع من التحضر فى العلاقات الدولية، فأبرمت المعاهدات، ونصب محاكمات، بل وأنشأ قوات دولية تشبه البوليس الدولى، إلا أن المشكلة الحقيقية هى أن الذين تعرضوا للعقاب هم صغار صبيان البلطجية، الذين يرتكبون جرائمهم فى حمى بلطجى أكبر، سواء كان هذا البلطجى هو دولة أو مجموعة دول أو ظروف دولية معينة، إن من سقطوا هم البلطجية المهزومين، أما البلطجى المنتصر فلا يزال يفلت بجرائمه، ولا زال الأخرون إما ناقم ولكنه ضعيف لا تمكنه المواجهة، وإما طفيلى يتسلق أكتاف البلطجى الكبير كى يصرخ فى حماس واستمتاع: «الله عليه.. الله عليه» ..

زمن المثالية الجميل !!

ولعله من المناسب أن نستعيد بعض المواقف من التاريخ

لنسترجع كيف كان العالم يفكر،كى ندرك الدرك الذى هوى إليه العالم، ولسوف أختار كلمة ألقاها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أيزنهاور عشية بدء العمليات العسكرية للعدوان الثلاثى على مصر، ففى يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦، توجه الرئيس الأمريكى إلى الشعب الأمريكى بخطاب تحدث فيه كما يلى (طبق الأصل) :

نحن ندرك جميعاً أن الحوار الحّر والكامل حول الحملة السياسية الانتخابية يحيط بنا، ولكن الأحداث والموضوعات التى أريد أن أضعها أمامكم الليلة ليس لها علاقة بالموضوعات الحزبية، لأنها اهتمامات كل أمريكى فى حاضره ومستقبله.

لذلك أريد أن أقدم لكم تقريراً يشتمل على الحقائق الضرورية كى يتاح لكم التفكير والتقدير فى تلك التغيرات السريعة التى تشهدها الساحة العالمية أياً كان الحزب الذى تنتمون إليه .

والتغيرات التى أريد التحدث عنها هى تلك التى تحدث فى أوروبا الشرقية والشرق الأوسط. (وبعد أن تحدث عن الأحداث فى أوروبا الشرقية بدأ فى استعراض أحداث الشرق الأوسط) فى هذه اللحظة فإن الوضع كئيب، ليس

لدرجة الخوف الشديد أو الهيستريا، ولكنه يدعونا إلى الاهتمام الجاد.

فالشرق الأوسط، ذلك المفترق القديم للعالم كان كما تعلمون منطقة خاضعة للحكم الاستعمارى لفترة طويلة، وقد انتهى هذا الحكم بعد الحرب العالمية الثانية حيث حصلت كل الدول هناك على الاستقلال الكامل، وولدت دولة جديدة من فلسطين تحت الإنتداب هى دولة إسرائيل .

هذه المتغيرات التاريخية لم تقض بشكل تلقائى على الكراهية التى امتدت لأجيال. فقد اشتبك العرب مع إسرائيل فى الحرب، واستمر العرب فى إظهار مشاعر الغضب تجاه مستعمريهم السابقين: فرنسا وبريطانيا العظمى .

ولقد حاولت الولايات المتحدة بجهد على مدى السنين التى انقضت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية أن تقدم السلام والاستقرار فى هذه المنطقة.

ولقد اعتبرنا دعم دولة إسرائيل الجديدة كواحد من أساسيات السياسة الأمريكية، وكذلك وفى نفس الوقت، تقوية علاقاتنا مع كل من إسرائيل والدول العربية، ولكن للأسف، كانت الانفعالات خلال كل هذه السنين فى المنطقة تتغلب على كل الأهداف السلبية، وبشكل أو بآخر استمر القتال هناك .

هذا الوضع قد تردى مؤخراً من خلال السياسة المصرية بما فى ذلك التسلح بأسلحة شيوعية، ولقد شعرنا بأن تلك سياسة خاطئة من جانب الحكومة المصرية، وفى نفس الوقت فإن دولة إسرائيل شعرت بقلق شديد على أمنها، بينما تخوفت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا من أثر السياسات المصرية فى تهديد خط الحياة لهما والمتمثل فى قناة السويس.

هذه الأمور قادت إلى أزمة فى السادس والعشرين من يوليو هذا العام، عندما استولت الحكومة المصرية على الشركة العالمية لقناة السويس :

لمدة ٩٠ عاماً - منذ افتتاح القناة - كانت تلك الشركة تقوم بإدارة القناة، تحت إشراف فنى بريطانى وفرنسى بشكل عام .

الآن يوجد بين حلفائنا من ينادى بالرد بالقوة المسلحة على هذا الحدث، بينما نادينا وبشكل مؤكد بالعكس، وترجحت كفة ندائنا من خلال مؤتمرات ومفاوضات طويلة ومتتالية لمدة أسابيع وربما شهور باشتراك الأمم المتحدة منذ فترة قصيرة بناء على مبادئ متفق عليها، وكان يبدو أننا على وشك التوصل لاتفاق مقبول.

ولكن العلاقات بين مصر وكل من إسرائيل وفرنسا

واصلت ترديها إلى الدرجة التى أدت بداية بإسرائيل ثم فرنسا وبريطانيا العظمى إلى التصميم، من وجهة نظرهم - إلى أنه لن يكون هناك حماية لمصالحهم الضرورية إلا باللجوء للقوة .

وبناء على هذا القرار، تتابعت الأحداث بسرعة، ففى يوم الأحد (٢٩ أكتوبر) قامت الحكومة الإسرائيلية بالتعبئة العامة الشاملة، وفى يوم الاثنين اخترقت قواتها المسلحة بعمق فى مصر وبالقرب من قناة السويس، وفى يوم الثلاثاء أصدرت كل من الحكومة البريطانية والفرنسية إنذاراً مدته ١٢ ساعة لكل من مصر وإسرائيل، أعقبه هجوم مسلح ضد مصر.

لم تستشر الولايات المتحدة بأى شكل بالنسبة لأى مرحلة من هذه الأحداث، ولا تم إخطارها بشكل مسبق .

وكما أنه من الحقوق المقررة لأى من هذه الأمم أن تأخذ مثل هذه القرارات، فإنه من حقنا أيضاً - إذا ارتأينا ذلك - أن نختلف نحن نؤمن بأن تلك الأفعال خاطئة، لأننا لا نقبل باستخدام القوة كأداة حكيمة أو مناسبة لحل النزاعات الدولية.

وإذا قلنا ذلك - فى هذه اللحظة الخاصة - فإنه لا يقلل بأى شكل من صداقتنا مع هذه الأمم أو تصميمنا على الإبقاء

على هذه الصداقة .

نحن ندرك تماماً القلق العميق لإسرائيل وبريطانيا وفرنسا، ونعرف ما تعرضوا له من إثارة شديدة ومتكررة .

الحقيقة الحالية مع ذلك تبدو واضحة: هذا العمل لا يمكن أن يتمشى مع مبادئ وأغراض الأمم المتحدة التى نلتزم بها جميعاً، وفوق ذلك، فإننا مضطرون للشك فى أن اللجوء للقوة والحرب سوف يخدم على المدى الطويل المصالح الدائمة للأمم المهاجمة.

الآن - يجب أن ننظر إلى المستقبل ..

فى الظروف التى أوضحتها؛ فإنه لن يكون للولايات المتحدة أية مشاركة فى الأعمال العسكرية الحالية، لذلك فليس فى نيتى دعوة الكونجرس لاجتماع طارئ، وإن كنا بالطبع سوف نواصل الاتصال بزعماء الكونجرس من كلا الحزبين.

أؤكد لكم أن حكومتكم ستظل على أهبة الاستعداد لكل احتمالات هذا الوضع، وستظل على اتصال وثيق وتنسيق مع الفرع القانونى فى هذه الحكومة .

وفى نفس الوقت، فإنه - وسيظل - الغرض الأساسى لحكومتكم أن تبذل كل ما فى وسعها لحصر القتال، وإنهاء الصراع .

ولقد اتخذنا الإجراء الأول بالأمس، حيث توجهنا إلى الأمم المتحدة بطلب أن تعود القوات الإسرائيلية إلى أرضها، وأن تتوقف الأعمال القتالية، ولم يتم اعتماد هذا الاقتراح بسبب استخدام بريطانيا العظمى وفرنسا لحق الاعتراض.

إلا أن العمل فى الأمم المتحدة لم يستنفذ، ونأمل أن نعرض هذا الموضوع على الجمعية العامة للأمم المتحدة، حيث يمكن - بدون وجود حق الاعتراض - أن نضيف رأى العالم إلى جهدنا لنهاية عادلة لهذه المشكلة العصيبة. فى الماضى أثبتت الأمم المتحدة مقدرتها فى إيجاد حل لإنهاء نزيف الدماء، ونعتقد أنها تستطيع أن تفعل ذلك مرة أخرى وسوف تفعله.

أعزائى المواطنين ...

كما استعرضت معكم مسيرة أحداث العالم فى الأعوام الماضية، فإننى لعلى قناعة عميقة متزايدة بأن عمليات الأمم المتحدة تمثل الأمل الأمثل من أجل السلام فى العالم، ولهذا السبب، أعتقد بأن عمليات الأمم المتحدة تتطلب مزيداً من التطوير والتقوية. وأتحدث هنا بشكل خاص عن زيادة مقدرتها فى تأمين العدالة فى إطار القانون الدولى .

فى كل المشاكل المعاصرة فى الشرق الأوسط، هناك بالتأكيد مظالم تعرضت لها كل الأمم المشتركة، ولكننى لا

أعـتـقـد أن أداة أخـرى للظلـم - الحـرب - هـى عـلاج هذه الأخطاء .

لا يمكن أن يكون هناك سـلام بدون قـانون، ولا يمكن أن يكون هناك قـانون اذا كنا سـوف نسـتـدعى قـانوناً للسلوك الدولى ضد أولئك الذين يعارضوننا، وقانوناً آخر لأصدقائنا.

إن مجتمع الأمم لا يزال بطيئاً فى تنمية الوسائل لتطبيق هذه الحقيقة.

إلا أن الاشـتـيـاق الحـار للسـلام من كل الشـعـوب فـوق الأرض يدفـعنا إلى تعـجـيل بحـثنا عن أدوات جـديدة وأكـثـر تأثيراً للعدالة .

إن السـلام الذى نصبو ونحـتـاج إليه يعنى أكثر كثيراً من مجرد غياب الحرب، إنه يعنى القبول بالقانون، وتدعيم العدالة فى كل العالم .

يجب أن نـتـمسك بمبـادئنا التـى تقـودنا إلى هـذا الهـدف، حيث يمكننا أن نحترم آمال كل الناس فى عالم يسـوده سلام حقيقى وعادل .

التجربة والخطأ:
قراءة فى مفهوم السياسة الخارجية

السياسة بوجه عام علم وفن، إلا أن العلم فيها لا يعنى الحساب على وجه الدقة، كما أن الفن فيها لا يعنى عملية الخلق الإنشائي، ولا يمكن تحديد مقادير نسب العلم أو الفن، فقد يتطلب الأمر أحياناً أن يزيد أحدهما على الآخر، فهى خلطة يفترض أن تؤدى فى النهاية إلى مذاق معقول ووجبة سهلة الهضم ومفيدة .

ولابد للمتابع الجيد أن يلاحظ لأول وهلة أن «علم السياسة» ليس علماً تجريبياً معملياً، ومن الصعب أن نخضعه لأنابيب الاختبار وقياسات الحرارة والبرودة والضغط، وبالتالى لا توجد سياسة معلبة أو أقراص سياسية تعالج كل الأمراض، فالمشكلة السياسية تشبه الى حد كبير فيروس الأنفلونزا الذى يعيد تشكيل نفسه باستمرار، وقصارى ما يمكن للفكر السياسى أن يتوصل إليه هو توفير المسكنات اللازمة لخفض درجة الحرارة والتخفيف من الآلام والأوجاع حتى تتمكن أجهزة الجسم من مقاومة المشكلة الطارئة .

وإذا كان ذلك العلم كما قدمنا للتبسيط هو وصفات نظرية

لتوفير مناخ أو تحديد ملامح أو الإشارة إلى توجه يهدف أساساً إلى إتاحة الفرصة لتشغيل أجهزة أخرى لمواجهة مشكلة ما، فإن الفن يكمن فى مهارة استخدام هذه الأجهزة للحصول منها على الحد الأقصى من الفائدة، ولا جدال فى أنه - وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية - يعد جهاز الدبلوماسية هو أحد أهم هذه الأجهزة ، وإن لم يكن الوحيد...

لذلك فإنه من الصعب تصور سياسة خارجية ناجحة تستند استناداً أرثوذكسياً على قواعد ثابتة أو ما يطلق عليه اسم «دوجما» Dogma ، لأن السياسة كعلم تبحث فى مجموعة من المتغيرات التى تتميز بعدم الثبات، وهنا يجب أن نفرق ما بين المبادئ والقواعد القانونية والأخلاقية التى تأخذ قدراً من الثبات، وبين المصالح الوطنية، فرغم فرضية ثبات الأولى، إلا أنها لو تعارضت مع الثانية فإنه ينبغى الموازنة بين التمسك بها أو التعامل معها ببعض المرونة، وهذا هو الإطار الذى تتجلى فيه القدرة على استخدام الأدوات المتاحة، وذلك بالتأكيد هو مجال «فن إدارة العلاقات الخارجية» .

ولكى نضرب مثالاً على ما تقدم، نفترض أن الدولة (س) ترتبط بمعاهدة صداقة مع الدولة (ص) ، وأن الأخيرة فى

نزاع مع دولة ثالثة (ع) ، إلا أن الدولة (س) لها مصالح اقتصادية كبيرة مع الدولة (ع) ، ففى حالة تزايد التوتر بين (ص) و (ع) ووصوله مثلاً إلى حد الاشتباك المسلح، سيكون على الدولة (س) الخيار بين مجموعة من البدائل : فإما تحترم التزاماتها التعاقدية (معاهدة الصداقة) مع الدولة (ص) وقد يكون منها مثلاً إمدادها بالذخائر والأسلحة، وإما أن تأخذ موقفاً حيادياً أو تحاول الاضطلاع بوساطة للتسوية، وإما أن تأخذ جانب الدولة (ع) حرصاً على مصالحها الاقتصادية وربما لتعظيمها بالاستفادة من الموقف الجديد .

البديل الأول يتمسك بثوابت المبادئ وقواعد القانون الدولى، ولكنه يحمل فى طياته تضحية مؤكدة بمصالح اقتصادية كبيرة، والبديل الثانى قد يؤثر على علاقات الدولة (س) سلباً مع الطرفين، حيث سترى الدولة (ص) أن موقف الحياد يعنى فى هذه الحالة انحيازاً إلى الدولة (ع) وإخلالاً بالتزاماتها التعاهدية، كما أن الدولة الأخرى يمكن أن ترى فى ذلك الموقف عدم تقدير من الدولة (س) أو جحود لما تحصله من فوائد كبرى من خلال علاقتها بالدولة (ع)، أما البديل الثالث فإنه يعنى مباشرة تخلى الدولة (س) عن التزاماتها التعاقدية، واتباعها سياسة ميكيافيلية غير أخلاقية.

وفى واقع الأمر لا يمكن لصانع القرار السياسى فى الدولة (س) أن ينتقى بسهولة ما بين البدائل السابقة، فكل بديل له مميزاته وعيوبه، وقد يبدو للوهلة الأولى أن البديل الأخير هو أفضل الخيارات لكونه متعلقاً بالمصلحة العليا للدولة ، إلا أنه - كما قدمنا - يعنى بشكل واضح عدم إحترام هذه الدولة لالتزاماتها التعاقدية ، وذلك أمر لا يمكن للدول أن تقدم عليه بسهولة حيث إنه قد يعرض مصداقيتها للشك في علاقاتها الدولية، وهنا يلجأ صانع القرار الى فنون إدارة العلاقات الخارجية، ومن ذلك مثلاً خلق الظروف والأوضاع الممهدة لتعليق أو إلغاء اتفاق الصداقة مع الدولة (ص)، أو السعى لديها لإيضاح الأخطار التى تهددها حال مطالبتها بالالتزام بنصوص الاتفاقية، ومحاولة الحصول على رضاها الضمنى .. إلخ .

إلا أنه ومن ناحية أخرى يمكن لنفس الدولة (س) أن تبذل جهداً مماثلاً مع الدولة (ع) ، توضح فيه صعوبة تخليها عن التزاماتها التعاقدية، مع التعهد ضمنياً على تأخير شحنات الأسلحة المقررة للدولة (ص) قدر الإمكان .

وأياً ما كان البديل الذى ستختاره الدولة فى النهاية، فإن ذلك الاختيار سوف يتوقف على قراءة دقيقة للمتغيرات

(Variables) الموجـودة وقت اتخـاذ القـرار، وعلـى قـدرة المتحرك بحسم ومهارة فى اتجاه البديل المختار .

والسـؤال الذى يطرح نفسـه الآن هو مـا هـو قدر الخطأ المسموح به عند اتخاذ أى قرار يتعلق بالسياسة الخارجية لأى دولة ؟ ، والإجـابة المختصـرة على ذلك السـؤال هـى أنه لا يوجد معادل حسابى يمكن القياس عليه، إلا أن المعيار الممكن هو مـدى تحـقق النتـائج المرجـوة من هذا القـرار، وهو كمـا نلاحظ معيار لاحق ولا يمكن القياس عليه فى حالات أخرى.

نستنتج من ذلك أن أغلب القرارات فيما يتعلق بالسياسة الخارجية تخضع إلى حد كبير لقاعدة التجربة والخطأ، وليس هناك مفـر من ذلك ، فكمـا أوضـحنـا فى المثال المبسط الذى أوردناه يوجد لكل قرار العديد من البـدائل، ولكل بديل مـا لا نهاية من الاحتمـالات، وإذا لم تقدم الدولة على اختيـار بديل من بين هذه البدائل فإنها تحكم على سياسـتهـا الخارجية بالجمود، وتفقد مصـالحهـا على المدى الطويل ، وبالتـجربة والخطأ يمكنها دائماً أن تصحح مسارها بفاعلية وحيوية .

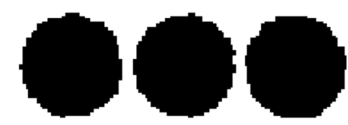
لقد قال الاستـراتيجى العظيم «كلاوزفيتز» أن القائد الجيد هو الذى يضع للمعـركة القـادمة مائة احتمـال، ورغم أن مـا يحـدث فى الواقع هـو الاحـتمـال رقم ١٠١، إلا أنه نتـيـجـة

لدراسته للمائة احتمال تكون لديه القدرة والمرونة الكافية لمواجهة الاحتمال غير المتوقع والتعامل معه بنجاح .

ومن المؤكد أن هناك قرارات خاطئة وأخرى صائبة، إلا أن مقدار الصواب أو الخطأ يعتمد إلى حد كبير على الزاوية التى نحلل بها هذه القرارات، فما قد يبدو للخصم قراراً خاطئاً قد لا يكون كذلك بالضرورة لمن اتخذ القرار، فلقد اتخذ «تشمبرلين» مثلاً سياسة التهدئة تجاه «هتلر»وقوبل بعد عودته من اجتماع ميونيخ الشهير باستقبال الفاتحين ، ومن يقرأ أدبيات ومناقشات تلك الفترة يرى كيف اعتبرت هذه الخطوة من «تشمبرلين» مناورة عبقرية للحفاظ على السلام فى القارة الأوروبية .. فيما بعد كتب كثيراً عن الخطيئة التى ارتكبها «تشمبرلين» ، ولكن يجب ألا نسقط فى وهم «الحكمة بأثر رجعى» ، وأن نكون منصفين للرجل وللتاريخ ، فلقد تحرك على أساس المعلومات المتوفرة لديه، وبشكل كان يظن أنه سيحول دون تهديد السلام فى أوروبا، وقد كان عليه أن يختار بين بدائل عديدة، وقد جرب واختار، وربما وقع فى خطأ أو أخطاء، ولكن من المؤكد أن سلفه «تشرشل» قد استفاد من هذه الأخطاء فى التحرك السياسى اللاحق، ويمكن القول بأنه لولا التجربة والخطأ لما أمكن التوصل الى

الصواب، وهذا الصواب بدوره نسبى، حيث لا يمكن القول بأن القرارات المتعلقة بالحرب العالمية الثانية التى كلفت البشرية ملايين الأرواح كانت كلها صائبة ، أو أنه لم تكن هناك قرارات أخرى تتيح تفادى هذه النتيجة الباهظة .

ختاماً نقول بأن السياسة الخارجية فى التحليل الأخير هى ممارسة شاقة ومرهقة لقاعدة التجربة والخطأ ، وأنه من اليسير على من لا يعمل ولا يريد للأخرين أن يعملوا، من اليسير عليه أن يجلس تحت الشجر كى ينظر ويحلل ويفتت قرارات الآخرين، وهذا النوع من الجهابذة سوف يظلون متصنمين فى أماكنهم كالتماثيل، بينما سيواصل الفاعلون الناشطون مغامرة التجربة والخطأ التى هى نفسها عنوان الحياة ومعناها ، وليست فقط أسلوب إتخاذ القرار السياسى.



الديمقراطية المفترسة!

أصبحت «الديمقراطية» نشيد الانشاد على لسان عدد لا بأس به من النخب العربية، حيث اكتشف بعضهم فجأة أن هذا «الشئ» هو سر العجز وخيبة الأمل التى تركب الجمل، وأصبحت الديمقراطية مثل «العلكة» فى أفواه كل من هب ودب، فالفقر هو نتيجة مباشرة لغيبة الديمقراطية، والهزائم هى مصير الشعوب غير الديمقراطية، وضرب مدينة اسمها «الفلوجة» لأنها غير ديمقراطية ، و .. و .و ...

وقبل التوغل فى هذا الموضوع، أريد أن أؤكد أن الدعوة للديمقراطية هى بلا شك دعوة حق ، ولكنه – كما سأوضح – حق يراد به باطل ، وشاهدنا على ذلك هو مجرد قراءة أولئك الذين يبشرون بالديمقراطية ، ومن البديهى أن الرسالة تحمل بعض قسمات حاملها ، كما أن الكثير من السم يقبع فى القليل من العسل، ولذلك فإن الترحيب بالديمقراطية لا يجب أن يعمى أعيننا عن حقيقة الصحن الذى تقدم فيه، إذ لطالما هللنا لبقايا أطعمتهم التى لم تورثنا سوى الضعف والمهانة والتخلف ، فباسم التمدين والتحضر استعمروا بلادنا وأذلوا شعوبنا عشرات السنين، وحينذاك كان هناك من بين جلدتنا من يمدح رسالتهم السامية ، بل ووصل الأمر بأحدهم أن يقول عن العلاقة بين المحتل الإنجليزى ومصر: «أنها زواج

كاثوليكى لا انفصال فيه !!» ، وباسم محاربة الشيوعية ساقوا الشباب المسلم للقتال فى جبال أفغانستان تحت راية الجهاد والإسلام، ووجدنا آنذاك أيضاً من بين جلدتنا من يمتدح التحالف الأمريكى الإسلامى فى مواجهة الإلحاد الشيوعى، وهم نفسهم الذين انقلبوا على فكرة الجهاد فيما بعد، وتقمصوا الخطاب الأمريكى الذى وصم الجهاد والإسلام بالإرهاب، واليوم يقذفوننا بأهمية الإصلاح وتعديل المناهج والديمقراطية، بنفس المنهج الذى اتبعوه وباستخدام نفس النخب الباهتة .. فأهلاً بالديمقراطية ، ولكن أى ديمقراطية؟؟ ..

الجنة الموعودة :

عندما تهاوت القلاع الشيوعية الحمراء ، وانهارت منازل الاشتراكية، قفز أنبياء الرأسمالية والليبرالية فوق كل مكان على الكرة الأرضية يهللون بالنصر الحاسم الذى لا نصر بعده ولا هزيمة، لقد تأكد لكل من لديه حول عقلى إفلاس الاشتراكية، وعقم النظريات الشعوبية ، وانطلقوا يبشرون بالديمقراطية الليبرالية فى زهو وافتخار ..

وكان السيد المبجل «فرانسيس فوكويوما» أول من دق طبول النصر بنظريته «نهاية التاريخ» ، حيث أسهب الرجل فى وصف الحتمية التاريخية لاتجاه العالم كله إلى التطبيق

الديمقراطى الليبرالى المقترن بحرية الأسواق، ورغم أن استعاراته لأساسه النظرى تشبعت بفكر هيجل وماركس، إلا أنه لم ير تطور التاريخ من خلال جدلية الصراع، فهذا الصراع من وجهة نظره قد انتهى بانتصار الأقوى والأصلح، ولم يكن سوى صراع للأيديولوجيات ، أى تنافس بين أفكار مختلفة فاز فيها الفكر الديمقراطى الليبرالى، وبالتالى فإن العالم أشرف على نهاية التاريخ، أو كما قال : «لقد أصبحنا على مشارف بوابة الجنة الموعودة، ولكننا لم ندخلها بعد» ، وانتقد بشدة أولئك المتشائمين من مصير المجتمع الرأسمالي، واعتبر أن نظريته هى «البشارة الطيبة» The good news التي يجب استقبالها بأكبر قدر من الفرح والتفاؤل .

ورغم سذاجة الطرح وسطحيته ، فإنه أثار - ولا يزال يثير - الكثير من اللغط ، ولكن لأغراض هذا المقال فإننى سأركز فقط على زاوية واحدة فى محاولة لفهم حكمة «عم جاب الله» فقد قسم «فوكويوما» العالم الى من يعيشون فى «ما بعد التاريخ» Post-historice ، ومن لا يزالون يعيشون فى التاريخ (بمفهومه القديم) Historic ، والعالم الأول هو عالم الغرب الذى اعتنق الليبرالية الديمقراطية واقتصاديات السوق، أما العالم الثانى فهو العالم الثالث بكل مكوناته المعروفة، وبين العالمين هناك عالم فى الوسط ، أى قدم فى

الجنة وقدم فى النار، والمعيار هو الليبرالية الديمقراطية، ونلاحظ أن مفهوم الرجل للمصطلحات يبدو غامضاً وهو لم يكلف نفسه مشقة تفسير فهمه لها، فعلى سبيل المثال الليبرالية أو الحرية لا تتطابق بالضرورة مع الديمقراطية، فالليبرالية هى الحرية التى لا تطيق أى قيود سواء أكانت حكومية أو قانونية أو حتى أخلاقية (مثل تحريم حرية زواج المثليين) ، بينما الديمقراطية تعنى ضمن ما تعنى نظام قانونى للحياة السياسية فى مجتمع ما ، وأدواته هى صندوق الانتخابات والتعددية السياسية، ولما كان أى نظام قانونى هو الضرورة مجموعة من القواعد والمحددات فإنه يفرض قيوداً على الحرية الفردية .

وقد يكون الرجل قد أردف «الليبرالية الديمقراطية» بمفهوم «اقتصاديات السوق» ، أى أن معيار التطبيق الأمثل لديه هو الإشباع المادى من منظور حرية الفرد دون تدخل من الدولة، ولكن أى اختبار بسيط لهذا المعيار يؤكد أن النتيجة لن تكون بالضرورة «الجنة الموعودة» ، بل ربما المزيد من تكريس أوضاع الفقر والغنى، لأن حرية بهذا المفهوم تعنى سيادة القوى والثرى، واستبعاد الضعيف الفقير، وربما يؤكد ذلك تقسيمه للعالم الذى يعيد للذاكرة على الفور التقسيم القديم بين «الشعوب المتحضرة» و «الشعوب البربرية» الذى كان

أساس الظاهرة الإستعمارية، أو التقسيم التالى بين «الدول المتقدمة» و «دول العالم الثالث».

إن الرجل يلقى بأطروحته دون أى نظرة نقدية للأيديولوجية التى يدعى أنها انتصرت، وأنها المصير الحتمى للتاريخ الإنسانى، وذلك قصور نظرى واضح.

الديمقراطيات لا تتقاتل، ولكن تتآمر:

ورغم المنهجية الهيجلية فى «نهاية التاريخ»، فإنه من الملاحظ أيضاً تشبعها بالحس الكنسى المسيحى (مثل استخدامات الجنة الموعودة، والبشارة الطيبة)، ونظرتها للتاريخ بإعتباره تطورا مستقيما إلى نهاية محددة وموجهة، بخلاف النظرة التقليدية للتاريخ بإعتباره تطورا جدليا مابين علاقات متنوعة ومتشابكة لا تفضى بالضرورة إلى نقطة ما، أو يمكن السيطرة عليها وتوجيهها.

ويستعير «فوكويوما» أيضاً من «كانط» فكرة أن الدول الديمقراطية لا تتقاتل (وهى عبارة يرددها كثيراً الرئيس الأمريكى بوش)، على أساس أن الدول الديمقراطية تقودها حكومات منتخبة لا يمكنها إتخاذ قرار الحرب لأن دافع الضرائب الذى يقوده موارده وأولاده فى أتون الحرب لن يقبل بذلك، إلا أن السيد «فوكويوما» يستدرك بأنه وإن كانت الدول

الديمقراطية لا تتقاتل فذلك يقتصر عليها وحدها، وإنما يمكن أن تحدث الحرب بين دولة ديمقراطية ودولة غير ديمقراطية، وهو يرى كما يرى النائم أن الدول الديمقراطية ينبغى أن تشكل عصبة فيما بينها كى تنشر الديمقراطية أو تفرضها إذا لزم الأمر على الدول غير الديمقراطية، وبهذا يعم السلام.. ونلاحظ هنا مرة أخرى الحس الكنسى من زاوية أن الديمقراطية تشبه عودة السيد المسيح ثم إنتشار السلام فى العالم لمدة ألف عام بعد عودته، فالحرب سوف تستمر كظاهرة على حافة نهاية التاريخ، ولكنها ستقتصر فقط على تأديب وتهذيب الدول التى لم تعتنق الديمقراطية وإقتصاديات السوق.. أى أن الديمقراطيات لا تتقاتل وإنما يجب أن تتآمر كى تقاتل الآخرين، والهدف المعلن هو «تطبيق الديمقراطية»، فالديمقراطية هى اسم اللعبة الجديدة، كمدخل لاستمرار هيمنة المتحضرين وتبعية المتخلفين، وللقضاء على الخندق الأخير الذى لا يزال الضعفاء يتحصنون به، خندق الدين والثقافة، خندق الهوية القومية.

ولكن لم يقل لنا سيادته أى نوع من أنواع الديمقراطية يبشر بها؟ أو بالأحرى يهدد بها!!. فإذا كانت بما نظن أنها

مفهومه لحرية الأسواق، والانعدام الكامل لسيادة الدول الفقيرة، وانتهاك مقدراتها وإلزامها بالتبعية المطلقة، فلاشك فى أنها تعنى بالضبط ما فهمه المتظاهرون ضد «العولمة»، فهى «عقم للجنس البشرى ووقف لنموه»، ففى ظل هذا التشوه الفاضح فى توزيع الثروة، وهذا الفارق الفادح فى النمو، فإن هذه الوصفة الديمقراطية ليست سوى استعمار فى قناع جديد، وهذا هو بالضبط ما تبشر به جحافل المحافظين الجدد فى أمريكا وإن كان بعبارات أخرى..

إن الديمقراطية الغربية هى التى ابتلت البشرية بحربين عالميتين مدمرتين خلال القرن الماضى، وكان أطرافها الرئيسنين هى الدول الديمقراطية، ولا يفت فى ذلك أن يقال مثلاً أن «ألمانيا» أو «إيطاليا» كانتا خروجاً على القاعدة لأنهما عكسا نظامين فاشيين عنصريين، لأن هاتين الدولتين فى النهاية قد خرجتا من رخم نفس النظريات والفلسفات التى أفرزت الحضارة الغربية بكل مشتملاتها، والقائمة طويلة قد لا يحتملها هذا المقال، ولكن على سبيل المثال كان أول استخدام للقنابل الذرية فى التاريخ البشرى بواسطة دولة ديمقراطية، والحروب الاستعمارية كانت صراعاً بين دول ديمقراطية، بل

إن مجرد استثناء الحروب بين الدول الديمقراطية، وإباحة ذلك ضد الدول «غير الديمقراطية» هو نظرة عنصرية فاشية على المستوى الدولى.. وبالمناسبة فإن إسرائيل تعتبر نفسها واحة الديمقراطية، ويراها كذلك أهم حلفائها دون أن يفسر لنا أحد العلاقة بين الوحشية والديمقراطية، بين العنصرية والديمقراطية، بين الرعب النووى والديمقراطية.. إنها نوع من الديمقراطية المفترسة بلا قلب أو خلاق، استحلت ومازالت تستحل ثروات ومقدرات الشعوب تحت شعارات جذابة مختلفة لمدة قرنين من الزمان.

إن الديمقراطية التى تستحق أن ندافع عنها، هى المصنوعة محلياً، مجدولة من تجاربنا وثقافتنا وديننا، مشدودة بإرادتنا المستقلة وتصميمنا على المقاومة دفاعاً عن مقدساتنا وهويتنا، ديمقراطية لا تسحق الفرد.. ولكنها لا تضحى بالمجتمع من أجل حفنة أفراد، ديمقراطية لا يتسلل من بين ثناياها شياطين الفاشية والتعصب وتجار الموت والسلاح، ديمقراطية تخاطب فى الإنسان أفضل ما فيه، لا تعده بالجنة ثم تلقيه فى الجحيم..

«المحلل» السياسى ..!!

تناولت السينما المصرية بشكل ساخر موضوع «المحلل» أو «الزوج المؤقت» لزوجة طلقت ثلاث مرات وأصبح ضرورياً لها كى تعود إلى زوجها أن تتزوج بشخص آخر، ثم تحصل منه على الطلاق، لذلك فهو كما وصفه البعض: «زواج على ورقة طلاق» أو «زوج مع وقف التنفيذ»..

تحليل الحرام، وتحريم الحلال:

وبغض النظر عن موقف الشرع من هذا الموضوع، فإن ما يهمنى هنا هو شخصية ذلك الشخص «المحلل»، فمن الناحية اللفظية هو ذلك الذى يؤدى بفعله أو بعدم فعله إلى تحليل المحرم وتحريم المحلل، وهو من الناحية الفعلية ذلك الشخص الذى يقبل بأداء دور رخيص مقابل عائد مادى أو معنوى.

لذلك، فإن هذا الشخص، وبشكل فلكلورى لا يزيد على إنسان إمعة من أدنى درجات السلم الاجتماعى، فاقد للقيمة والاعتبار، ينتهى دوره بانتهاء الهدف المطلوب منه تحديداً، وهو إضفاء وجه شرعى زائف لبطلان مطلق.

التحليل السياسى على المقاس:

ولقد كان استدعاء هذه الشخصية القميئة ضرورياً حتى

يمكن إيجاد مثال واضح للمقارنة يسهل على الناس إدراكه، حيث قفز إلى ذهني مباشرة بعد قراءة «تحليل سياسي» لكاتب مرموق ينشر في عدد من الصحف، ويطل علينا من مجموعة من الفضائيات العربية، كالقمر الذي لا يتغير خلال الشهر، أو ينال منه الكسوف الجزئي أو الكلي.

ولن أذكر إسم هذا الكاتب لعدة أسباب: أولاً: لأسباب أخلاقية تتعلق بالإباء عن التشهير بالناس، وثانياً: لأنه لا ينفرد وحده بما سوف أوضحه فيما بعد من ملاحظات، وثالثاً: لأنني لا أريد أن أساهم في مزيد من الدعاية والإعلان عنه، خاصة أنه يقوم بذلك بذكاء شديد، وأخيراً: لأنني أثق في ذكاء القارىء..

فهذا الكاتب يحترف «التحليل السياسي» من زاوية خاصة جداً، فهو يؤمن فيما يبدو إيماناً عميقاً بمبدأ «الزبون دائماً على حق»، وهذا الزبون المستديم ليس إلا «السلطة السياسية»، لذلك فهو شيوعي إذا كانت هذه السلطة شيوعية، وهو من أشد المدافعين عن الاشتراكية العربية إذا كانت تلك هي موضة العصر، ثم هو المقاتل الصنديد عن الإنفتاح الإقتصادي وآليات السوق و«دعه يمر، دعه يعمل»، وهو أول المدافعين عن القضية الفلسطينية وعدالتها والصارخين بحمل

السـلاح والزود عن لحمى والأرض والعرض، ثم هـو فى زمن آخـر أول المهللين للسـلام وأول القـافـزين فى العـربات الأولى للتطبيع مع إسـرائيل، فـهو كـالحـرباء له مقـدرة على التـغيـر والتلون طبقاً للطقس السياسى وتضاريس السلطة القائمة أياً كانت هذه السلطة.

«مشخصاتى» أم كاتب؟:

والإعـجاز الكبير لهذا الكاتب - ومن كان على شـاكلته - هو إمكانياته الفائقة على الحديث وبنفس الحماس عن الشىء وعكسـه، وقـدرتـه اللولبـية علـى اصطناع الحـجج والأسـانيـد إصطناعاً والدفاع عنها دفاع العابدين النسك عن مقدسـاتهم، وله ملكات تمثيلية باهرة ترشحه بسهولة للعمل فى المسرح أو السينما، فهو «مشخصـاتى» ضل طريقه واتجه إلى الكتـابة.. وللأسف الكتابة السياسية.

وهذا النوع من الكتاب يعتمد على ضعف ذاكرة القارىء وكبر دماغ السلطة، فالسلطة تغض الطرف عن مواقف سابقة لمحلل سـياسى يثبت بالدليل القـاطع أنه تاب عن تلك المواقف واعترف بخطئه واعتدل، أما القارىء الطيب فليس له ذاكرة الكمبيوتر كى يختزن فيها مواقف وآراء هؤلاء الكتاب، كما أنه أحياناً كثيرة - وهذه هى المصيبة - يرى فى ذلك التلون شيئاً

طبيعياً لا غضاضة فيه.

والواقع أن ما يفعله هؤلاء يشبه إلى حد كبير ما يقوم به «المحلل» الفلكلورى، فهو يحلل الحرام ويحرم الحلال فى السياسة مقابل عائد مادى أو معنوى، فهو يبرر أعمال السلطة حتى أخطائها وخطاياها، ويجتهد كالشيطان كى يلوث المعارضين ويسفه آراءهم، وحين تصل العلاقة بين السلطة والشعب إلى حد الطلاق، يتدخل كى يلعب دوره الرخيص فيتزوج الشعب على ورقة طلاق، حين يتبنى بعض المواقف الشعبية وهو يقود الرأى العام بأسلوبه الثعبانى كى يعيد الوئام والاتفاق بين الزوجين الأصليين.

الكتابة حرفة، والتغير شجاعة:

وهذا النوع من الكتاب أدوات لا غنى عنهم للسلطة السياسية، ويرى البعض أنه من الخطأ اتخاذ مواقف أخلاقية تجاههم، فالكتابة - وفقاً لهذا الرأى - حرفة مثل باقى الحرف، وبائع الأحذية مثلاً يجب أن يصنع الحذاء على المقاس، ويبذل جهده لإقناعك فإن اللون والموديل أكثر مناسبة لك من غيره، لذلك فإن محاولة اعتساف أحكام أخلاقية خاصة لحرفة الكتابة تعد نوعاً من الشطط والمغالاة، بل إنها تجافى

واقع الأمور وحقيقة العلاقات الإنسانية.

ويرى البعض الآخر، وبشكل أكثر تحذلقاً، أنه لا غضاضة فى أن يغير الكاتب من آرائه مثلما يغير ملابسه الداخلية، فالتغير هو سمة الحياة، بل يرون أن تلك شجاعة تحسب للكاتب لا عليه، فهو حين يدرك خطأه يبادر بتغيير موقفه، وذلك يعد ضمناً اعترافاً منه بذلك الخطأ، وبالتالى يستتبع ضرورة اعترافنا وتقديرنا لشجاعته..

حق يراد به باطل:

من الواضح أن الآراء السابقة التى تدافع عن هذا النوع من الكاتب لا تصدر إلا من نفس النوع، فهم فصيل واحد له نفس الخصائص الحربائية، وإذا كنا نتفق فى أن بعض الكتابة هى بالفعل حرفة، فإن لكل حرفة أخلاقياتها ولا يجوز لنا أن نزن الذهب بالطماطم، وبائع الأحذية حين يجتهد فى إقناع الزبون بشراء حذاء معين لا يستطيع أن يرغمه على إرتداء ما ليس على مقاسه، ثم إن البائع المحترم يحرص على سمعته فلا يغش الزبون، ثم إن الغش التجارى يجرمه القانون، وليس الحال كذلك – للأسف – فى غش الضمائر وخداع العقول.

لذلك فلم تكن مبالغة أن يوصف الكاتب بأنه ضمير أمته،

وأن يوصف القلم بأنه أخطر من السيف، ولذلك أيضاً كان للكتاب ميثاق شرف مكتوب أو غير مكتوب للتمييز بين الصالح والطالح ومن هو كاتب ومن هو مجرد «محلل» بالمعنى الذى أوضحناه.

أما إدعاء شجاعة إدراك الخطأ وسنة التغيير، فذلك حق يراد به باطل، لأنه من المفترض أن قناعة الكاتب تتكون من تراكم ثقافى طويل وعميق، وهو حين يعبر عن تلك القناعة فهو إنما يعكس استخلاصاً ذهنياً من هذا التراكم المتفاعل، وهو على الأقل غير قابل للتأثر فى خطوطه المبدئية الرئيسية، ولا يمكن تصوره مجرد دالة تابعة لمتغير خارجى فى النظام السياسى.

نوع من الإيدز الفكرى:

إن خطوة هذا النوع من الكتاب متعددة المستويات، فمن ناحية هم يشاركون فى خداع وتزييف وعى الجماهير، كما إنهم يساهمون فى خلق أنماط من السلطة ترتكن إلى هذا الخداع وتستمرئه بل ويكون لديها المبرر الأخلاقى فى اتباع سياسات خاطئة، بل إنهم يخدعون تلك السلطة نفسها عن طريق حرمانها من الرأى الصحيح والمشورة الخالصة، ثم إن ذلك كله يؤدى إلى تواتر هذا الأسلوب بين أجيال طالعة من

الكتاب يرونه النموذج والسلم المضمون للوصول، وهو أخيراً يقود إلى فقدان المصداقية وانعدام الثقة بين السلطة وكتابها من جهة، وبين قطاع كبير من الجماهير من جهة أخرى، حيث يصبح هذا القطاع أرضاً خصبة للشائعات والدعايات السوداء التى تستهدف المجتمع الذى فقد حصانته الفكرية بسبب هذا النوع الردىء من الكتاب.

ولسوف يكون من المفيد فى هذا الصدد أن يقوم باحث جاد بجمع مقالات بعض كبار الكتاب خلال السنوات الماضية، لإيضاح التضارب بل والتناقض الجوهرى فى تلك المقالات فى ظل ظروف سياسية متعاقبة، وأهمية هذا البحث هى أنه سيساعد فى تعرية هذا النوع من «المحللين» أمام الرأى العام، وقد يسهم فى القضاء على الظاهرة التى تشبه مرض الإيدز من حيث أنها تهاجم جهاز المناعة العقلى للجماهير..

اليوم.. اليوم وليس غداً!

فى زحمة الحياة، وضغط الحوادث والأحوال، لا يكاد المرء يجد وقتاً للتحاور مع نفسه، للتأمل والتدبر والإبداع، فهو ترس يدور بلا توقف، مملوء بالتوتر والقلق، مدفوع بلهاث خلف ما يراه وما قد يره، مطحون باحتياجات متجددة ورغبات مكبوتة، فهو قد يمتلك الكثير من الأموال ولكنه لا

يزال محتاجاً، قدمت له التكنولوجيا كل عناصر السرعة كى يختصر الوقت، ومع ذلك فليس لديه وقت!!..

الطريف أننا استسلمنا أو تشبعنا بأبجدية هذا الزمن الذى أفقدنا دفء إنسانيتنا وحرارة العاطفة التى تعطى للحياة رونقاً وبهجة وأملاً فى الغد، صرنا مثل التائهين فى زحام من التائهين، نتكلم دون أن نتفاهم، نتنفس دون أن نحيى، نأكل ونشرب ونلهو كآلات مبرمجة بلا طعم لما نأكل ولا مذاق لما نشرب، ولا بهجة فيما نلهو، ثم نتساءل أحياناً: «ماذا حدث للدنيا»؟..

لقد امتلك الإنسان أقصى درجات الحرية انعدامها، أصبح حراً فى ألا يكون حراً، فهو عبد لعمله، لحساباته فى البنك، للتليفزيون والإنترنت، للغنى المترف، للسلطة المستبدة، لذل تقاليد الخنوع الموروثة، لوهم الحاجة المادية التى تبدو كبئر بلا قاع، هو عبد يتشدق بحرية لم تعد موجودة، يتباهى بأغلاله العصرية باعتبارها أساور المدنية الحديثة.

يطمح الإنسان فى اقتناء سيارته، أى سيارة تحمله من مكان إلى آخر، فإذا اقتناها، طمح فى أخرى أكثر حداثة وأغلى سعراً، وعند تمكنه من ذلك طمح فى اقتناء طائرة خاصة ويختاً وجزيرة فى أحد المحيطات.. هو لا يرضى إلا

قليلاً، ولا يستمتع بما لديه إلا نادراً، لأنه فى سباق لا يتوقف مع نفسه ، ومع الآخرين ومع آخر إغراءات شيطان الاستهلاك الساخر.

رجل محترم، عرفته لبعض الوقت، وجدت على مكتبه ذات يوم ٥ هواتف محمولة، كل هاتف منها بلون، فهذا أحمر، وذاك أزرق، وذلك أخضر.. سألته فأجاب مبتسماً: «كل هاتف يتناسب مع لون ثيابى».. وعندما لاحظ دهشتي، وربما سخريتى واستنكارى، استطرد قائلاً وهو يتنحنح: «المهام التى أحملها كثيرة، وأحتاج أكثر من خط تليفونى»!، ولكنه لم يقل أو يوضح كيف يستمع إلى كل هذه التليفونات فى نفس الوقت!!..

وقد قرأنا فى الصحف منذ فترة عن ذلك الرجل الذى دهسته سيارة فى أحد شوارع القاهرة بسبب عدم تنبهه حيث كان يقطع الشارع بينما يتحدث فى تليفون محمول.. إلاَّ أن هذا ليس هو الخبر، وإنما ما تبين بعد ذلك من أن التليفون المحمول الذى كان يستخدمه لم يكن سوى لعبة أطفال على شكل تليفون محمول!!.. هذا الرجل المرحوم هو تلخيص لهذا الزمن العجيب، فمن أجل إظهار أهمية موهومة، دفع كل حياته ثمناً لذلك.. وهو ما يفعله أكثر الناس بشكل أو بآخر،

فالحياة تتبخر من بين أصابعهم وهم يطاردون الوهم.. وهم الثروة والسلطة التي يظنون أنها الغاية الوحيدة الجديرة بالحياة، حتى يموتون فجأة في عارضة طريق الزمن، وهم يتحدثون إلى من لا يسمع، مهما كان الظاهر مهماً وجاداً.

انفرط عقد الأسرة، أو كاد.. لم يعد لدى الأب وقت مع أطفاله، فهو مشغول على الدوام، إن لم يكن في عمل يقوم به، فهو إما يتسامر مع أصدقاء في مقهى أو ملهى أو يقتل الوقت بعيداً عن البيت في أي شيء، كل ما فعله مع أطفاله هو أنه بذل جهداً معقولاً في إنجابهم، وتلك هي مشاركته الوحيدة في نماء البشرية!!.. أما الأمهات، فحدث ولا حرج، بعضهن يجدن الأهمية الوحيدة في العمل، فهي امرأة عاملة تتساوى مع الرجل، وميراثها الأنثوي من ذكريات استبداد الرجل وتسلطه تدفعها - وقد نالت استقلالاً اقتصادياً - أن تزاحمه وتدفعه حتى ولو كان زوجها، وبغض النظر عن إسهامها الحقيقي في قيمة العمل الإجمالية، فهي تشغل حيزها، وتملأ ما تبقى منه في هوايتها الأثيرة: «الثرثرة»، والأطفال بالنسبة لها هم ما بعده هم، فرغم شوقها الطبيعي للأمومة، إلا أن الإنجاب يشوه قوامها البديع الذي تحرص عليه كي تغيظ

قريناتها، ثم إنها لا تطيق ضجة الأطفال وإلحاحهم، فهى تحتاج للراحة كى تتمكن من الثرثرة التليفونية فى المساء مع هذه وتلك، لقد فعلت كل ما يمكنها مع أطفالها، فقد أنجبتهم، وهذا هو كل المراد من رب العباد..

أقول : إن لكل قاعدة إستثناء، كما أن لكل ظاهرة درجاتها التي تختلف طبقاً للدول المتغيرة لكل معادلة، فلا يزال هناك الأب الكلاسيكى الذي يحدب على أسرته، ولا تزال هناك الأم الأسطورية التى تحمل زوجها وأطفالها بين أهداب عيونها، فلا ترى شيئاً إلا من خلالهم، ولا تشعر بأهمية إلاّ بهم.. إلاّ أن هذا الاستثناء يتقلص يوماً بعد يوم، لأن أعمدة القاعدة نفسها تتآكل وتعصف بها رياح العصر المجنونة الهمجية، ولأن أنانية الذات تعميها عما سواها، وهذه الأنانية نتاج فلسفة العصر السائدة: «أنا ومن بعدى الطوفان»، وهى تلخيص لنظريات اقتصادية وسياسية وفلسفية تراكمت فى العقل والممارسة الإنسانية، هى الجوهر التطبيقى للاقتصاد الحر إذا سلمنا بسلامة مقدماتها النظرية، فهى نفى للآخر، أو تشيىء له (أى يصبح شىء)، أنها «الفرد المقدس» الذى تحيطه نبذبات الحافز الفردى، بغض النظر عن محيطه

البشرى أو عواطفه أو إنتمائه، وهذا النفى يشبه الدوامة المتعددة الدوائر، فالفرد فى قلب الدائرة يدفع بعيداً عنه الآخرين فى العالم أو المجتمع أو الأسرة، يغوص فى ذاته ومتطلباته الأنانية ولا شىء سواها..

لا توجد نظرية صحيحة وأخرى خاطئة طالما تساندت مقدماتها وبراهينها وما تثبته فى منهجها المنطقى، المشكلة دائماً تكمن فى التطبيق، ودليلى على ذلك الأديان نفسها، فهى نظرياً تحض الإنسان على أفضل ما فيه وتضع إطاراً صحياً للمجتمع البشرى، ولكن المجتمع البشرى يأخذ فى التطبيق صوراً متعددة، فإما يهمل تماماً الأسس الحقيقية للنظرية ويتبع هواه ويصبح أمره فرطاً، وإما هو يحرف الكلم عن مواضعه، أو يتطرف فى فهمه وممارسته للنظرية، وفى كل الأحوال لا يمكن أن نتهم النظرية.. ينطبق ذلك بشكل كبير على النظريات التى أفرزتها القريحة البشرية لسياسة أمور الناس، فأفكار مثل فكرة «العدالة الاجتماعية»، و«التكافل الاجتماعى»، و«الحرية»، و«المساواة»، هى أفكار خام يتم تصنيعها فى شكل نظريات سياسية، واقتصادية وإجتماعية، إلا أن تطبيق تلك النظريات فى الكثير من الحالات إما يهمل

أسسها الحقيقية، وإما يحرف تلك الأسس عن مواضعها النافع، وإما يتطرف بها إلى درجة خروجها عن معناها الحقيقى، وفى كل هذه الحالات يتآكل الخام الأصيل الذى استمدت منه تلك النظريات قيمتها..

لقد كانت الخامات المستخدمة فى نظريات «ماركس» و«أنجلز» و«آدم سميث» وغيرهم في اليسار واليمين هى الخامات نفسها تقريباً، وكلها تصبو إلى تحقيق السعادة للإنسان، إلا أن التطبيق أدى إلى مزيد من المعاناة والدموع والدماء، وهكذا حل «الظلم» محل «العدل»، وحل «الفقر» محل «الثروة»، وساد الجهل والتجهيل، وأصبحت «المساواة» شعاراً جميلاً فوق رؤوس لا تؤمن به ولا تطبقه، وأصبحت «العدالة الاجتماعية» تكريساً وتعميقاً لأوضاع الفوارق الاجتماعية بمسميات خادعة، ولم تعد «الحرية» تعنى فى أكثر الأحوال سوى «الفوضوية» التى تتيح للقوى السيطرة على الضعيف، وتشيع الغموض والالتباس فى تعاملات البشر على كل المستويات..

البشرية اليوم فى حاجة للتوقف كى تتأمل وتتدبر فيما وصلت إليه من عبثية ممنهجة، فلقد فسدت كل الينابيع، وتحول الإنسان إلى كائن مشوه مزرى، يجب أن نبطىء السير قليلاً كى ننظر حولنا لنرى بدقة أين وصلنا وإلى أين نتجه.. يجب أن نفعل ذلك اليوم.. اليوم وليس غداً..

برنامج الاتجاه المشاكس!

خطر لى وأنا أتابع برنامجاً سياسياً حوارياً على إحدى الفضائيات العربية أننا أصبحنا أسرى هذا الجنس الثقافى الجديد دون أن نحاول دراسة آثاره على المجتمع العربى وخاصة على أجيال الشباب؟..

وكان السؤال الافتراضى الأول هو عما إذا كان الشباب العربى يتابع بالفعل هذا النوع من البرامج، وكان السؤال الثانى هو عن النسبة المئوية من إجمالى المشاهدين بوجه عام، بينما السؤال الثالث يلخص كل ما تقدم ويحاول البحث عن الأثر.

ولما كانت المسألة مجرد خاطر عابر، فهى بالتأكيد لا تمت بصلة للعلم إلا فى مرحلة التساؤل، ولست أدعى أن مؤسسة ما قد قامت بدراسات إحصائية للسؤالين الأولين، ومن المشكوك فيه أن مؤسسة سوف تتحمس لمثل هذا الجهد إلا لأهداف مخابراتية تكون فى الغالب أجنبية، ولذلك فإن الواجب يقتضينى أن أوضح أن ما سيلى هو مجرد سباحة غير علمية فى واحدة من بحيرات الحيرة العربية.

انعدام الأثر:

بادىء ذى بدء قد يكون من السهل ملاحظة أن الشباب

العربى بشكل عام لا يهتم بكل البرامج الحوارية، ونتيجة لتقصى ذلك بين الشباب فى عائلتى تبين لى أن البرامج الحوارية التى تثير اهتمامهم هى تلك التى تثير قضية فنية أو قضية دينية، فعندما يكون الضيف فناناً محبوباً فإن عدداً متزايداً من الشباب يقبل على البرنامج، ونلاحظ هنا أن التركيز لا يكون غالباً على القضية المثارة وإنما على شخصية الضيف أو المحاور، وإذا سألت مثلاً أحد الشباب أن يلخص لك ما دار من مناقشات ورأيه فيها فإنك لن تحصل على إجابة تفيد بمتابعة ذات معنى لما كان مثاراً. الملاحظة الثانية هى أن نسبة المتابعة لهذا النوع هى أكبر فى الإناث منها فى الذكور، وخاصة بالنسبة للبرامج الحوارية الدينية ويرجع ذلك فى رأيى إلى عاملين أساسيين: أولهما: الظروف الاجتماعية الخاصة للمجتمعات العربية حيث يكون التليفزيون هو النافذة المتاحة للإناث على العالم الخارجى، وثانيهما: الفقر الثقافى الذى لا يتيح للشباب متابعة برامج أكثر تخصصاً فى موضوعات أخرى.

الملاحظة الثالثة وأظنها الأكثر أهمية هى أن تلك البرامج بوجه عام ليس لديها درجة عالية من المصداقية لدى الشباب «وربما لدى الجميع)!!. لأسباب تتعلق بالظروف السياسية التى تعمل فيها أغلب إن لم تكن كل الفضائيات العربية،

وكذلك الإعداد المتواضع للمادة والمحاور بل وأكثر الضيوف رغم أنهم من المتخصصين، فالمسألة تبدو وكأنها دردشة إنفعالية ما تيسر من رؤوس للموضوعات، فالوقت المحدد للبرنامج محدود بينما أى موضوع يتطلب تأصيلاً وتوضيحاً وتحليلاً وإلا لما تجاوز الموضوع مجرد الطرح الذى لا يغذى عقلاً ولا يثير جديداً.

فإذا ما سلمنا بفرضية انصراف أغلب الشباب عن متابعة هذا النوع من البرامج، فما هو حال القلة التي نفترض أنها تتابع؟، من هم، ولماذا يتابعون البرامج الحوارية المتخصصة وخاصة تلك السياسية؟..

وهم الرأى العام:

قد لا تبدو الإجابة بسيطة لأنها تتعلق بحالات فردية كل منها لها خصائص شخصية مختلفة واهتمامات متباينة، فهناك مثلاً أولئك المتأثرين بالمحيط العائلى، فالأب مهتم بالسياسة ويناقش الأبناء ويدلى برأيه، وهناك المتأثرون بمناخ أو ظرف سياسى خاص، فابنة الشهيد أو الزعيم السياسى مثلاً تجد دافعاً عاطفياً يستحثها لمزيد من فقه السياسة، وهناك كذلك المتأثرون بالمدرسة أو الجامعة (وربما بإستاذ بعينه) وهؤلاء أقل عددا فى تلك القلة. ولقد حاولت أن أستحضر فى ذهنى عدداً محدداً من أبناء العائلة وبعض

الأصـدقـاء، وتمكنت أن أضع عـشـرين منهم تحت المجـهـر، واعتصرت ذاكرتي كي استدعي شخصياتهم وآرائهم، فوجدت أنه يمكن القول أن اثنين فقط بين هذا العدد قد يكون لديهم اهتمام بالبرامج السياسية الحوارية، أى بنسبة ١٠٪ وهى نسبة رأيت أنها كبيرة وتخالف توقعاتى، إلا أننى لاحظت أن الشريحة الممثلة هى من عائلة وأصدقاء لهم فى الأساس اهتمامات سياسية واضحة ويتراوح إنتماؤهم الطبقى إلى الطبقة الإرستقراطية والمتوسطة العليا، ولاشك فى أن النسبة تختلف فى إطار آخر.

ولكن لو سلمنا بهذه النسبة وافتراضنا انطباقها على المجتمع ككل، وبأخذ مصر كمثال تطبيقى، وإذا كان الشباب فيها يمثلون تقريباً ٦٠٪ من إجمالى عدد السكان أى حوالى ٣٥ مليون شاب، فإن من يتابع منهم تلك البرامج الحوارية السياسية يصل إلى ٣,٥ مليون شاب فقط وهو عدد لا يستهان به.

ولعل أول سؤال يتبادر إلى الذهن بناء على الفرضيات السابقة هو كيف يتناسب ذلك مع العدد الضئيل للمشاركين منهم فى الحياة الحزبية أو العمل العام؟، فمن الملاحظ أن عدد أعضاء الأحزاب المصرية المختلفة من الشباب هو بالآلاف ولم يصل إلى عشرات الآلاف (ليست لدى إحصائية مؤكدة ولكن

تلك هى الشواهد)، ويمكن القياس أيضاً على المظاهرات التى شهدتها مدن مصر وقراها أثناء أزمة العراق الأخيرة، فرغم التعبئة الإعلامية وعشرات البرامج الفضائية، لم يخرج فى تلك المظاهرات من بين الـ٥ , ٣ مليون شاب (السابق حصرهم) سوى حفنة آلاف.

وقبل مزيد من الاستطراد، أظن أن هناك استنتاجا فورياً يفرض نفسه الآن، فلقد بالغ البعض فى قيمة المظاهرات أثناء هذه الفترة، وتحدث البعض الآخر عن رأى الشارع العربى وموقف السلطة السياسية، بل ووصل الأمر بالبعض أن يهدد أمريكا بثورة الشارع العربى التى سوف تحرق الأخضر واليابس، إلا أن التوضيح السابق يؤكد مجموعة من الحقائق: أولاً: أن الأثر الواضح لتلك البرامج السياسية الحوارية لا يزيد على طاقة انفعالية وربما تفريغية. ثانياً: الشباب المهتم سياسياً ليس لديه قدرة تنظيمية أو حركية، ولديه فقر فى المعلومات عن هذا الجانب، ثالثاً: إنه من الواضح أن السلطات السياسية كانت تعرف أكثر، ولعل إمكانياتها الأكاديمية قد جعلتها تصل إلى ذلك الاستنتاج بسهولة، ورابعاً هو الأهم: أن أمريكا وحلفاءها لديهم نفس الاستنتاج.

تناطح ماعز الإليت:

وبالنظر إلى التيار الجديد الذى يحتل حاليا أغلب هذه

البرامج الحوارية، وخاصة الضيوف الذين يتمتعون بمنح تعليمية أو فرص دراسية فى أمريكا وحصل أغلبهم على درجة الدكتوراة، فمن الملاحظ أنهم يتصدرون حالياً عملية التبشير السياسى والتنظيم لمبدأ الواقعية (أو الوقوعية طبقاً للمعنى الصحيح)، حيث يسخرون من الواقع العربى الحالى والماضى، ويركزون على أهمية الانسلاخ الثقافى من هذا الواقع مشتملاته، ويهللون لمبادىء الحضارة الغربية (وخاصة قمتها الأمريكية)، ويرمون المجتمع العربى بكل العورات، وينشرون ثقافة اليأس من المقاومة، ويؤكدون على سياسة الركوع للأمر الواقع، وهذا ليس إلا تلخيصاً موجزاً لأهم مرتكزات هذا التيار الذي يمكن التوصل إليه من خلال تحليل بسيط لمضمون آراء ممثليه التى انتشرت وخاصة فى الفترة الأخيرة بين أوساط الفضائيات العربية وأعمدة الصحف والمجلات، وهم فى رأيى لا يختلفون عن التيار الدينى المتعصب فكلاهما يرفض الواقع ويحتقر مفرداته، وكلاهما يعتبر أن المجتمعات العربية تعيش فى جاهلية، وكلاهما يشيعان مناخاً من اليأس والإحباط؛ وكلاهما لا يعترف بحركة التاريخ، فالتيار المتعصب يرى القفز مرة واحدة إلى الوراء دون دراسة للتطور التاريخى للواقع الاجتماعى والسياسى، والتيار الوقوعى يرى القفز مرة واحدة إلى الأمام من خلال التنازل عن كل معطيات الواقع

الاجتماعي والسياسي بكل ما فيها من خير وشر، التيار الأول يستورد نظاماً اجتماعياً وسياسياً من عمق التاريخ، والتيار الأول يستورد نظاما آخر من فلسفة ثقافة المهزوم، وكلاهما لا يمحص خياره ومدى صلاحيته أو إمكانيات تفاعله مع الواقع الحقيقي للأمة، وكلاهما يمارس الإرهاب بطريقته، وإن كنت أرى أن الإرهاب الفكرى الذى يمارسه التيار الثانى هو أخطر أنواع الإرهاب، لأن الأول قد يقتل فرداً أو حفنة من أفراد، بينما الثاني يقتل عقل الأمة وإرادتها.

وربما التعزية الوحيدة التى تقدمها هذه الخاطرة فى مواجهة هذا الخطر الداهم هو ما نظن أنه الحقيقة، بمعنى أن تلك السموم لن تجد طريقها لأجيالنا الناشئة، حيث أن هذه البرامج الحوارية تشبه تناطحا بين ما عز الإليت (الأليط) فوق قمة ثلجية باردة تكتنفها السحب، وبالطبع لا يكفى هذا العزاء لحل الإشكالية التى تمر بها مجتمعاتنا، وخاصة ذلك التحدى الماثل فى عولمة ثقافية واقتصادية وسياسية متوحشة توشك أن تفترس هويتنا واستقلالنا، وتستلب ما تبقى فى جهازنا المناعى للمقاومة، وهو ما يقتضى - ضمن أمور أخرى ليس هذا مجلها - محاولة مخلصة لتنقية هذا النوع من البرامج الحوارية من خلال حُسن الإعداد والابتعاد عن الإثارة لذاتها،

ومخاطبة عقول الشباب.

استخلاصات :

وختاماً لهذه الخاطرة التى لا تدعى لنفسها أى مسموح علمية أو استقصائية، فإن ما أثارته يؤكد أهمية دراسة أكثر عمقاً للموضوع، ومن جهتى فإننى أستطيع أن أشير إلى الاستخلاصات التالية:

* أن هذا النوع من البرامج السياسية الحوارية فشل فى اجتذاب القطاع الأهم فى مجتمعنا العربى، وهو القطاع الذى سيتولى قيادة المستقبل.

* أن الشباب العربى غائب أو مغيب، بفعله أو بفعل أجهزة قادرة، وأن ثقافته السياسية لا تعدو الانفعال العاطفى الطارئ (الذى قد تثيره بعض البرامج المذكورة).

* أن طبيعة أجهزة الإعلام نفسها، فضلاً عن إمكانيات العاملين فيها، قد أثرت كثيراً على مصداقيتها لدى المتلقى، وخاصة الأجيال الشابة منه.

* أن التليفزيون لا يمكنه أن يقدم ثقافة سياسية حقيقية، بل إن دوره تكميلى لثقافة بنائية فى البيت والمدرسة والحزب والصحيفة.

* أن الدور الذى تقوم به أغلب الفضائيات العربية قد لا يزيد على «وظيفة تفريغية»، أو السلك الأرضى الذى يفرغ الشحنة الزائدة أو يملأ العقل بزحام من الفراغ.

* أن هذا الدور قد يعزى إليه الاستقرار، ولكنه لا يقدم مساعدة حقيقية فى بناء المستقبل.

* أن هناك حاجة حقيقية لإعادة النظر فى برامج الثقافة السياسية بحيث تكون ذات أثر إيجابى فى مخاطبة الشباب.

تنويعات
على لحن «أنفلونزا الطيور»

اعتدت أن أتابعهما كل صباح: يمامة وهدهد، سكنا شجرة فى منزلى دون استئذان، وباضا وأفرخا وأنتجا قبيلة صغيرة من ذوات الأجنحة.. كانوا منحة إلهية، لأن زوجتى تحب الطيور، وكانت تلح فى اقتناء بعضها، ولكننى كنت لا أطيق رؤية طائر فى قفص..

ويبدو أن وجود هذه الطيور قد شجع عشرات من العصافير متعددة الأشكال والألوان أن تنضم إليها، وهكذا صارت لدينا بمرور الوقت أسراب من ذوى الأجنحة ليس لنا عليها أى سلطان، تمرح وتزقزق، تنقر وتعشش، وفى بعض الأحيان يتجرأ واحد منها فيدلف إلى داخل البيت، وما أن يدرك صرامة الجدران واختفاء الأفق المنطلق المنداح حتى يبدأ فى الدوران بعصبية بحثاً عن مخرج، وطفلتى تحاول أن تدله علي الباب والنافذة، وهى تشير بأصابعها الصغيرة هاتفة: «أخرج ياعصفور»!!.. هى تعرف جيداً أن ثمة علاقة بين الحرية والطيران، بين الحرية والقدرة على الفعل

والتغريد.. أن الجدران عذاب الروح الوثابة حتي ولو كانت من ذهب.

مدخل جمالى:

مـا إن انتـشـرت أخـبـار «إنفلونزا الطيـور» حـتـي بدأت مشـاعر الريبـة تتملكنا تجاه ضيـوفنا من ذوى الأجنحـة، ولم أعـرف كـيف يمكن أن أوضح لطفلتى أن مـصـدر إلهـامـهـا وسـعـادتـهـا قد أصـبح مـصـدراً لخطـر داهـم، كنت أنظر إلى تلك الطيـور البـريئـة من النافـذة وكـأننى أفـتش فـيـمـا بينـهـا عن المريض الذي قد يمثل التهديد، بينما اقترح حـارس المنزل أن نزمع فـوراً فى هدم أعشـاش هذه الطيـور، فـتـعـترض طـفلتى قائلة بإستعطاف: «لماذا لا نقدم لها الدواء»؟!..

اللوحـة الجميلة التى كـانت تزين أشـجـارنا وتمتـع أنظارنـا، أصبحت فجأة سهاماً طائرة لا نعلم أيها سوف ينطلق نـحـونـا، وتذكـرت دموعي في طفـولتـى عندما رأيت جثة عـصـفـور صـغـير مثل عندى وقتهـا كل العصافير التى كنت أحبها، ووقفت أمام جثـمـانه حـزيناً غـاضـبـاً من أقـرانى الصـغـار الذين كـانوا يطاردون العـصـافـيـر ببنـادقـهم الرش، مـتـسـائلاً كـيف يسـمـح الآباء بكل هذه القـسـوة غـيـر المبـررة، ومـا هـي جـريرة تلك الكائنات الرقيقة حتى تصير محلاً لهذا اللهو القاتل.

حوار مع الهدهد:

وقف الهدد أمامى مباشرة هذا الصباح، شعرت بشكل ما أنه حفيد هدد «سليمان»، وكأنه يريد أن ينقل لى رسالة، لم يكن يهتز أو تبدو منه بادرة لأى حركة، عيناه مسلطتان فى عينى، كأنه يقول لى إن الإنسان قد استهان بالنعم التى منحها الله له، واستباح كل المحرمات، فكان العقاب بأن يحرم من بعض هذه النعم وهى بين يديه، وحيث لم يتعظ أحد من نفس الرسالة فى مرض جنون البقر، فهاهى أنفلونزا الطيور تؤكد نفس المعنى لمن يعتبر، أمامكم الطعام ولا تجرؤون على الاقتراب منه، أنتم الذين اخترتم الموت والدمار والخراب والظلم، وألقيتم الحب والعدل والمساواة تحت أقدام غروركم، فأين المفر الآن؟، أليس ما تشكون منه هو عين خياركم، إنه الموت والخوف والهلع يطير حولكم، وينقض على مبعث بهجتكم ويقلبها غماً، وعلى منازل سروركم فيحيلها جحيماً مقيماً..

فهمت أن الهدهد الحكيم يأسى لحالنا رغم كل شىء، وهو - ضمناً - يبرئ فصيله من ذوى الأجنحة مما حاق بنا بنى الإنسان من ذوى العقول(!!).. وظنى أنه محق فيما قال، وهو إنذار حقيقى، ولنا أن نتصور الحال لو أصبح لدينا «أنفلونزا الذباب» و«أنفلونزا النمل والصراصير والباعوض».. إلخ، ماهو التهديد الذى يمكن أن تمثله قنبلة نووية أو آلاف منها

بالمقارنة إلى ذلك التهديد الطائر الزاحف المتسلل من كل صوب وحدب؟..

ولعل الهدهد قرأ ما أفكر فيه، وأراد أن يؤكد المعنى ويعمقه، فأشار بحكمة إلى أن الإيدز قد علمت بعض الناس العفة، حيث أصبحت تلك المتعة نقمة على من لا يرعوى وضوء أحمر يضاف إلى عشرات من علامات التحذير لذوى الألباب(!!)..

ولكن.. عزيزى الهدهد الأمين.. الضحايا فى الغالب الأعم هم الفقراء الكادحون المعدمون، وسواء كان الحال جنون بقر أو جنون بشر، أما الأقوياء الأغنياء الطغاة فهم فى مأمن فى كل الحالات، المال والسلطان صنوان فى صناعة الاستبداد والفساد، وهما العاصم المانع من العقاب، الفقير الذى لا يملك سوى دواجنه فى فناء البيت لن يفرط فى ريشة واحدة لدجاجة حتى ولو حملت الموت المحقق، وربما لا يعلم ما يعلمه الآخرون عن تلك المخاطر، فهو مهموم جداً، مشغول جداً بقضية وجوده بالشكل الذي يجعله لا يلتفت إلى ما يقال، إن وجوده ووجود أسرته يرتبط بوجود هذه الدجاجة التى تمنح أطفاله البيض، وقد تمنحهم البروتين الوحيد الذى يمكنهم الحصول عليه، أو بعض القروش المعدودة إذا بيعت فى

الاسواق، إن هذا الفقير ضحية المال والسلطان، وضحية العقاب على سفه أصحاب المال والسلطان.

تمثلت لى ابتسامة ساخرة على منقار الهدهد، وكأنه يسخر من منطقي، وكأنني سمعته يهمس لى أن الفرعون جدى.. وأنه عندما سئل لماذا تفرعن، أجاب لم يوقفنى أحد!!.. وكأنه يعيد الكرة مرة أخرى إلى ملعبى، فيحمل الفقراء بالإضافة إلى الفقر والمرض والجوع عبء مواجهة الظلم والفساد والاستبداد.. إلا أن الهدهد أنقذنى من حيرتى حين لاح عليه وكأنه يذكرنى بما كتبه يوسف إدريس عن «فقر الفكر، وفكر الفقر»، وبدا أنه يهمس بأن المثقف تاه فى التفاصيل حتى ضاعت منه رؤية المسائل الكلية، وفقد البوصلة والشعلة، أصبح إما بهلواناً يوظف عقله فى بلاط السلاطين، وإما زاهداً يكسر فى عزلته أحجار التفكير، وإما نفعياً يجتهد بعلمه فى حدود ذاته المفرطة فى أنانيتها.

وتريات الفقر:

لو وجد الفقير عدلاً وحباً لما عانق الموت اختياراً وانتحاراً لما حرصت هذه السيدة البسيطة على إخفاء دجاجاتها المريضة، رغم علمها بالمصير، وماتت دون أن تتخلى عن آخر وكل ما تمتلكه من تراب الدنيا.. لقد غادرتنا هذه الفلاحة

الشابة وقد وصمتنا جميعاً بالعجز والأنانية وضيق الأفق، ويعلم الله كم عانت فى أيامها الأخيرة وهى تراقب دجاجاتها تتساقط الواحدة تلو الأخرى، وتشعر بالقهر لحرمان أطفالها من تلك الثروة التى كم حافظت عليها، ورغم ما قيل عن أخطار اقتناء الطيور الداجنة فى المنازل، ورغم التهديد بالعقوبات والغرامات، إلا أنها لم تعبأ بكل ذلك، ولعلها قالت لنفسها في بساطة إنه الموت في كل الحالات، وربما عقدت مقارنة بين غرامة قد تتكبدها وبين مصدر طعامها وطعام أطفالها، فهى تعلم أن الذين طلبوا منها إعدام دجاجاتها لم يفكروا فى بديل لها أو لأسرتها، ولذلك قررت المقاومة وإلى آخر رمق من حياتها، ولم يعد لأطفالها حتى تلك الدجاجات التى حوطت أمهم عليها إلى النهاية.

أومأ الهدهد فى أسى متدبراً فى حالة المثقف التى اقتصرت على التشخيص والشكوى والنحيب، رغم أن المسألة أشد يسراً من الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف الملك، هى فى حدود الممكن إذا خلع المرء رداء الذات الحديدى، إذا تحرر من قفصه المنفرد، إذا تعلم أنه ضمن سرب يتبادل أفراده التقاط الجزئيات لبناء عش الوطن الذى يحتوى الجميع.. لعله يسألنى فى تلك اللحظة عن عدد من قتلتهم أنفلونزا الطيور على مستوى العالم وعلى مدى شهور ممتدة.

مقارنة بعدد من يقتلون كل يوم فى العراق وفلسطين؟.. لعله يسخر من خوفى المبالغ فيه من فيروس لا يرى بالعين المجردة، بينما لا أبالى بأطنان مخزنة من أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تمحي الكون كله نتيجة لمجرد خطأ فى الحساب أو إهمال فى الصيانة.

عزيزى الهدهد الحكيم.. أنت وقبيلتك من ذوى الأجنحة تحملون خطراً محتملاً، ولكنه خطر يحلق أمام عينى كل يوم، أما الأخطار التى تحدثنى عنها فلا أراها رأى العين، وتلك هى طاقة إنسان العصر الحديث، فهو لا يهتم إلا بما يمس جلده مباشرة، ولايشعر بالحريق إلا إذا أمسك بطرف جلبابه، وربما أنت محق فى وصف بنى البشر بقصر النظر، ولكننا لا نفكر فى الدواء إلا بعد استفحال الداء، لا يوفر لنا إيقاع الحياة السريع سوى تلك النظرة المتعجلة، فالجميع وكأنهم فى سباق ماراثونى يتدافعون بالأكتاف دون أن يبالوا بمن يسقط تحت الأقدام، وسوف يبقى من يمتلك ثمن دواء الإنفلونزا، أما غيرهم فسوف يسقطون مع الطيور.

أولانى الهدهد ظهره، رفرف بجناحيه وطار، وخلفه حلقت عشرات الطيور، ليرسموا فى الفضاء لوحة بديعة ولكنها مليئة بالشك والخوف والتوتر، إنها هى نفسها لوحة الحياة..

جيفارا.. مات!

لا أدرى لماذا أستحضرت تلك الصورة البعيدة فى هذا التوقيت؟.. إن الذاكرة لها ألاعيبها غير المفهومة أحياناً، ولكننى أثق فى أن ذاكرتى تستدعى من مخازنها المكتظة بالأحداث والصور القديمة ما تثيره الأحداث والصور المعاصرة.. إنها لحظة مزج عبقرية لا يجد الكاتب حيالها سوى الاستسلام ومحاولة استخلاص الحكمة أو الحقيقة أو العبرة..

لم أكن قد تخلصت من صدمة نكسة يونيو، حتى علمت أن «جيفارا.. مات»، سقط فى أحراش بوليفيا يوم التاسع من أكتوبر عام ١٩٧٧ .. كم كان ذلك العام كئيباً فى عمرى بل وعمر الملايين.

كيف مات المناضل الذى سحر شباب الستينيات، ولا يزال سحره سارى المفعول حتى الآن، ولكن هناك فارق كبير بين سحره آنذاك والآن، ففى الأولى كان «أرنستو تشى جيفارا» يمثل أحد طلائع ثوار العالم الثالث الذينا نقضوا على بقايا معاقل الاستعمار القديم والتبعية والإستغلال، وكنا فى عمر

الصبا نسير في مظاهرات تهتف بأولئك الذين انتصروا على المستبد الظالم باتيستا، وتحدوا العم سام الذى تنام جزيرتهم الصغيرة على كتفه الهائل، كى يحولوا تلك الجزيرة مع مرتع للبغاء والقمار إلى نبضة دافقة اهتزت لها جدران البيت الأبيض.. أتذكر أننا كنا نحمل صورهم «فيدل كاسترو» و«تشى جيفارا» فى قلوبنا وليس كما يحمله بعض شباب اليوم مجرد طباعة على الفانلات والحقائب، وأتذكر زيارته إلى مصر فى منتصف الستينيات وحديثه المتفائل عن الأمل فى مستقبل الشعوب المقهورة..

لقد قتله الجنود البوليفيون الذين قامت القوات الخاصة الأمريكية (البيريهاتى الخضراء)، والمخابرات المركزية الأمريكية بتدريبهم وإمدادهم بالمعدات والأسلحة. ولقد ظلت مسألة موته غامضة ومحيرة لسنوات عديدة، حتى كشفت بعض الوثائق الأمريكية التى تم الإفراج عنها مؤخراً عن جوانب كثيرة لظروف المعارك التى خاضها فى بوليفيا، وقصة أسره، وإعدامه ودفنه، ومن المتصور أنه لا يزال هناك الكثير من الخفايا التى ستتضح فيما بعد، إلا أن الذى اتضح حتى الآن يفضح ذلك الزمن الكالح، ويوضح الظروف التى كان ثوار تلك الفترة الساخنة يناضلون فيها، ويعانون من ضربات تم إعدادها بدقة علمية متفوقة فى عاصمة الحرية الأولى..

واشنطن.

بعض وثائق الجريمة:

فيما يلي بعض ما نشر من مذكرة للتفاهم بين الجيش الأمريكي والجيش البوليفي بشأن تفعيل وتنظيم وتدريب الكتيبة الثانية في الجيش البوليفي: ٢٨ إبريل عام ١٩٦٧:

هذه المذكر كتبها قائد المجموعة العسكرية الأمريكية في بوليفيا، ووقعها من الطرف الثاني قائد القوات المسلحة البوليفية، وهي التي شكلت الكتيبة الثانية للقوات الخاصة (رينجر) لمطاردة عصابة تشي جيفارا.

وحددت المذكرة مهمة ١٦ عضواً من فريق البيريهات الخضراء الأمريكية، وهي القوات الخاصة من الفرقة الثامنة للقوات الخاصة في الجيش الأمريكي في مركز القيادة الجنوبي ببنما، بأن تكون مهمتها «خلق قوة تدخل سريعة قادرة على الأعمال المضادة لحرب العصابات، وقادرة إلى درجة أنه في أربعة أشهر من التدريب المكثف يمكن استيعابها بواسطة أفراد من القوات المسلحة البوليفية».

وفي أكتوبر تمكنت الكتيبة الثانية بمساعدة أفراد من الجيش والمخابرات الأمريكية من الاشتباك وأسر مجموعة تشي جيفارا الصغيرة من المتمردين.

مقدمة: استناداً إلى تبادل الخطابات الموقعة في لاباز

(ملحق أ) فى ٢٦ إبريل عام ١٩٦٢ . فإن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية توافق على تزويد حكومة بوليفيا بوسائل دفاع وخدمات دفاعية للأمن الداخلى، طبقاً لقانون المساعدات الخارجية لعام ١٩٦١ .

برقيات إلى الرئيس الأمريكى:

مذكرة:

البيت الأبيض

واشنطن

الاثنين ٩ أكتوبر عام ١٩٦٧ الساعة ١٠ :٦ مساء

السيد الرئيس «جونسون»

إن المعلومات الأولية التى تفيد بأن البوليفيين قد تمكنوا من «تشى جيفارا» سوف تهمك. أنها غير مؤكدة بعد. إن الوحدة البوليفية التى قامت بالاشتباك هى الوحدة التى قمنا بتدريبها لبعض الوقت، ودخلت لتوها إلى ميدان العمل.

١ – فى الساعة ١٠:٠٠ صباحاً يوم التاسع من أكتوبر قام الرئيس بارينتوس بإخطار مجموعة من الصحفيين بأن جيفارا مات، ولكن ذلك ليس للنشر حتى إخطار آخر.

٢ – لا توجد أية تأكيدات أو تفاصيل حتى الآن».

«بريزنسيا ذكرت فى ٩ أكتوبر أنه تم القبض على «تشى» جيفارا. وعلم أن رجال حرب العصابات فقدوا ثلاثة قتلى

واثنان أصيبا بإصابات خطيرة وتم القبض عليهما، وكان «تشي» أحدهما بعد قتال استمر لمدة ست ساعات في ٨ أكتوبر مع الوحدة رقم ٢ رينجرز، في منطقة تبعد سبعة كيلو مترات عن إجويرا . كانت خسائر القوات المسلحة البوليفية موت اثنين وإصابة أربعة. وقد علم أن الجنرال أوفاندو سوف يتجه إلى «فيليا جراندي» اليوم على رأس فريق تحقيق بغرض التعرف على رجال حرب العصابات الموتى والأسرى .

«تعليق : هذا يؤكد اعتقاد القوات المسلحة البوليفية أن «تشي» جيفارا كان قبل ذلك لديه إصابة خطيرة أو مريض وبين الأسرى . ومن المعتقد أنه يوجد كوبيون بين القتلى «أنتونيو» و «أرتورو» ، لم يتم التعرف عليهما بأكثر من ذلك. ويقال إنه من بين الأسرى البوليفي» ويلي (ويعرف بأنه سيمون كوبا) . ونظراً لقدوم المساء ، فإن إخلاء الموتى والمصابين من رجال حرب العصابات تم تأجيله حتى صباح ٩ أكتوبر . وتعتقد القوات المسلحة البوليفية أن «الرينجرز» قد حاصرت قوات حرب العصابات، ومن المتوقع القضاء عليهم قريباً .

التوقيع : والت روستو (مستشار الرئيس جونسون) .

البيت الأبيض

واشنطن

١٠ أكتوبر ١٩٦٧

مذكرة إلى ولت روستو

والت ....

(جزء محذوف) لا يوجد تأكيد عما إذا كان تشى جيفارا كان بين خسائر اشتباك يوم ٨ أكتوبر.

(جزء محذوف) إنهم يميلون إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد أى رجل عصابات على قيد الحياة. فى ظهر أمس ، ظنوا أن اثنين كانا قد أصيبا بإصابات خطيرة ولكنهما على قيد الحياة. أحدهما ربما يكون تشى.

(جزء كبير محذوف)

التوقيع دبليو جيه باودلر (وليم باودلر).

مذكرة

البيت الأبيض

واشنطن

الأربعاء ١٠:٣٠ صباحاً

١١ أكتوبر ١٩٦٧

مذكرة للرئيس

الموضوع : موت «تشى» جيفارا.

هذا الصباح نحن متأكدون بنسبة ٩٩٪ أن «تشى» جيفارا قد مات . (جزء كبير محذوف) ، إنهم سوف يحضرون إلى

واشنطن اليوم أو غداً (هل هم فرقة الرينجرز الأمريكية؟).
تخبرنا وكالة المخابرات الأمريكية أن آخر المعلومات تفيد أن جيفارا قد تم أخذه حياً، وبعد تحقيق قصير للتأكد من هويته ، أمر الجنرال أوفاندو رئيس أركان القوات المسلحة البوليفية أن يتم إطلاق النار عليه. وأنا أعتبر ذلك غباء ، ولكنه مفهوم من وجهة النظر البوليفية، إذا أخذ في الاعتبار المشاكل التى نجمت عن تخيلهم عن الشيوعى الفرنسى ورسول كاسترو ريجيه ديبراى.

إن موت جيفارا يحمل المعانى التالية :

إنه يؤشر نهاية واحد آخر من أولئك الثوريين العاطفيين العدائيين أمثال سوكارنو ونكروما وبن بيللا .. ويؤكد هذا الاتجاه.

وفى إطار أمريكا اللاتينية ، فإن ذلك سوف يحمل أثراً قوياً فى إخافة أولئك الذين قد يصبحون رجال حرب عصابات.

إن ذلك يظهر سلامة «دوائنا الوقائى» المساعد الذي نقدمه للبلاد التى تواجه عصيانا داخليا.. لقد كانت الكتيبة رقم ٢ البوليفية من الرينجرز التى تم تدريبها بواسطة قواتنا من البيريهات الخضر من يونيو إلى سبتمبر من هذا العام، هى

التى حاصرتهم وأمسكت به .

لقد أرسلنا هذه النقاط إلى العديد من رجال الإعلام.

التوقيع : رستو

البيت الأبيض

واشنطن

الجمعة - ٤:٠٠ بعد الظهر

١٣ أكتوبر ١٩٦٧

السيد الرئيس

(جزء كبير محذوف) وهذا يزيل أى شك فى أن «تشى» «جيفارا» قد مات .

التوقيع : روستو

اعترافات أحد العملاء :

أقوال فيلكس رودريجيز التى أخذت بواسطة وكالة المخابرات المركزية فى ٣ يونيو ١٩٧٥ :

عندما تم إعدام تشى جيفارا فى لا إجويرا، حضر عملية الإعدام أحد العاملين فى وكالة المخابرات المركزية، وهو أمريكى من أصل كوبى يحمل اسما للعمليات هو فيلكس رودريجز . وقد استخدم إسما كودياً «فيلكس راموز» فى بوليفيا وأخذ غطاء ضابط بالجيش البوليفى . تم استجوابه بشكل سرى حول دوره وذلك فى مكتب المفتش العام لوكالة

المخابرات المركزية في يونيو ١٩٧٥ (حيث إنه خلال ذلك الوقت كانت الوكالة محاصرة بتحقيقات فى الكونجرس حول عمليات الاغتيال ضد القادة الأجانب).

وهذا الاستجواب موجود في ملف تحت عنوان «فيلكس رودريجز» ، ويتضمن تفاصيل عن مهمته في بوليفيا حيث أرسلته الوكالة إلى بوليفيا ومعه عميل أمريكى آخر من أصل كوبى اسمه «جوستافو فيليوبو» للمساعدة فى القبض على جيفارا والقضاء على عصابته المسلحة . وأصبح الاثنان جزءاً من قوة وكالة المخابرات المركزية في بوليفيا والتى اشتملت على ضابط الموضوع للعمليات «جيم» ، وأمريكيا آخر من أصل كوبى اسمه» ماريو أوزيرس ريفيرون» ، وعميلين للقيام بمهمة الاتصال فى سانتا كلارا.

ظهر رودريجيز كأهم عضو فى المجموعة ، فبعد استجواب طويل قام به لأحد الأسرى من حرب العصابات ، قام بتوجيه الكتيبة الثانية للرينجرز كى تركز جهودها فى منطقة فيلياجراندى حيث كان يعتقد أن متمردى جيفارا كانوا يعملون . ورغم أنه كان تحت تعليمات مشددة من الوكالة بأن «يفعل كل ما فى وسعه للإبقاء عليه حيا» . فإن رودريجيز أرسل إشارة الأمر بإعدام جيفارا من القيادة العليا البوليفية إلى الجنود فى لا إجويراز .. كما أنه وجههم بأن لا يطلقوا

النار على وجه جيفارا حتى تبدو إصاباته وكأنها ترتبت على الاشتباك ، كما أنه أخبر «تشى» بنفسه بأنه سوف يقتل ، وبعد الإعدام أخذ رودريجيز ساعة اليد التى تخص جيفارا ماركة روليكس ، والتى كان يستعرضها أمام الصحفيين فى فخر بعد ذلك بسنوات.

والوثيقة تم الإفراج عنها عام ١٩٩٣ وهى كما يلى:

٣ يونيو ١٩٧٥

مذكرة إلى : نائب المفتش العام.

الموضوع : إفادة قدمها (جزء محذوف) تتعلق بمهمته فى بوليفيا عام ١٩٦٧ ، ودوره فى القبض على أرنستو «تشى» جيفارا.

المرجع : مذكرة بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٧٥.

١ - الموقع أدناه التقى مع (جزء محذوف) الموظف المتعاقد ، فى يومى ٢ ، ٣ يونيو للحصول على روايته حول مهمته فى بوليفيا عام ١٩٦٧. هذا التحقيق يستند إلى المقابلات المشار إليها . والتى أشار (جزء محذوف) خلالها أنه أرسل إشارة بأمر من الكولونيل (جزء محذوف) قائد الفرقة الثامنة بالجيش البوليفى إلى رقيب بوليفى، وترتب عليها إعدام أرنستو «تشى» جيفارا دى لاسيرنا» ، القائد الكوبى لرجال حرب العصابات التى كانت تعمل آنذاك فى بوليفيا.

٢ - (جزء محذوف) قال إن مهمته تم تحديدها بعد مقابلة في ميامي في يونيو أو يوليو ١٩٦٧ ، وكان آنذاك يعمل كضابط موضوع في مكتب ميامي. تم إختياره لحضور المقابلة للوظيفة لما لديه من خبرات تدريبية وتجارب في حرب العصابات . ولقد سئل عما إذا كان يقبل العمل مع (جزء محذوف) وهو شخص كوبي، وقد وافق. وقيل له إن عليه أن يتجه إلى بوليفيا مع (جزء محذوف) حيث يشارك في تدريب فرق المخابرات للكتيبة الثانية رينجرز من الفرقة الثامنة البوليفية ، وقيل له أيضاً إنه ومعه (جزء محذوف) سوف يتم تعيينهما في الكتيبة الثانية رينجرز كمستشارين ويتمركزان في مدينة «إسبيرانسا» ، وبينما كان لا يزال في ميامي ، ومعه (جزء محذوف) تلقيا تلخيصا حول الأوضاع السياسية في بوليفيا وحرب العصابات هناك، وتم إعطاؤه دورة تنشيطية في الاتصالات . (جزء محذوف) و (جزء محذوف) قيل لهما أن هناك مؤشرات قوية أن جيفارا كان يقود رجال حرب العصابات ، ومن بين التعليمات التي أعطيت لهما، كان أحدهما في منتهي الوضوح بأنه في حالة قيام الجيش البوليفي بأسر جيفارا ، فإنه يجب عليهما أن يفعلا كل ما في وسعهما للإبقاء عليه حياً.

٣ - تم تقديمهما إلى ضابط الموضوع الذي سيعملان معه

في المستقبل في واشنطن ، وهو الذى كان سيقوم بدور ضابط الاتصال مع القوات البوليفية فى سانتا كروز.

٤ - قبل مغادرتهما كل من (جزء محذوف) و (جزء محذوف) تم منحهما تصريحاً مزيفاً للدخول بأسماء (محذوف) و(محذوف) على التوالى . وتم استلامها فى نيويورك قبل مغادرتهما مباشرة فى ٣٠ يوليو إلى لاباز على الخطوط الجوية برانيف . وقد سبقهما ضابط الحالة وقابلهما يوم ٣١ يوليو فى السابعة صباحا فى مطار لا باز (جزء محذوف) يعتقد أن التأشيرة البوليفية كانت مدموغة على تصاريح العودة الخاصة بهما.

٥ - أخذهما ضابط الحالة ومعه أمريكى آخر لمقابلة (جزء محذوف) حيث تم تقديمهما باعتبارهما خبراء فى حرب العصابات ، وقدم لكل منهما كارتاً شخصياً كتب عليه بخط يده إلى كل السلطات المدنية والعسكرية بتقديم كل الدعم لهما. وفى العاشرة من صباح نفس اليوم ، قابلا (جزء محذوف) رئيس أركان حرب القوات المسلحة البوليفية. وبعد شهر كامل تقريباً التقى (محذوف) مع (محذوف) فى سانتا كروز ، وبينما كانا لا يزالان فى لاباز ، لم تصدر لهما أية تعليمات جديدة حول المهمة، وبعد أسبوع تم نقلهما بالجو إلى سانتا كروز دى لا سييرا لعدة أيام وتم تقديمهما إلى

الكولونيل (محنوف) قائد الفرقة الثامن . (محنوف) قام من أجل (محنوف) بترتيب الضباط الأمريكيين المسئولين عن البعثة العسكرية التدريبية التي تقوم بتدريب الكتيبة الثانية رينجرز ، كي يحضروا إلى سانتا كروز لمقابلة (محنوف) و (محنوف) ، وتم تقديمهم أيضاً إلى الرائد (محنوف) من الفرقة الثامنة . بعد ٣ أو ٤ أيام في سانتا كروز ، ذهب كل من (محنوف) و (محنوف) إلى لا إسبيرانسا ، حيث عسكرا في مبنى الضباط البوليفيين ، وفي لا إسبيرانسا قابلا (محنوف) قائد الكتيبة الثانية رينجرز والكابتن (محنوف).

٦ – قبل مغادرتهما لاباز تسلم كل من (محنوف) و (محنوف) ملابس عسكرية بوليفية وبطاقات تشير إلى أن كلاً منهما نقيب في الجيش البوليفي. ومع ذلك لم يتم تسليمهما علامة الجيش البوليفي . بعد ذلك قام (محنوف) بإعطاء (محنوف) العلامة البوليفية ذات الثلاثة ألوان لغطاء الرأس الذي أرتداه . كما تم تسليم كل من (محنوف) و (محنوف) مسدس سميث آند ويسون آلي. وخلال أنشطتهما كموجهين ومستشارين اتخذا هيئة ضباط بوليفيين، ومع ذلك كانوا معروفين كمستشارين أجانب لبعض الضباط البوليفيين . قال (محنوف) إنه علم فيما بعد أن السفير الأمريكي قد منع أي

فرد باستثنائه ومعه (محنوف) من التعامل مع الأنشطة المضادة لحرب العصابات في الميدان.

٧ – ورغم مظهريهما كضباط بوليفيين ، فإن (محنوف) يقول إنهما لم يتلقيا أى أوامر من ضباط أعلى فى الجيش البوليفى – باستثناء مرة أصدر فيها الكولونيل (محذوف) أمراً إلى (محنوف) فى يوم إعدام جيفارا، هذا إذا كان يمكن تصديق رواية (محنوف).

٨ – تم تعيين (محنوف) فى سانتا كروز، بينما تم تعيين (محنوف) فى لا إسبيرانسا، حيث قام الأخير بإجراء أغلب تدريبات المخابرات. وبمرور الوقت أصبحت مهام (محنوف) مجرد مستشار . وقالت إن ضابط الحالة الذى يتبع له كان يعرف هذا التطور ويوافق عليه . وكان من بين المهام التى حاول (محنوف) و (محنوف) القيام بها ، هى مهمة المحافظة على حياة رجال حرب العصابات الذين يتم أسرهم ، وذلك لجمع معلومات حول أماكن تواجد رجال حرب العصابات ، وكذلك لأسباب إنسانية . وقال (محنوف) إنه أنقذ حياة «كاستيليو تشافيز» ، وسافر لهذا الغرض من سانتا كروز إلى فيلياجراندى، حيث تحدث باختصار إلى كاستيليو فى مستشفى «نويسترا سيثيورا دى مالتا» ، وخلال ذلك عام (محنوف) بنية (محنوف) من الرينجرز لإعدام الأسير . وقد

نجح (مــحــنوف) فى إقناع الرائد (مــحــنوف) و (مــحــنوف) لاتخاذ جانبه . وتم حمل الأسير بالطائرة إلى فيلياجراندى حيث قام (مــحــنوف) بتغطية كل تكاليف العلاج، وأجرى استجواباً لمدة أسبوعين. ونتج عن ذلك إحدى وعشرون صفحة من تقرير الاستجواب ، الذى أعطى للبوليفيين مفهوماً كاملاً عن استراتيجية حرب العصابات ، وأصبح المفتاح إلى القبض على جيفارا ، وطبقاً لما قاله (محنوف) فإن هذا التقرير نسبه البوليفيون إلى رجالهم ....

جيفارا مات .. وعاش العملاء:

لا أعتقد أن المهم هو ما الذى كان يمثله «تشى جيفارا» أو رأينا الشخصى فيه، ولكن المهم هو إدراك أن ما يحدث الآن - ويندهش البعض له - هو حدث قديم جديد، فالمسألة ليست بناء الديمقراطية أو صيانة حقوق الإنسان ، وإنما بناء العملاء وصيانة المصالح الأجنبية ، وبطبيعة الحال يتم بناء العميل كى يؤدى وظيفته بأشكال عديدة ، وحين تكون الوظيفة هى اغتيال عقل أمة ، فإن العميل يكون مثقفا تم إعداده فى معاهد علمية ذات سمعة كبيرة، ويبيع بضاعته تحت اسم الوطنية والديمقراطية والعولمة ، وسوف نجد العشرات بل والمئات فى أعمدة الصحف ومحطات الفضائيات وأروقة الجامعات والمنتديات ، ينتشرون كالسرطان تحت يافطة «المجتمع

موت الحياء ...!!

«إذا لم تستح، فافعل ما شئت» .. عبارة تلخص معنى ارتباط «انعدام الحياء» بـ «الإباحة المطلقة»، ولكنها تعنى إنهيار القيم وتدهور الذوق وانحلال الضوابط.. حالة من الضياع تلف جماعة بشرية، فقدت حياءها واستحلت لنفسها أن تفعل ما تشاء ...

والحياء يمكن تعريفه بأنه التعفف عن الإتيان بالتصرفات المشينة، وتكون التصرفات كذلك إذا كانت مدرجة تحت هذه الصفة فى قاموس السلوك لجماعة بشرية ما، فكما يقول الفقهاء : «الأصل فى الأمور الإباحة»، أى أن الإنسان لديه ميل وشهوة دافقة للاغتراف من كل شئ ، دون ضابط أو رابط، ولا يحده فى ذلك سوى نص أو عرف، فأغلب الناس تفضل لو أن الشوارع لا تجدها إشارات للمرور، أو إذا كانت تلك الإشارة خضراء طوال الوقت، ولكنهم يضطرون للتوقف أمام الإشارة الحمراء ، خوفاً من جندى المرور، أو بالأحرى نص قانون المرور، فهم يقبلون بقيد على حريتهم يتمثل فى نص مكتوب يعتبر بمثابة عقد اجتماعى يلتزم به الجميع طواعية أو قهراً ...

فإذا قام شخص بكسر إشارة المرور الحمراء ، وإذا تم

ذلك دون مخافة من العقاب أو استهانة بهذا العقاب، فإن النص الذي يحدد المخالفة يصبح نصاً ميتاً، بل والأخطر من ذلك أنه يلقي بالشك على أي نص آخر ، وهكذا يصبح العقد الاجتماعي مجرد ورقة لا قيمة لها، واذا كان الأمر كذلك فإن هذا المجتمع يصبح بلا رابط أو ضابط ، يستحل فيه كل فرد أن يفعل ما شاء متى شاء، أي يصبح بلا حياء طبقاً للحكمة العربية القديمة، ولكن هل يصح هذا الوصف حقاً لنوع من السلوك أصبح في حد ذاته عرفاً متبعاً ؟؟..

إذا شاعت الرشوة وأصبحت سلوكاً يومياً يتبع بلا خجل أو اعتذار أو خوف، وإذا انتشرت الألفاظ البذيئة وصارت نوعاً من التفكه والمعاصرة، وإذا أصبحت المحسوبية والواسطة هي الطريق المأمون المضمون لنيل الحظوة والمكانة، وإذا صار النفاق وسيلة المشتاق للصعود إلى المناصب.. إذا أصبحت تلك السلوكيات مقبولة لا يرى فيها الناس غضاضة، هل يمكن لأحد أن يدعي أنها «قلة حياء» ؟!.. ألا تصبح تلك السلوكيات «المرفوضة» جزءاً من العرف السائد المرعي، أو قواعد العقد الاجتماعي السارية ؟!..

إذا صح الإستنتاج السابق ، وكان الذي لا يستحي هو ذلك الشخص الذي يسلك سلوكاً مغايراً للسلوك المعتمد

القائم، فإن الشخص الذى يحترم إشارة المرور يعد فى هذا الإطار بلا حياء ، وكذلك الذى يرفض تقديم الرشوة أو أخذها، ويصبح الرجل الذى ينصح أولاده بالصدق فى التعامل والشرف رجلاً قليل الحياء والأدب !!..

من الإنصاف أن نخفف العبء على ضمائر الناس المعذبة، أولئك الذين يقطعون نصف الطريق ما بين الحياء و«عدم الحياء» ، فهم منافقون ولكنهم ينتقدون النفاق، وهم يسرقون ويهاجمون اللصوص ، وهم يلجأون إلى كل وسائل الواسطة والمحسوبية والرشوة بينما يجأرون بالشكوى من تفشى هذه الوسائل.. ومن العدل أن نعيد التوازن إلى هذه النفوس المعذبة، بأن نوضح لهم أن سلوكهم الذى يتوارون منه هو السلوك الاجتماعى السائد، أى أنه سلوك محمود، وهم ليسوا فى حاجة للانفصام ما بين فعلهم وقولهم، ففى زمن مثل هذا لا ينبغى لفاسد أن يخجل من فساده وإفساده، بل عليه أن يظهره إظهاراً ويتباهى به أيما تباه ، لأنه «إن لم يكن ذئباً لأكلته الذئاب» .. !!

ولعل مثلاً شعبياً آخر يؤكد الاستنتاج السابق، إذ يقول: «اللى استحوا ماتوا» ، ويقال أن أساسه التاريخى يرجع إلى حريق شب فى حمام من الحمامات الشعبية فى اليوم

المخصص لاستحمام النساء، فأما النساء اللاتى خرجن مسرعات عاريات خوفاً من الحريق فقد نجون ، أما اللاتى كان لديهن حياء فقد متن احتراقاً.. ولعل ما يمكن استنتاجه من هذا المثل الفصيح هو أنه في لحظات الخطر والخوف والغموض، يكون الحياء معادلاً للموت، فليس هناك مساحة متاحة لأى حياء فى زمن بلا حياء...

وقد يفسر ذلك كثيراً من المظاهر فى السياسة الدولية الحالية، فالسلوك الدولى أشبه ما يكون بخروج سافر ليس فقط على القواعد القانونية التى تعارف عليها المجتمع الدولى، بل حتى على قواعد الأخلاق التى تعارفت البشرية على حدودها الدنيا ، فأصبحت قاعدة «سيادة الدول» مثلاً فى مهب الريح، وفقد مبدأ «عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول» معناه، بل أصبحت القاعدة هى العكس تماماً، والمعيار هو القوة المجردة، فمن يمتلك القوة يمتلك معها حق التصرف المطلق فى حقوق الآخرين، وليس مدهشاً أن هناك تسليماً بهذا الوضع الجديد، ولعل ذلك يؤكد مرة أخرى صدق استخلاصاتنا السابقة..

خيانة الوطن صار لها اسم آخر مثل «مساعدة الأجنبى على تخليص الوطن من الاستبداد» ، بل وأصبحت

الجاسوسية ترتدى ملابس أنيقة وتمتهن مهناً مرموقة، فالأستاذ الجامعي الذى يقدم خلاصة أبحاثه مقابل ثمن معلوم ليستفيد بها خصوم الوطن ، هو باحث مجتهد، والصحفى الذى يبيع قلمه لأعلى سعر، هو قبلة كل الباحثين عن الكلمة الأمينة، وهكذا تتسلل مصطلحات زمن بلا حياء كى تزيح من أمامها كل رواسب الزمن الذى تعفن فيه الحياء..

عليك فقط أن تقود سيارتك فى أى شارع ، لتكتشف بنفسك المستوى الذى انحدر إليه المجتمع ، ستلتقط أذناك من الشتائم ما لا يمكن لك أن تحصيها، وسترى الشباب الواعد وهو يتسابق برعونة غير عابئ بأرواح البشر، وتلال القمامة التى تزين كل ركن وفوقها أسراب هائلة من الذباب ، سترى سيدة متأنقة يبدو عليها الثراء وتفوح منها نعمة الثقافة، لكنها لا تجد غضاضة فى أن تلقى بمنديلها الورقى من نافذة سيارتها إلى الشارع، حالة متفاقمة من انعدام الحياء.. الحياء الذى كنا نعرفه لأنه لم يعد موجوداً ...

وربما يظن البعض أن «الفن» لا يمكنه أن يسقط فى هذه الهاوية ، فهو تعبير عن أفضل ما فى الإنسان ، ولكن نظرة واحدة للأغانى التى تقفز فى كل المحطات الفضائية سوف

تؤكد أنه على رأس القائمة، فقد يمكن للفن أن يحافظ على المخزون القيمى لأمة من الأمم، ولكنه فى نفس الوقت قد يسهم إسهاماً خطيراً فى تجريف هذا المخزون بما يقدمه من ذوق منحط يدغدغ غرائز الإنسان، ويحضه على الغباء والسطحية ... والمسألة لا تقتصر على الأغانى فقط .. وإنما الفن بمفهومه الشامل ...

وقد يظن البعض الآخر أن تلك نظرة سوداوية متشائمة، وأن المسائل لا تقاس بهذه المسطرة المطلقة التى تضع معياراً يستند إلى بعض المظاهر التي لا تنفي وجود عكسها، بل إن ظهورها حتمى لأنها تناقض الوضع المستقر العام، تماماً مثلما تظهر البقعة السوداء فى الثوب الأبيض ..

وقد يرى البعض الآخر أن ما ذهبنا إليه من استخلاصات هو نتاج «النظرية المثالية» الحالمة التى كم ضيعت مجتمعاتنا العربية، ولابد من التسليم بأن خلاصنا معلق بالواقعية، وهو ما يعنى مزيداً من الخشونة المقترنة بقلة الأدب، ذلك هو الأسلوب الذى اتبعه الغرب فى بناء حضارته العظيمة، فحين أباح لنفسه استعباد شعوب أخرى ونهب ثرواتها، لم يتوقف كى يفكر فى مقدار الحياء فى أفعاله، وإنما فكر بشكل واقعى وعملى فيما يمكن أن ينجزه من أرباح مادية، إن

المغفلين وعاطلى المواهب فقط هم الذين يتوارون خلف أستار الحياء ، لأنهم لا يملكون الجرأة الكافية...

وقد لا أختلف مع كل هذه الآراء خاصة وأنها بالفعل سائدة، ولكنني لا أحترمها بالضرورة، وأظن أن أصحابها لا يعبأون بذلك ، لقد خرجوا من الحمام بالفعل عراة مفضوحين وليس لديهم ما يخفونه، إنهم يتبجحون باحتقارهم لكل مسلمات وقواعد السلوك المحترم، يخرجون ألسنتهم لمن لا يزال متمسكاً بقاموس السلوك القديم، وذلك تفسيرهم الوحيد لما يطلق عليه مصطلح «العولمة» ، حتى ليبدو أن هذا المصطلح في طبعته العربية مشتق من لفظة «العوالم» (أو راقصات شارع محمد على) ، فلقد مات الحياء منذ زمن طويل ، ولم يعد ينوى استكمال مراسم الدفن...

فى ذكرى العدوان الثلاثى

هل كانت قناة السويس كما قال البعض نقمة على المصريين ؟، مثلما يقول البعض الآخر الآن إن البترول نقمة على العرب ؟ .. ما أصعب الإجابة على مثل هذه الأسئلة فى هذا الزمن الذى اختلط فيه كل شىء، وتاهت معالم الحقائق وساد الزيف والتزييف، وتقاعست إرادة الرجال عن مجرد محاولة النهوض .. وفى حالة القعود هذه ربما تكون السلوى أن نعيد تصفح بعض أوراق التاريخ ، لعلنا نجد فيها إشارة أو علامة لطريق..

كانت قناة السويس رمزاً لكفاح الشعب المصرى منذ أن بدأ العمل فيها منذ قرن ونصف ، ولقد عبرها منذ إنشائها وحتى الآن ما يزيد على مليون سفينة ، بحمولات تصل إلى ما يزيد على ١٢ بليون طن ، وتبلغ سعة القناة الحالية ٢٥ الف سفينة سنوياً .

وقد بدأ العمل فى شق القناة فى عام ١٨٥٩ واستمر لمدة عشرة أعوام ، وقد شارك فى حفرها ما يزيد على ١,٥ مليون عامل مصرى مات منهم أثناء العمل ما يزيد على ١٢٥ ألف عامل، وقد افتتحت للملاحة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .

فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ ، وبينما كانت السكك الحديدية تعمل بشكل مربح ما بين الإسكندرية والقاهرة ، فإن حاكم مصر

الجديد وأكبر أبناء محمد على الذين كانوا على قيد الحياة ، الوالى سعيد الذى تولى الحكم بعد عباس، قام باتخاذ موقف معاكس تماماً لأسلافه، ربما أدى لتغيير مجرى التاريخ نفسه بالنسبة لمصر، فما الذى حدث، وماذا أغرى سعيد للإقدام على هذا العمل ؟

الثعلب الفرنسى :

فى أغسطس ١٨٥٤ ، كان فرديناند ديليسبس قد أصبح فى الخمسين من عمرهُ، مسئولاً فرنسياً عن إدارة بعض الأبنية ، وقبل ذلك بعامين انشغل فقط بأعمال الزراعة ، وبدا وكأنه فى نهاية حياته العملية بعد عمر أمضاه متنقلاً كقنصل لبلاده فى بلاد عديدة منها تونس ومصر وروتردام ومدغشقر وبرشلونة، ووزير مفوض فى مدريد ثم روما.

وكان أثناء خدمته فى الشرق قد نجح فى إقامة علاقات عديدة وخاصة فى مصر ، كان لا يزال يداعب حلمه فى حفر قناة تربط ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط ، ذلك الحلم الذى بدأ معه منذ عشرين عاماً عندما كان لا يزال فى مصر ، لذلك فقد أعد مشروعاً وقام بترجمته إلى اللغة العربية، وسلمه لصديقه قنصل عام هولندا فى مصر على أمل أن يتمكن من إقناع عباس باشا والى مصر آنذاك ، وحاول كذلك عن طريق السلطان فى استانبول إلا أن كل تلك المحاولات فشلت حتى

قرأ ديليسبس فى الصحف خبر وفاة الوالى عباس باشا، وصعود محمد سعيد إلى المنصب ، وأحس بأن طائر الأحلام قد وجد أخيراً شجرة يحط عليها ؛ لأن سعيد باشا كان أحد أصدقائه زمن عمله فى مصر ، فسارع بإرسال برقية تهنئة ، تلقى رداً عليها ودعوة إلى مصر ، ولم يضيع وقتاً ، حيث وصلها فى ٧ نوفمبر ١٨٥٤.

واستقبله الوالى الجديد فى الإسكندرية بترحاب كبير، واصطحبه معه فى رحلة العودة إلى القاهرة براً مع حملة عسكرية ، وأثناء تلك الرحلة بدأ ديليسبس يتحين الفرصة كى يفاتح الرجل الكبير فى مشروع حلمه الكبير، وانتظر أسبوعاً قبل أن ينطق بكلمة واحدة ، وفى إحدى وقفات القافلة لاحظ انتعاش الوالى وسعادته ، فبدأ يعرض خطته بأفكار عامة دون الدخول فى التفاصيل ، وبعد بعض الاستفسارات من الوالى ، فوجئ ديليسبس أن سعيد يقول له ببساطة : «نحن راضون ، ونقبل بخطتك ، وسوف نعالج كل التفاصيل أثناء الرحلة، ولكن عليك أن تفهم أن الموضوع متفق عليه ، وتستطيع الاعتماد على» ... وهكذا تم منح امتياز قناة السويس !!..

فى عام ١٨٥٩ بدأ العمل فى حفر القناة، وقام الوالى بتزويد صديقه بمئات الآلاف من فلاحى مصر للعمل تحت

نظام السخرة، ولكن لم تمض أعوام خمسة حتى مات الوالى الصديق، وخلفه رجل ليس مهتماً بالمشروع ، ورفض إمداده بمزيد من الفلاحين ، ولم ييأس ديليسبس فسارع يطلب مساعدة الإمبراطور نابليون من خلال معرفته بالامبراطورة ، ووافق الإمبراطور على أن يقوم بالتحكيم بينه وبين والي مصر ، حيث حكم بأن يواصل الوالى تزويد ديليسبس بالعمالة المطلوبة مقابل إعادة ترتيب الامتياز.

لقد استمر العمل في حفر قناة السويس مدة ستة عشر عاماً ، وبلغت التكلفة حوالى ١٩ مليون جنيه استرلينى ، ومات فى حفرها آلاف من المصريين.

علاقة القناة بالمكرونة:

قام الوالى سعيد بدون استشارة حكومته بمنح ذلك الرجل الفرنسى ذى الشخصية المثيرة للجدل صلاحية تكوين الشركة العالمية البحرية لقناة السويس، ولها حق حفر قناة تصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، على أرض مستأجرة على أساس امتياز لمدة ٩٩ عاماً (منذ تاريخ الافتتاح) ، بحيث إنه فى نهاية تلك الفترة ، فإن القناة بكل محتوياتها وما يحيط بها سوف تصبح ملكية مصرية.

وطبقاً لما ذكره نوبار باشا الذى كان قريباً من كل الولاة اعتباراً من محمد على إلى توفيق ، فإن ديليسبس الذى كان

يعانى من ضائقة مالية قدم إلى مصر عقب علمه بوفاة عباس وتولى سعيد على أمل أن يجد مشروعاً مربحاً ينقذه من الإفلاس ، خاصة وأنه سبق له أن تعرف على سعيد إبان عمله قنصلا لفرنسا فى الاسكندرية ، فقد كان ذلك الأمير السمين يتبع تعليمات مشددة تلزمه بنظام خاص للتخسيس ، وكان القنصل الفرنسى يسرب إليه صحون المكرونة خفية، والآن يشعر ديليسبس أنه قد آن الأوان كى يسترد ثمن هذه الصحون !!.

ويذكر نوبار فى مذكراته «أنه بينما يظن العديدون أن ديليسبس كان البادئ الأصلى لمشروع القناة ، فإن آخرين يؤكدون أنه استشار موجل بك مهندس سد النيل (القناطر) حول مدى المساعدة المالية التى يمكن لسعيد أن يقدمها ، وقد اقترح موجل عليه أن يتقدم إلى الوالى باقتراح بناء قناة تصل ما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، بينما يرى آخرون أنه لم يكن موجل بل شخصاً آخر هو لينانت بك ».

أما الرواية التى رواها ديليسبس نفسه أنه بينما كان فى الحجر الصحى بعد وصوله للاسكندرية تلقى صندوقاً مليئا بالكتب كهدية من القنصلية الفرنسية، ومنها كتاب ترير لوبيير الذى استلهم منه الفكرة ، وكان هذا الكاتب يرى استحالة حفر قناة بين البحرين لاختلاف مستوى المياه بينهما، إلا أن

ديليسبس قرر أن يدرس الاحتمالات فربما استطاع أن يثبت خطأه.

وأيا ما كان الأمر ، فإن نوبار يقول : إن شخصية الإنسان الذى توصل إلى الفكرة لم يكن لها آثار كبيرة ؛ لأنه فى النهاية تم توقيع الوثيقة التى أدت إلى حرمان أرض مصر من سيطرتها التجارية وساهمت فى دمارها السياسى، ولقد تم ذلك التوقيع بشكل سرى دون معرفة تلك العناصر التى كان يمكنها أن تمنع الكارثة آنذاك ، بل إن نوبار نفسه لم يعلم عنها سوى الشئ القليل بالمصادفة ، وقد علم به من مدرس الوالى للغة الفرنسية الذى تم ترقيته مؤخراً إلى منصب السكرتير الأميرى الخاص.

نبؤة حكماء دلفى :

تساءل نوبار لماذا لم يقم ذلك المدرس الغبى بتعليم تلميذه الذى سيصبح حاكم المستقبل، تاريخ بلاده مصر ؟ لماذا لم يجعله يقرأ الفقرة التى قال فيها هيرودوت إن الفرعون نيكاو عندما فكر فى عمل قناة للربط بين البحرين ، فإنه استشار أولاً حكماء دلفى ، وبعد ذلك تخلى عن المشروع مرة واحدة عندما تنبأ «بيتى» أن هذا العمل سوف يؤدى إلى وقوع البلاد فى أيدى الغرباء ، وبشكل آخر فإن المرء يتأمل فيما يمكن أن يكون عليه مصير مصر إذا استمر هذا الامتياز حتى ١٩٦٨،

وحيث إن أحداً من الممثلين الرئيسيين فى تلك الدراما التى استمرت لجزء كبير من هذا القرن لم يكن يتمتع ببعد النظر، فإن صحنا من الإسباجيتى سمح له بأن يدع الكرة تدور لتؤثر بعمق فى مصير البلاد».

وبمجرد توقيع الاتفاق بدأت المتاعب، فقد كان التمويل مطلوباً للبدء فى إعداد الدراسات المبدئية ، ورغم أن سعيد كانت لديه الرغبة فى تقديم بعض الأموال فى البداية ، إلا أنه كان لديه نفقات أخرى عاجلة استهلكت مصادر الثروة فى البلاد .، ولقد طلب ديليسبس من القنصلية الفرنسية التى علمت بالموضوع بشكل تقريبى ، أن تتدخل ، ولكن لم يكن لديها تفويض رسمى للمطالبة بمزيد من المساهمة المالية من نائب الأمير وفضلت أن تبتعد عن هذا الموضوع .

إن الأسلوب المخادع الذى اتبعه ديليسبس كى يرغم سعيد لدفع ما تبقى من موازنة أسهم المشروع والتى عجز عن تحصيلها فى أوروبا ، معروف بشكل جيد ، فقد اشترى الأسهم التى لم يتم بيعها والتى يقدر ثمنها بـ ٨٨ مليون فرانك فرنسى باسم سعيد دون إخطاره ، وعندما فوجئ الأخير بهذا الدين ولم يكن لديه السيولة الكافية رفض أولاً أن يدفع، إلا أنه تم التوصل إلى ترتيب معين يتم بمقتضاه تقسيم مبلغ الدين على أقساط سنوية لمدة ١٥ عاماً، وكان ذلك

مخالفة صارخة لنظام الشركة ، الذى ينص على أن كل المساهمات المالية يجب أن يتم دفعها ، وقد وضع ذلك ديليسبس فى موقف محرج تحت رحمة أصحاب الأسهم الذين اكتشفوا هذه المخالفة ، ولكنه كان متشوقاً للبدء فى العمل قبل أن تظهر صعوبات أخرى تقضى على المشروع، وأخذ على نفسه التزاماً بأن يحتفظ بموضوع المخالفة سراً، ويقال إنه أمضى ليالى بلا نوم خوفاً من عملية التزييف التى قام بها.

لم يلاحظ سعيد لفترة على الأقل أنه فى مركز الأقوى ، فلقد كان المصدر الوحيد للتمويل ، بما يمكنه من إملاء شروطه ، ولقد لاحظ نوبار فى دهشة أن الحاكم كان متنبهاً أنه يتعامل مع دائرة شيطانية ، ومع ذلك فإنه كان راغباً فى الاستمرار فى المشروع مهما كانت التكاليف ، وقد عزا نوبار هذا الاستهتار إلى شخصية سعيد السطحية ، أما ديليسبس فقد كان عليه أن ينتظر ثمانية أعوام كى تأتيه ضربة حظ تعيده للعمل ، عندما تولى الوالى الجديد إسماعيل، الذى تم الضغط عليه لاعتماد المشروع.

لقد أقنع ديليسبس الوالى سعيد بأن القناة سوف يتم حفرها بواسطة عمال يعملون بنظام السخرة ، وخلال الفترة من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٣ استنزف المشروع الفلاحين من القرى

المصرية ، بما أدى بشكل مؤقت إلى خراب الزراعة المصرية، وبالتالى تقليل ثروة البلاد ، فعندما حصل ديليسبس على حصته من الرجال ، فإنه ركز على الانتهاء من شراء الأسهم التى أجبر الوالى على شرائها ، فلقد سافر إلى باريس عدة مرات ، ليعود فى كل مرة كى يخبر سعيد أن هناك احتياجاً جديداً للأموال ، وحيث إن كمية محدودة فقط من القطن كان يمكن إنتاجها ، فإن الخزانة كانت خالية ، بدون أى أمل فى إعادة تموينها قريباً ، وبالتالى فليس أمام الوالى سوى المزيد من الاقتراض ، وهذا هو ما ضغط به ديليسبس بقوة ، وقد حصل سعيد على قرض بلغ ١٧٥ مليون فرنك فرنسى من بنك Comptoir dصEscomtes بشـــرط أن يكون للبنك سيطرة على بعض الأمور المالية فى مصر.

وأعطت وفاة السلطان عبد المجيد نجدة مؤقتة ؛ لأن سعيد كان يعلم أن السلطان الجديد لن يقبل القروض، فسحب طلبه، وفى هذا الوقت بدأ يشعر بالقلق مما سيترتب على علاقته مع ديليسبس ، وحاول محاولة يائسة تعديل هذا الوضع بأن ناشد البريطانيين خلال رحلة قصيرة إلى إنجلترا ، وذلك تحت اعتقاد خاطئ أن بالمرستون سوف يكون مستعدا لإنقاذ مصر من الإفلاس، وفى الحقيقة وفى رد على سؤال قدم إليه

فى مجلس العموم يوم ٧ يوليو ١٨٥٧ وصف لورد بالمرستون مشروع قناة السويس بأنه فقاعة ، وأكد أن إنشاءها سوف يكون مستحيل التجسيد physically impossible ، وأنها سوف تكون ضارة بالمصالح البريطانية ، ومتعارضة مع السياسة التقليدية لبريطانيا العظمى، وقد خطط لها أن تكون تهديداً لسيادة بريطانيا فى الهند ، وإذا استثمر الناس أموالهم فى هذا المشروع فعليهم أن يتحملوا مخاطر ذلك، وبمجرد أن استمع الرأى العام الفرنسى إلى ذلك ، ورغم أنه لم يكن هناك حماس فى فرنسا لهذا المشروع ، فإنهم تحمسوا بشدة باعتبار ذلك يتعلق بالكبرياء الوطنى، ورأوا أن هذه القناة لابد أن يتم إنشاؤها حتى ولو كان ذلك لمجرد أنها عظمة فى عنق بريطانيا.

وبينما البريطانيون والفرنسيون فى هذا التناطح ، وبعد زيارة والى مصر لإنجلترا ، فإن سير هنرى بولوير - السكرتير السابق فى سفارة بريطانيا فى استانبول خلال ولاية محمد على، والذى ترقى إلى منصب سفير فى تركيا - تم إرساله فى مهمة رسمية لمناقشة مشاكل الحاكم المصرى، إلا أن الحقيقة أن بالمرستون كلفه بمهمة البحث التفصيلى فى تطورات العمل فى القناة.

أجساد البغال وأحلام العصافير :

ويروى نوبار تفاصيل اللقاء الأول بين سعيد وبولوير الذى تمت استضافته للإقامة فى قصر النزهة فى شبرا ، ففور وصول سعيد وحاشيته إلى القصر، كان السفير ينتظره على السلم الخارجى ، وفى محاولة من سعيد للتقرب من الرجل الذى يعتقد أنه الذى سوف يخلصه من ورطته ، قال فى شكل تحية مموه : «أنظر يا صاحب السعادة : خيول إنجليزية ، ساسة إنجليز ، عربة إنجليزية .. ثم أشار إلى نوبار قائلا : وعدو للفرنسيين، فليس لدى تأكيد أفضل لأثبت لك سعادتى لرؤيتك فى بلادى».

سافر بولوير إلى القناة ورأى بنفسه أن العمل فيها أوشك على الانتهاء، ولو أن هناك بعض التضحيات المالية الإضافية، وفى تقريره كان إيجابيا، وعندما كتب هذا التقرير كان العمل يتم بشكل غير قانونى وغير منظم ؛ لأن الباب العالى كان يقاوم قبل إعطاء موافقته النهائية، فيما يبدو بمساعدة وتحريض نابليون الثالث. وأدى تقرير بولوير إلى تغيير سلوك كل من الحكومة البريطانية والسلطان العثمانى. وبدأت مفاوضات جادة للحصول على الموافقة النهائية للباب العالى للمضى فى المشروع، إلا أن السلطان آنذاك، لثقته بتأييد

بريطانيا فإنه تفادى الموافقة على مقامرة سعيد، فى حين كان هذا الوالى فى فراش الموت، فلقد مات فى يناير ١٨٦٣ فى الإسكندرية وتم دفنه فى النبى دانيال حيث واراه النسيان سريعا.

وجاء إسماعيل، - ابن عم عباس وابن إبراهيم - الذى ورث مهمة حكم مصر، وكان واضحا أن أسلوبه مختلف، فلقد استخدم محمد على الأجانب لتحقيق مصالحه، بينما كان عباس تملؤه الشكوك تجاههم، وسعيد كان منكفئاً على نفسه فلم يهتم، ولكن الحاكم الجديد كان مبهورا بالأوروبيين وبوسائلهم المتحضرة، وسعى لتخليص بلاده مما رآه تخلف الشرق، فالذى كان الرحالة فى القرون الماضية يعتبرونه شيئاً فريدا، لم يكن بالنسبة له سوى عار. لقد جعل من باريس كعبته وبدأ فى محاولة تحويل عاصمته القديمة بسرعة، وإعادة بنائها طبقا للنموذج المفضل لديه .

فى عام ١٨٦٣، كان الاقتصاد المصرى قد استعاد بعض عافيته ؛ لأن الحرب الأهلية الأمريكية أدت إلى زيادة حادة فى أسعار القطن، ولهذا فإن المحصول المصرى - رغم انكماشه نتيجة لظروف العمل السخرى فى القناة - زادت قيمته من ٥ ملايين جنيه إلى ٢٥ مليون جنيه، وحول إسماعيل ديونه

الخاصة إلى الدولة وشرع فى العمل، وبداية كان عليه أن يتخذ قرارا بشأن القناة، فقد كان الباب العالى بعد دراسة تقرير بولوير جاهزا لمباركة المشروع، حتى مع ثلاث قواعد أدت إلى مفاوضات طويلة وهى أن الشركة يجب أن تلغى أعمال السخرة، وتعيد ملكية الأرض التى حصلت عليها من سعيد، وتعيد ترعة المياه العذبة التى كانت قد انتهت تقريبا، وتوجه مياه النيل إلى منطقة قناة السويس المستقبلية .

كان ديليسبس فى القاهرة أثناء ذلك، وتم توقيع اتفاق بينه وبين إسماعيل فى مارس ١٨٦٣ ينص على أن الحكومة المصرية سوف تستولى من الشركة على ترعة المياه العذبة والأرض الملاصقة لها، وأن الحكومة سوف تستكمل الأعمال الباقية على نفقتها، ومع إلغاء أقساط الـ ١٥ عاما فإنها سوف تدفع الـ ٨٨ مليون فرنك المشهورة والتى تساوى الأسهم التى اشتراها ديليسبس بشكل غير قانونى باسم سعيد، كتعويض عن إعادة الاستيلاء على الأرض وكذلك ترعة المياه العذبة. وقد ذكر ديليسبس لنوبار أنه لم يشعر بالراحة إلا عندما تم توقيع الاتفاق ودفع قيمة الأسهم بالكامل، حيث أمكنه بعد ذلك أن ينام جيدا، ذلك النوم الذى هرب منه طيلة ثمانية أعوام .

إن الراحة التى صاحبت توقيع هذا الاتفاق قد تعكرت لأن

إسماعيل أدرك بعد ذلك متأخرا، أن الشركة لم تمتلك أبداً الأرض الملاصقة لترعة المياه العذبة، وهى تلك الأرض التى تم بيعها للحكومة هكذا بسهولة ؛ لأن النظام الأساسى نص فقط على أن الشركة لها حق مصادرة الملكيات الخاصة فى المناطق المزروعة كلما كان ذلك ضروريا للمصلحة العامة، كما أن قيمة التعويض لهذه المناطق قد تم تقريره بشكل رسمى، بينما باقى الأرض التى تمثل الجزء الأكبر ما بين بحيرة التمساح وبورسعيد فقد كانت أرضا جرداء وتتطلب استثماراً ضخماً فى المال والوقت لجعلها ذات قيمة ما، فلم يكن هناك من سيطالب بهذه القطعة من الصحراء، ولا حتى البدو .

ومن ناحية أخرى، فإنه لم تكن هناك إشارة فى الاتفاق للأراضى المحاذية لقناة السويس نفسها، والتى فى المقابل، كانت ذات قيمة كبيرة وتم استقطاعها بواسطة سعيد لصالح الشركة .

مرة أخرى، نجح الثعلب الفرنسى فى خداع الحاكم المصرى، وهذه المرة لم يكن سعيد الشاكر الطيع الذى مازالت فى بدنه السمين بقايا صحون المكرونة، وإنما إسماعيل الحالم بمصر الأوروبية .

وكان الشرط الثالث المتعلق بأعمال السخرة، وتتوقف عليه

الموافقة الكاملة من الباب العالى، ويلاحظ أن ديليسبس كان حريصا على ألا يشير إلى أعمال السخرة في ترتيباته مع سعيد، ومع أخذ احتياجات مصر الزراعية فى الاعتبار، فإن مجموعات عديدة من العمال كان يتم استئجارها مقابل فرنك في اليوم كما أوضح ديليسبس. وكان هذا بالفعل عملاً مأجوراً، وفى البداية لم يؤد ذلك إلى حرمان الأرض الزراعية من اليد العاملة، وعما إذا كان للحكومة الحق فى مطالبة الفلاحين بالتخلى عن عملهم فى الزراعة للمشاركة فى مشروع لن يستفيدوا منه، لم يكن ذلك يؤرق الرجل الفرنسى أو حكام مصر، ويبدو أن تقبلهم لفكرة العبيد، جعلتهم يفكرون فى أن الفلاحين ينتمون إلى الحاكم الذى يملك التصرف فيهم كما يشاء.

في السويس ..
كانت الإرادة هي النصر

في تاريخ الأمم - مثلما في تاريخ الأفراد - لحظات سعيدة ولحظات تعيسة، والفارق بين الحالتين هو أن تاريخ الفرد محصور بذاكرته الفانية، ولحظته الذاتية ترتبط به ارتباطا كبيرا أو بدائرة محدودة على أقصى احتمال، بينما تاريخ الأمم هو لحظة ممتدة تحملها ذاكرة خالدة يصعب محوها، وهي تنتشر بمساحة الشعب كله، ليس فقط في جيل واحد أو أجيال، وإنما في كل الأجيال .

...

في ذاكرتي الشخصية لحظة، كتبت عنها كثيرا .. على مشارف السويس .. فجر ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣ .. طائرات العدو تدور فوق الرؤوس بشراسة وقسوة، تقصف أي شيء يتحرك .. الدبابات الموشومة بالنجمة السداسية تزحف هادرة وهي ترمي بالجحيم في كل اتجاه .. ضابط مصري شاب في العشرين، يحمل بندقيته الآلية ومعه حفنة من جنوده رجال الصاعقة .. وحده وقد فقد الاتصال بقيادته، ودون أن يعلم حجم ما يدور في الجبهة ، يتخذ قرارا بالصمود والمقاومة .. يصرخ في جنوده : نموت ولا يمرون .. الله أكبر .. يردد خلفه الرجال المخلصون : نموت ولا يمرون .. الله أكبر ..

تلك لحظة من لحظات شخصية عديدة، بكل ما تحمله من مجد وفخر ودماء وتضحية، هى لحظتى مهما حاولت بالكتابة أن أتيح لها بعض العمر الممتد، فهى معى حتى أموت، ومن المؤكد أنها سوف تدفن معى ..

إلا أن ذلك لن يكون نتيجة لحظة انتصار السويس، حين انكسرت دبابات العدو على مداخل تلك المدينة الباسلة، لأنها تعكس إرادة جمعية لأمة بحالها اتخذت قرارها بالصمود والنصر، وستبقى تلك اللحظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فخرا لأبناء مصر جيلا بعد جيل .

....

وفى عام ١٩٥٦، كانت هناك معركة أخرى أطلقوا عليها فى الأدبيات الدولية اسم «معركة السويس» .. وكان ينبغى أن يطلق عليها اسم : «معركة مصر» .. فهى بكل المقاييس جماع إرادة حاسمة لشعب مصر آنذاك، حين قرر الصمود والمقاومة، ورغم ما قيل بعد ذلك عن نتائج المعارك العسكرية؛ فإن الحقيقة التى سجلها التاريخ هى أن شعب مصر قد انتصر فى هذه المعركة، وسطر فى سجل المجد أروع السطور..

لقد ألقى جمال عبدالناصر خطبة من على منبر الأزهر ..

كان آنذاك فى منتصف الثلاثينيات من عمره، شاب يتفجر بالحماس وتعكس ملامحه كل صلابة أهل جنوب مصر ، ولم يتذكر أحد من خطبته سوى كلمة واحدة: «هانحارب» .. ورددها الملايين بعد ذلك ..

لقد كان عبدالناصر هو القائد، إلا أن اللحظة كانت لشعب مصر كله، لحظة ستظل نبراسا لكل الأجيال التالية، فلولا الشعب المعلم ما كان نصر السويس، وربما بدا للبعض، ومازال يبدو للبعض - للأسف - أن قرار عبدالناصر كان مغامرة أو مقامرة، إلا أن القراءة الصحيحة المنزهة لتلك الفترة تثبت بما لايدع مجالا للشك أن هذا القرار لم يكن فقط محسوبا، وإنما وصل إلى درجة من الدقة فى الحساب لم ترق إليها سوى قرارات قليلة .. لقد إستند عبدالناصر إلى إرادة الشعب المصرى العظيم، وكان يدرك أن دروس التاريخ قد أثبتت أن أكرم معادن هذا الشعب تتجلى أكثر ما تتجلى فى أوقات المحن والتحديات، هذا الشعب الصبور الحمول الذى قد يجوع ويشقى لكنه لايرضى أبدا بالذل والهوان.

إلا أن الحساب قد اشتمل أيضا على عناصر مادية، وقد سبق أن نشرت على صفحات هذه المجلة قراءة فى مذكرات عميد الدبلوماسية المصرية والعربية الدكتور محمود فوزى،

حول الإدارة الدبلوماسية والإعلامية الحاذقة لهذه الأزمة منذ قرار عبدالناصر بتأميم قناة السويس، وكذلك كيفية الاستفادة بالإمكانيات العسكرية المحدودة لمصر في مواجهة الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية، وما دار من فرق المقاومة الشعبية الباسلة في شوارع بورسعيد .. لقد كان شعب مصر صاحب القرار الذى نطق به عبدالناصر .

نصف قرن مضى على تلك اللحظة الباهرة فى تاريخ مصر .. لقد غاب أكثر إن لم يكن كل من شارك بفاعلية فى أحداث تلك اللحظة، إلا أن إشعاعاتها لاتزال - رغم كل الغيوم- تطل علينا قوية موحية، تضىء ظلمات الزمن وظلم الأحداث، تدفىء الأعضاء التى تجمدت فى ثلوج الحرض الذى أذل أعناق الرجال، فهى ذكرى شامخة لم تصبها أوهان الشيخوخة رغم خمسين عاما تبرز لنا مع كل يوم حقائقها المجيدة، فهاهى الوثائق الفرنسية - بعد الوثائق البريطانية والأمريكية - تزيح أستارا أخرى عن جوهرة الإرادة المصرية التى لم تنكسر أمام هول التهديد ومصيبة النار والدم والدمار، وتثبت مرة أخرى أنه عندما تتوحد إرادة القرار المستقل مع إرادة الشعب فإن ما يبدو مستحيلا يصير ممكنا، وما يبدو انتحارا يصير حياة متجددة وفخارا، وما يبدو مغامرة غير

محسوبة يصير هو الحساب الصحيح والواقعية التى تعنى التعامل مع الواقع بهدف تغييره وليس مجرد الإذعان له .

نصف قرن ليس زمنا فى تاريخ الشعوب، فلماذا تبدو بعض قطاعات الأجيال الجديدة غافلة عن تلك اللحظة العبقرية من تاريخ مصر ؟ رغم أن بها الدرس والعبرة، وما أحوج هذه الأجيال إلى الدرس والعبرة، خاصة فى هذا المفصل التاريخى الذى يعبره العالم حين تصبح الهوية الثقافية والوطنية مستهدفة لذاتها، وحين تتعرض الذاكرة التاريخية للأمم للتشويه المتعمد بهدف إحصاء القدرة على الفعل والحركة من خلال شطب كل سطور العزة والفخار أو إعادة كتابتها بما يحقق نفس الهدف، وللأسف سقط بعض النخبة فى هذا الفخ تحت مسميات الواقعية والعولمة والحوار مع الآخر ، فأى واقعية تلك التى لاترى فى «نصر السويس» إلا هزيمة وعاراً، وأى عولمة هذه التى تمسخ أمة تمتد جذورها فى التاريخ إلى بداية التاريخ نفسه؟ وأى حوار هذا الذى يعنى أن نكون فى الطرف المتلقى دائما ؟، الحوار يفترض بداية أن يكون بين ندين لدى كل منهما موقفه وتراثه الذى يعتز به بحثا عن أرضية إنسانية مشتركة لاتعنى إلغاء أو إقصاء ...

نصف قرن مضى على أحداث السويس الساخنة، وثلاثة

وثلاثون عاما مضت على حرب العبور الخالدة، وهي جواهر في صندوق ذاكرة الوطن لاينبغى أن تخبو أو نسمح لكائن من كان أن يشوهها، يجب أن يجدها أطفالنا في حليب الأم وفى حكايا الجدات وفي دفاترهم المدرسية، ولتنحني كل الجباه أمام ذكرى أبطال هذه المواقف الصامدة التي أكدت صلابة معدن هذا الشعب العظيم.

إن هذا الشاب ابن العشرين عاما الذي وقف فجر ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣، بين ضباب المعركة الكثيف كي يتخذ قراره وحده بالصمود على مشارف السويس، هو ابن ذلك الشاب الذي ارتقى منبر الأزهر كي يعلن بقوة أن مصر «ستحارب» وكلاهما استمرار لسيرة عطرة حملتها أجيال متتالية من شعب مصر، وكلاهما آباء وأجداد أطفال اليوم والغد الذين يواجهون تحديات الحاضر والمستقبل التي لاتقل قسوة بل قد تزيد في ضراوتها لأنها تحديات للهوية والوجود.

لذلك فمن المهم ألا تفوت مناسبة كتلك دون أن نعيدها للضوء، ننظفها مما شابها ونقدمها ذخيرة لأبنائنا وبوصلة طريق ...

طوبى لمن أمسكوا بمفاتيح قناة السويس وأعادوا الحق لأصحابه، للمرشدين المصريين الذين واصلوا ليلهم بنهارهم

كى يفشلوا مخطط الأعداء الذين أرادوا أن يثبتوا فشل المصريين فى إدارة القناة بسحب المرشدين الأجانب .. طوبى لرجال القوات المسلحة الأشاوس الذين قاتلوا بجسارة على حدود الوطن بإمكانيات ضئيلة وضد قوى عاتية ... طوبى لشعب القناة وشعب مصر الذى امتلك إرادة تحدى الخوف وإرادة المقاومة وانتصر ... طوبى لكل الشرفاء القابضين على الجمر وعلى ثقتهم فى تاريخ الأمة وإرادة الشعب .. والعار كل العار لأولئك الذين يبيعون جواهرنا التاريخية بأبخس الأسعار...

وياشهداء النضال عام ١٩٥٦ ، دعونى على الأقل أضع وردة فى ذكراكم الخمسين ، تحمل فى أوراقها العهد الذى لايذبل بأننا سنواصل الدرب حتى منتهاه ، وسنسلم عصا التتابع مرفوعة عليها رايتنا الخفاقة أبداً ، فقد تنزف الجباه لكنها لن تنحنى إلا للخالق ، ولا نامت أعين الجبناء ...

أمريكا والاستعمار ..
من تشرشل إلى كسينجر

فى كتاب الدبلوماسية «لهنرى كيسنجر» ، كتب أن ظهور عبدالناصر كشف الصراع النائم بين أمريكا وحلفائها الأساسيين فى حلف الأطلنطى فيما يتعلق بموضوع الاستعمار .

ففى أبريل ١٩٥١ عندما كان تشرشل فى المعارضة ، طالب بعمل مشترك فى الشرق الأوسط وقال :

«نحن لسنا أقوياء بالشكل الكافى لتحمل كل العبء السياسى فى الشرق الأوسط ، أو حتى لاتخاذ الدور القيادى فى السيطرة الدبلوماسية على هذا المجال ، ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا معا ، وبمساعدة فرنسا يمكن أن يكونوا جميعاً فى موقع قوة للتعامل مع مصر على سبيل المثال وكذلك كل مسألة الدفاع عن قناة السويس (ملاحظات تشرشل فى مجلس العموم فى ١٩ أبريل ١٩٥١) .

إلا أن أمريكا رفضت أن تلعب فى الشرق الأوسط الدور الذى لعبته فى تركيا واليونان ، ولم تسمح لنفسها أن ترتبط بالتقاليد الاستعمارية .

لقد عارض كل من ترومان وإيزنهاور العمل العسكرى

البريطانى فى إيران أو مصر على اعتبار أن هذه النزاعات يجب أن تخضع لتحكيم الأمم المتحدة .

أوهام الحرية والاستقلال :

يقول كيسنجر أن أمريكا - آنذاك - كانت منكفئة على أوهامها ومن ضمنها أن حركات الاستقلال فى الدول النامية تتشابه مع التجربة الأمريكية ، وأن الدول الجديدة (المستقلة) سوف تدعم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية بمجرد إدراكها سلوك أمريكا ضد الاستعمار ، وأن هذا السلوك يختلف عن سلوك القوى الأوروبية القديمة .

ويستدرك - كيسنجر - بأن قادة حركات الاستقلال كانوا من «أنواع مختلفة» Different type لا تشبه «الآباء المؤسسين» (يقصد قادة حركة الاستقلال فى أمريكا) . فهؤلاء القادة يستخدمون إصطلاح الديمقراطية ولكن ينقصهم الالتزام بما جاء فى الدستور الأمريكى الذى كان من صاغوه يعتقدون بقوة فى نظام المراقبة والتوازن Checks and Balanced ، فقد حكمت الغالبية العظمى منهم بشكل استبدادى Authoritarian ، والعديد منهم كانوا ماركسيين ، وتقريبا رأوا جميعا فى صراع الشرق والغرب فرصة للتخلص من النظام الاستعمارى القديم . فى

النهاية تم استدراج أمريكا إلى الشرق الأوسط من خلال نظرية الاحتواء التى تطلبت مواجهة التوسع السوفييتى فى كل منطقة ، وكذلك من خلال مبدأ الأمن الجماعى الذى شجع إنشاء منظمات على شاكلة حلف الأطلنطى لمقاومة التهديدات السوفيتية القائمة والمحتملة .

ولم تكن شعوب الشرق الأوسط فى قطاعها العريض تشارك أمريكا فى توجهاتها الاستراتيجية .

لقد نجحت العديد من الدول الجديدة فى نشر الانطباع بأن استيلاء الشيوعيين عليها سوف يكون خطره أشد على الولايات المتحدة الأمريكية مما هو عليها ، ولذلك فليس هناك ما يدعوها لدفع أى ثمن للحماية الأمريكية .

وفوق ذلك ، فإن الزعماء الجماهيريين مثل ناصر رأوا أن لا مستقبل لهم إذا انتسبوا للولايات المتحدة الأمريكية . كانوا يريدون لشعوبهم المتقلبة أن تراهم ليس فقط أولئك الذين انتزعوا الاستقلال بل حرية المناورة بين الدول الديمقراطية ، أما عدم الانحياز فقد كان بالنسبة لهم ضرورة محلية أكثر من كونها خياراً من خيارات السياسة الخارجية .

فى البداية ، لم يكتشف كل من أمريكا وبريطانيا حقيقة ما يمثله ناصر ، فقد انطلقا من فكرة أن مقاومة ناصر لسياستهما يرجع إلى شكاوى معينة يمكن معالجتها ،

وحاولت بريطانيا أن تقنع ناصر بالقبول بهيمنتها التاريخية ، بينما حاولت أمريكا أن تجذب ناصر لاستراتيجيتها الكبرى في الاحتواء .

ووجد السوفييت فرصة للالتفاف حول الحصار الرأسمالي، ولاكتساب حلفاء جدد من خلال إمدادهم بالسلاح دون أن يكون مسئولاً عن سياستهم الوطنية (مثلما الحال فى شرق أوروبا) ، وقد أجاد ناصر بذكاء اسخدام كل هذه التداخلات كي يضرب كل قوة بالأخرى .

سياسة «الجزرة» :

كان دخول السلاح السوفييتى فى أوضاع الشرق الأوسط المتقلبة بمثابة زيادة للتوتر ، وكان أفضل موقف لأمريكا وبريطانيا هو عزل ناصر حتى يتضح له أن السلاح السوفييتى لم يحقق له أى شىء ، وبعد ذلك ، إذا تخلى ناصر عن ارتباطه بالسوفييت ، أو إذا تم تغييره بزعيم أكثر اعتدالاً، فيمكن آنذاك القيام بمبادرات دبلوماسية كريمة . وكانت تلك هى استراتيجية أمريكا تجاه السادات بعد ذلك بعشرين عاماً، إلا أن الديمقراطيات الغربية فى عام ١٩٥٥ اختارت التكتيك المناقض ، فلقد حاولوا مصالحة ناصر بالاستجابة للعديد من طلباته .

لقد كان ذلك مثل السراب فى الصحراء ، فإن أى آمال

حول تأثيرات قوى خارجية تبخرت بمجرد بذل أى جهد لوضعها موضع التنفيذ . وجدت بريطانيا أنها مهما حاولت تجميل وجودها العسكرى فى المنطقة ، فلن يجعلها ذلك مقبولة للحكومات المحلية ، وكانت سياسة أمريكا ذات الانفصام Schizophronic policy التى تباعد بينها وبين بريطانيا فى موضوعات الشرق الأوسط وذلك بهدف ضم ناصر مع بريطانيا فى شراكة ضمن استراتيجية عالمية مضادة للسوفييت لم تنجح . لم يكن لدى ناصر أى دافع للتخلى عن روابطه مع السوفييت ، بل كان دافعه هو العكس .. وكلما حاولت أمريكا أن تسترضى ناصر ، كلما ازدادت حركة المصرى المخادع تجاه السوفييت ، للحصول على مزيد من الفوائد من الولايات المتحدة الأمريكية .

يقول كيسنجر إن أمريكا وبريطانيا حاولا أن يقنعا مصر بمزايا بقائها فى المعسكر الغربى ، وفى ذلك فقد اتبعا سياستين :

أولاهما :

تشجيع السلام بين مصر وإسرائيل ، وثانيتهما : مساعدة ناصر فى بناء السد العالى .

وكانت مبادرة السلام مبنية على أساس أن إقامة الدولة اليهودية بقوة السلاح كانت هى المصدر الرئيسى لظهور

التطرف العربى ، وأن سلاماً محترماً سوف يزيل الشعور بالمهانة . ولكن لم يكن بين العرب المتطرفين والقوميين من يرغب فى السلام محترماً أم غير ذلك ، فقد كانت الدولة اليهودية بالنسبة لهم جسماً غريباً تم زرعه فى الأراضى العربية على أساس مطالبة عمرها ٢٠٠٠ عام ، ولتخفيف معاناة اليهود التى لم يتسبب فيها الشعب العربى :

إذا حقق ناصر سلاما حقيقيا مع إسرائيل - أى وافق على التسوية للتعايش - فإنه سوف يتنازل عن مطلبه فى زعامة الأمة العربية ، لذلك فقد طالب بكامل منطقة النقب ، التى تمثل نصف مساحة إسرائيل ، وكذلك طالب بحق مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين فى العودة .

لم تكن إسرائيل لتوافق أبداً على تسليم نصف أرضها أو تسمح بعودة كل اللاجئين العرب الذين قد يغمرون ماتبقى من الدولة . وكان مخرج إسرائيل هو التصميم على اتفاقية سلام رسمية مع حدود مفتوحة ، وهو مطلب يبدو بريئاً ، ولكنه ذلك المطلب الذى لايمكن للقادة العرب القبول به لأنه يتضمن قبولهم الدائم بالدولة الجديدة .

بين المطلب الإسرائيلى بالسلام دون تسليم أراض ، وبين المطلب العربى بالأراضى دون سلام محدد ، تجمد الموقف .

لقد قررت كل من أمريكا وبريطانيا تمويل مشروع السد

العالى (بل وكان إيدن هو البادىء بهذا الاقتراح) ، وقد يبدو غريباً أن يقدما على ذلك (أى مساعدة نظام ناصر) فى الوقت الذى كان فيه كلاهما يرغبان فى إزاحة ناصر من الحكم ، ولكن تفسير كيسنجر لذلك أن الحكومتين حين اتخذتا هذا القرار كان هاجس التقارب المصرى السوفييتى أهم ما يؤرقهما ، ولذلك فقد رأوا أن مساعدة ناصر قد تساعد فى اكتسابه ، وإذا لم يحدث ذلك فإنه يمكن الضغط عليه بعد الانتهاء من مرحلة التمويل الأولى ، لأنه سيكون معتمداً بشكل كامل فى المرحلة الثانية عليهما بنفس الطريقة التى تورطت بها مصر فى شق قناة السويس التى أعطت للغرب السيطرة المالية على مصر .

إلا أن ذلك لم يؤد إلى تحويل ناصر إلى وضع أكثر اعتدالاً ، بل إزداد شعوره بالأهمية ، ولكى يحافظ على قوة الدفع التفاوضية ، فلقد تحرك بسرعة متخذا بعض التحركات التعويضية ، فلقد ناقش شروط التمويل بقوة ورفض المحاولات الأمريكية للمساعدة فى تسهيل التفاوض العربى الإسرائيلى ، وعندما حاولت بريطانيا إقناع الأردن بدخول حلف بغداد ، فإن مظاهرات مؤيدة لمصر تفجرت (فى الأردن) لتجبر الملك حسين أن يطرد جلوب باشا (القائد الإنجليزى للجيش العربى الأردنى) فى مارس ١٩٥٦

سياسة العصا :

فى ١٦ مايو ١٩٥٦ سحب ناصر اعتراف مصر بحكومة شياينج كاى شيك ، وأقام علاقات دبلوماسية مع حكومة الصين الشعبية ، وكانت تلك لطمة للولايات المتحدة الأمريكية وخاصة لدالاس الذى كان مرتبطاً بتايوان .

فى يونيو قام وزير الخارجية السوفييتي الجديد ديمترى شبيلوف بزيارة مصر ومعه عرض لتمويل وبناء السد العالى ، متيحاً بذلك الفرصة لناصر كي يلهو بهوايته المفضلة بضرب قوة عظمي مع أخرى .

فى ١٩ يوليو قرر دالاس إنهاء هذه المهزلة ، وكانت مسألة تايوان هى القشة التى دفعت دالاس أن يلقن ناصر درساً ، وعندما عاد السفير المصرى من القاهرة بتعليمات تقضى بقبول كل المقترحات الفنية الأمريكية ، أجابه دالاس بأن واشنطن توصلت إلى نتيجة أن مصر ليس لديها القدرة الاقتصادية لبناء السد ، وليست هناك أية مساعدات .

وكان دالاس يظن أنه مستعد لرد فعل قوى من مصر ، فقد قال لرئيس تحرير مجلة «تايم» هنرى لوك أن قرار عدم تمويل سد أسوان كان حركة شطرنج كبيرة قامت بها الدبلوماسية الأمريكية ، وأن ناصر فى موقف محرج وأيا ما كان ما سوف يفعله فإن ذلك سيستخدم لمصلحة أمريكا ،

فإذا توجه للسوفييت سيقولون له «لا» لأن ذلك سوف يؤثر على المساعدات الاقتصادية السوفيتية على مستوى العالم ، وإذا وافقوا على إعطاء السد لناصر ، فإننا سوف نعمل على إطلاع الدول التابعة للسوفييت بأن سبب معاناتهم هو تلك الملايين التى يصبها السوفييت فى مصر .

إن الذى كان ينقص تحليل دالاس بشكل واضح هو الرغبة لمساندة هذا التحرك الكبير بالاستعداد للقبول بمخاطر كبيرة ، ولم يكن ذلك إلا مثلاً آخر للتوجه الطبيعى لدالاس الذى يبالغ فى تقدير دور الدعاية ، خاصة فيما وراء الستار الحديدى .

السفير الفرنسى فى أمريكا (موريس كوف دى مورفيه - الذى أصبح فيما بعد وزير خارجية ديجول) ، تنبأ بشكل صحيح بما سوف يحدث : «سوف يفعلون شيئاً لقناة السويس ، هذا هو الطريق الوحيد أمامهم ضد الدول الغربية».

وبالفعل أمم ناصر قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .

. إن الخلافات التي كانت ما بين الدول الغربية ما قبل تأميم القناة ، أثرت على ردود فعلها ، فأيدن الذى صعد إلى منصب رئيس الوزراء قبلها بعام بعد انتظار طويل ، لم يكن عصبياً فى حالة تسمح له باتخاذ قرارات تحت ضغط ، فلكونه التالى

لتشرشل فذلك وحده كان عبئاً كافياً ، وبالإضافة إلى ذلك كانت شهرة إيدن بأنه قوى رغم أن حالته النفسية والبدنية لم تكن تدعم ذلك .

قبل ذلك بشهور قليلة كان إيدن قد أجرى جراحة كبيرة ، وكان فى احتياج دائم للدواء ، والأهم من ذلك أنه كان أسير سنوات تكوينه، فقد نما فى ظل سيطرة بريطانيا على الشرق الأوسط ، وكان مصمما على إيقاف عبدالناصر ، وبشكل منفرد إذا كان ذلك ضرورياً .

كانت فرنسا أشد كراهية لناصر ، فقد كان يهدد مصالحها فى الجزائر والمغرب ، وقال رئيس وزراء فرنسا الجديد آنذاك (جى موليه) أن ناصر لديه الطموح لاستعادة انتصارات الإسلام ، وشبهه بهتلر .

أرسل أيدن لإيزنهاور فى اليوم التالى للتأميم : إذا لم نتخذ موقفاً قوياً ، فإن نفوذنا ونفوذكم فى الشرق الأوسط سوف يتم تدميره .. وبعد ذلك بثلاثة أيام وفى مجلس العموم قال : لا توجد أية ترتيبات مستقبلية لهذا الممر الدولى العظيم ستكون مقبولة لحكومة صاحبة الجلالة ، إذا أدت إلى تركها لسيطرة قوة واحدة تستطيع كما أظهرت الأحداث الأخيرة أن تستغله لأغراض وطنية محضة» .

فى ٢٩ يوليو قام السفير الفرنسى فى لندن بإخطار

الخارجية البريطانية أن فرنسا جاهزة لوضع قواتها تحت القيادة البريطانية وأن تسحب قوات من الجزائر لعمل مشترك ضد مصر . وأثناء وجود دالاس فى لندن أول أغسطس ، بدا كأنه يشارك نفس الرأى ، فقد ذكر أنه من غير المقبول أن تسيطر أمة واحدة على القناة ، خاصة إذا كانت هذه الأمة هى مصر ، وأكد على أنه تم التوصل إلى وسيلة لجعل ناصر «يتقيأ ما حاول ابتلاعه» ، ولكنه تحدث أولاً عن إدارة دولية للقناة، ومحاولة عزل ناصر، وإذا كان لعملية عسكرية أن تتم فيجب أن تكون ناجحة وألا يكون لها ردود فعل سلبية كبيرة. اقترح مؤتمر بحرى يتكون من ٢٤ دولة تجتمع فى لندن لتقرير نظام دولى للملاحة الحرة فى القناة .

يقول كيسنجر إن دعوة دالاس للمؤتمر كانت بداية الحيرة التى انتهت بإهانة كل من فرنسا وإنجلترا .

كانت كل من فرنسا وإنجلترا يسعيان لقلب نظام عبدالناصر أو إذلاله ، بينما كانت أمريكا تنظر إلى الأزمة من خلال علاقات طويلة المدى مع العالم العربى ، ويرى كيسنجر أن الطرفين نزعا من تصور خاطىء : ايدن وموليه ظنا أن نهاية ناصر سوف تعيد الأمور إلى ماكانت عليه قبل ظهوره ، بينما فكرت أمريكا أنه يمكن إغراء بعض الزعماء العرب القوميين إلى نظام أمنى يشبه الناتو، كما اعتقدت أن عملا

عسكريا سيشعل المنطقة بما ينهى تماما أى وجود للنفوذ الغربى لأجيال قادمة، وهو سيناريو أكثر ظلاما من خسارة السيطرة على القناة .

فالأوضاع التى كانت قبل عبدالناصر قد ذهبت للأبد، والزعماء الذين على شاكلته محصنون ضد سياسة الاحتواء، وورقة التفاوض الأساسية بين أيديهم هى الحرب الباردة نفسها، التى استغلوها بنفس درجة استنكارهم لها ، والواقع أن الموضوع الأساسى كان ماهو الذى سيشعل العرب أكثر : هزيمة أم نصر عبدالناصر؟.

الخطأ الأمريكي :

ويرى كيسنجر أنه من زاوية تحليلية بحتة، فإن أمريكا كان عليها أن تشارك بريطانيا وفرنسا فى نظرتهما لناصر، بوصف نشاطه القومى هو العائق الأساسى لبناء سياسة شرق أوسطية جيدة، وذلك بإظهار أن الاعتماد على السلاح السوفييتى لن يخدم أى غرض، وقد أدى التراجع الأمريكى إلى أحقاب من القلاقل فى العالم النامى ؛ ومن هذه الزاوية كان من المهم مواجهة ناصر، وعند تحقيق هزيمته كان من الممكن ألا تشارك أمريكا في استعادة فرنسا وبريطانيا لهيمنتهما الاستعمارية في الشرق الأوسط. أى أنه إذا كان لازما على أمريكا أن تتباعد عن حلفائها، فلم يكن ينبغى أن

يتم ذلك فى بداية أزمة السويس، وإنما بعد انتهائها بنجاح ، وأن إظهار عدم جدوى سياسة الاعتماد على الدعم السوفييتى كان لابد أن يتبعها دعم اتجاهات وطنية معتدلة لخليفة ناصر، وهو ما فعلته أمريكا تجاه السادات .

استعمار القرن الواحد والعشرين :

ويبدو أن دوائر كثيرة في الإدارة الأمريكية الحالية قد اقتنعوا برأى كيسنجر ، وربما لو كانوا فى الحكم أثناء أحداث السويس عام ١٩٥٦ لكان التاريخ قد أخذ شكلا آخر على الأقل فى الشرق الأوسط، فالفكرة المركزية هى كيفية ترسيخ الهيمنة على المنطقة، وقد اختلفت أمريكا مع حلفائها الرئيسيين فى الأسلوب عام ١٩٥٦ ، وذلك بعكس ماحدث عام ٢٠٠٣ ، مع استثناء الموقف الفرنسى، إنها نفس فكرة ونستون تشرشل التى طرحها قبل مايزيد على خمسين عاما، يقوم بتنفيذها الآن جورج بوش وتونى بلير مع البداية فى العراق ...

فصول من مسرحية النكسة

كلما شهدت فيلم «العصفور» ليوسف شاهين، أعادنى الفيلم - وخاصة المشاهد الأخيرة - إلى سنوات طويلة مضت، تبدو الآن بعيدة جدا وحاضرة جدا فى نفس الوقت .. كيف لا وقد مضى على نكسة يونيو ستة وثلاثون عاما؟ .. تلك اللحظة التى انتهى فيها جمال عبدالناصر من خطاب التنحى الشهير، وخروجي مندفعا الى الشارع حيث وجدت الآلاف غيرى ، وحصارنا لقسم الشرطة القريب ونحن نصرخ مطالبين بالسلاح، ومأمور القسم المسكين وقد وقف حائرا يحاول تهدئة الجموع وطمأنتهم بأنه طلب الإمداد بالسلاح كى يوزعه علينا .. ذلك المساء الغريب ، حيث دوت طلقات المدافع المضادة للطائرات بشكل كثيف ومزعج لم يكن يعلو عليها آنذاك سوى صوتنا الذى يردد دون توقف : «هانحارب .. هانحارب»...

***

بشكل ما أعتبر هذه اللحظة أهم وأعظم وأخطر من لحظة أخرى شاء الله أن أشهدها، وأعنى لحظة عبور قناة السويس، فاللحظة الأولى أهم لأنها كانت فى موقف هزيمة وانكسار ، بل وتتجاوز ذلك إلى موقف اختبار وتحد لأسئلة مجهولة، لحظة لم نكن نعرف ما تخفيه الأقدار خلفها، بعكس لحظة

العبور التى كانت بكل تأكيد موقف انتصار، وكنا بالتأكيد نعرف الهدف ونتوجه اليه بكل قوة وإصرار مهما كانت التضحيات ..

تلك اللحظة المنكسرة كانت فى المقارنة أعظم لأنها عكست بشكل واضح كل مافى هذه الأمة من صلابة ونبل وتراث، وكشفت عن المعدن الأصيل الذى تجلى فى وقت المحنة الكبرى، وإن كان ذلك لا يقلل من عظمة لحظة العبور، ولكن تبقى تلك العظمة الأخيرة فرعاً من الأصل، والبعض لا يطاول الكل أو يساويه .

أما أن لحظة النكسة كانت أخطر، فلا يمكن أن أجد الكلمات الكافية التى تعبر عن هذه الخطورة، لقد كانت صدمة هائلة كفيلة بضياع الأمة لأحقاب طويلة، وذلك هو ما توقعه كل المحللين بقياساتهم وحساباتهم الباردة، وما رآه العدو كنتيجة طبيعية لما حدث، وأكاد أقول - بدون مبالغة - إننا على شاطىء قناة السويس في لحظة العبور لم نشعر بهذا النوع من الخطر، فقد غمرنا شعور جارف بالنصر منذ اللحظة الأولى ...

***

منذ ذلك التاريخ البعيد.. كتبت عشرات بل مئات المقالات والخواطر والذكريات حول تلك اللحظة الحزينة ، وكلما اقتربت

الذكرى أجدنى ، وبشكل غير واع ، أستعيد المشهد، وأعقد المقارنة بين تلك اللحظة ولحظات أخرى عديدة حملت بعدها العديد من المشاهد الأخرى .. وأجدني فى اللحظة الحالية أشعر بأن الستار لم يسدل بعد على ذلك المشهد البعيد، وأن الفصول تتوالى وتتغير الإضاءة كى تعكس مرور الزمن، ولكن الديكورات لا تزال في مكانها ، والشخوص لا تزال تبدل ملابسها وأقنعتها ولكنها نفس الشخوص، والجمهور مسترخ على مقاعده متفرجا على الفصول المتكررة... قد يتثاءب أو ينام أو يصرخ متألما أو يبكي فى صمت ، لكنه قابع فى ظلام القاعة يتابع المشاهدة.. ولا تزال المسرحية مستمرة !! ..

***

فى الذكرى الخامسة والعشرين للنكسة ، اخترت مدينة «بورسعيد» كى أمضى فيها ليلتين، كنت وبشكل غير مفهوم أريد أن أتنفس رائحة القناة وتاريخ المدينة المناضلة وذكريات مطار الجميل والعدوان الثلاثي، وأتذوق بعض رحيق النصر القديم... كنت وحدى أسير فى شوارع «الافرنجى» حين قابلت «محمد اليمانى» ، رفيق سلاح الصاعقة القديم الذى حارب إلى جوارى فى الجيش الثالث الميدانى فى زمن العبور.. ابن بورسعيد الشهم الذى كان يطربنا بصوته فى ليالى الخنادق.. تعانقنا بشدة.. أبديت ملاحظة على كرشه

المتدلى متسائلا عن رشاقته المعهودة، قال لى بلكنته البورسعيدية المحببة : «خلاص يابوص، بقينا مدنيين!» ... أصر أن يصحبنى إلى منزله ، قدمنى إلى زوجته وطفلتيه، جلسنا فى الشرفة نرقب أضواء الميناء التى تتلألأ فى الأفق البعيد، أعدت زوجته عشاء سريعا شهيا من أصناف السمك المختلفة، كنا نسترجع أيام الخنادق الجميلة، نتذكر أيام التدريب وليالى القتال وأسماء الشهداء والأحياء من رفاق السلاح ، كان يطلب منى أن أحكى أمام زوجته وطفليه بعض قصص البطولة التى شهدتها الحرب، وهو ينظر إليهم وكأنما لسان حاله يقول لهم «هل تصدقون الآن ماكنت أحكيه لكم»...

أتذكر .. اختنقت العبرات فى صدره، اشتكى من ظروف الحياة، من «بورسعيد» التى تحولت الى مدينة أخرى غير المدينة التى عرفها فى صباه .. سألنى عن فرصة عمل أفضل يكسب منها رزقه بشكل حلال ...

بعد ذلك بسنوات ، علمت أن «محمد اليمانى» مات وهو يقاتل على الحدود العراقية/ الإيرانية ضمن القوات العراقية .. لقد سافر للعمل فى العراق، ثم انضم للجيش...

يقولون إن جثمانه قد يكون مدفونا فى بقعة ما فى الأراضى الايرانية أو العراقية... ومنذ أن علمت هذا الخبر لم أعد أشعر بأية رغبة فى زيارة بورسعيد ...!!

***

تملؤنى رغبة جامحة فى أن أجمع كل الصفحات التى كتبها فى هذه الذكرى على مر السنين، حيث إنها حملت فى كل عام مشاهد وخواطر وذكريات مختلفة، ولكن يجمع بينها جميعا أنها فصول مختلفة من مسرحية واحدة... ورغم هذه الرغبة أتساءل عن الجدوى ؟ ..

هل هى مجرد إشباع لذات تسعى لاستخلاص بعض الحقائق؟، أم أنها نزوة كاتب يريد أن يعيد على الناس مشاهد مسرحية يحفظونها عن ظهر قلب؟ ، أم مجرد محاولة كى أترك لأجيال قادمة بعض مشاهد زمن مررت به ، قد يجدون فيها فائدة ما؟.. لا أدرى .. فلقد غطست مثلا منذ سنوات فى الوثائق السرية الأمريكية التى أفرج عنها كى أستخرج منها مشاهد جديدة لنفس الفترة الحاسمة من حياتى وحياة أمتى ، وبعد رحلة عذاب ومعاناة وبحث لم تبتعد المشاهد التى استخلصتها كثيراً عن نفس التى عاينتها ، والخلاف لم يكن فى النوع وإنما فى الدرجة ، أى فى بعض الألوان والإضاءات والظلال.. ولكنها نفس المشاهد الملهاة – المأساة ...

لذلك فإننى أكافح هذه الرغبة ، وأسارع مثل الآخرين إلى مقعدى المحجوز فى القاعة المظلمة بين المتفرجين كى أشاهد تتابع الفصول.. قد أتثاءب أو أنام أو أصرخ ألما أو أبكى فى

صمت - تماما مثل الآخرين - .. وربما الخلاف الوحيد هو أننى أكتب، وأننى لم أمت مثل بعض رفاقى فى حرب العبور ، أو مثل «محمد اليمانى» الذى اختفى جثمانه فى بقعة غير معلومة ، بعيدا عن بورسعيد التى ولد فيها ، وسيناء التى قاتل على أرضها، ومصر التى عشقها .. لازلت أحيا .. وأتفرج !!! ...

***

إن فيلم «العصفور» وثيقة فنية وتاريخية هامة تؤكد أن الفن الصادق يتجاوز حدود الزمان والمكان ، إنه شريحة مقطعية فى تلك الفترة المفصلية التى عاشتها أمتنا ، وتكاد أغنية «مصر يا أمة يا بهية» تكون أغنية كل العصور بما فيها شجى ومعنى واستقراء لواقعنا ، بل وبما فيها من إصرار وتحدٍ فى وجه المحن وقد أطلق يوسف شاهين «العصفور» من قفصه في لقطة معبرة وكأنها دعوة أو أمنية أو رسالة ولا يدرى أحد أين ذهب ذلك العصفور إلى درجة الشك فى أنه قد غادر القفص أصلا. وإن كنت أرى أن ذلك العصفور لا يزال حبيسا فى أقفاص أخرى ، فى القفص الصدرى يغرد بأغنيات الزمن القادم، يحلم بالأفق والأشجار والتحليق ، يدندن من حين لآخر فى الذكرى السنوية أنشودته الخالدة : «مصر ياأمة يابهية»...

يونيو ...
شهر الأحزان المعتقة !!

أبدا لن أنسى ذلك الشهر الحزين من صيف العام ١٩٦٧ .. أبدا لن أغفر لمن مزقوا أحلام شبابى الوردية، وفتحوا الجرح الذى لن يندمل .. أبدا سيبقى هذا التاريخ الحزين فى أقبية الذاكرة المظلمة الباردة ألما طازجا يتجدد كلما استدعته الحوادث ومجريات الأيام ...

كنا جيلا من الأبرياء الأتقياء ، أطفالا كنا في بدايات البدايات، نعبث في رمال أيامنا كي نبني قصورا ملونة ، مواكب نمشى كى نهتف باسم القومية، باسم العامل والفلاح، بالفن الخالد، بجمال.. عقولنا البكر تلتقط وبخصوبة أفكار الحرية، ترسم صورة حب دولى شامل، تحمل نصرا للبشرية على الطغيان وفلول قطعان الاستعمار، كنا مملوئين بيقين نبوى بأن الغد غدنا، ونرى مصر عروسا تزف الى التقدم والرخاء ...

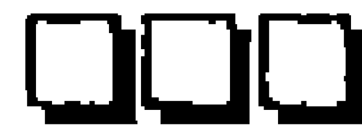
***

كانت طفلة من نفس عمرى ، إلا أنها تسير إلى جوارى ، كتفاً بكتف ، تهتف مثلى ، وتشارك معنا فى اجتماعات منظمة الشباب، ذكية لماحة مؤمنة بسطور الوطن كما نقرأها حتى

النخاع ، وانفلت فيما بيننا شعاع، شيء لاندرك كنهه ، لكنه يتسلل في مشاعرنا وينمو ويقارب بيننا، لم ننطقه حروفا، كان سلوكا ملائكيا ينسجم مع عصر البراءة ... وفي شهر مايو من العام ١٩٦٧ ، وكنا منهمكين في دروس نهاية العام، أغلق عبدالناصر خليج العقبة ، قابلتها مصادفة في الشارع ، كانت تحمل كتباً وكراريس، وقد مضت أسابيع على آخر لقاء جمعنا، فرحة اللقاء لم تكن وحدها سر بريق عينيها العسليتين البديعتين ، وإنما شيء آخر ، قالت لي بحماس حاولت أن تسيطر عليه : «خلاص .. جه وقت تحرير فلسطين!!» ، ورغم حماسي الذي لا يقل عن حماسها ، شعرت بما يشبه الزلزال، فقد كانت حروف كلماتها تحمل يقينا لا يقبل الشك أو التفاوض، يقيناً خاماً وكأنه انتزع من هذه الأرض اليت صنعت للمجد اسمه .. في تلك اللحظة وما تلاها من لحظات وأيام وسنين، شعرت بأنني أحمل مسئولية هذا اليقين، وبحتمية حماية بريق عينيها وأحلامها .. لم أذكر شيئا آخر قلناه في هذا اللقاء الخاطف ، فقد انصرفت ، وانصرفت أنا إلى تدريبات الدفاع المدني التي التحقت بها ...

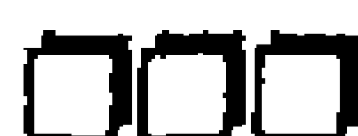
صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ كنت ورفاقي نصطف في ملعب كرة القدم الملحق بالمدرسة الثانوية ، نرتدي زي الفتوة العسكري ،

وأمامنا أحد ضباط القوات المسلحة واسمه الرائد يحيى ، الذى كان يلقى علينا الأوامر الصباحية حين فوجئنا بصراخ وهتاف يأتينا من المنازل المجاورة للمدرسة، بينما يقفز رجل فى إحدى النوافذ وهو يجلجل بصوته : «أسقطنا مائة طائرة للعدو» .



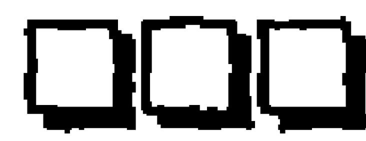
في يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ ... كنت مع عائلتى ننتظر الخطاب الذى أعلن أن الرئيس جمال عبدالناصر سوف يلقيه .. ومنذ اللمحة الأولى التى ظهر فيها وجه عبدالناصر على شاشة التيلفزيون، أدركت أننا فى محنة، خاصة عندما نظرت فى عينيه، خبا البريق فيهما ، بريق الحماس والثقة التى كنت قد شاهدته فى عينى حبيبة القلب قبل أيام ... ولا أدرى كيف تابعت الخطاب حتى نهايته ، ولكننى أتذكر بشدة لحظة النهاية، فقد أفقت على صوت صراخ وعويل، ووجدت نفسى أتجه صامتا الى حجرتى حيث انتزعت صورة كبيرة للزعيم كنت أعلقها على الجدار، وحملتها نازلا الى الشارع حيث وجدت الملايين قد سبقتنى اليه وهى تهتف بصوت واحد، شعاراً واحداً لم يؤلفه أحد، ولم يلقنه أحد ، مجرد كلمة واحدة : «هانحارب» ، تتكرر فى هدير طاغ، وكأنها تريد

بوعى أو بغير وعى أن تعلو فوق أصوات انفجارات قذائف المدافع المضادة للطائرات التى توالت فى نفس الوقت، كأنها رسالة مختصرة من شعب مصر إلى كل من يهمه الأمر، مفادها أن هذا الشعب لن ينهزم ...



منذ ذلك التاريخ البعيد ، مرت تحت الجسور مياه كثيرة، إلا أن أوراقى كانت تحمل دائما وقفة للتذكر والتدبر كلما حل شهر «يونيو» ، ولعل ذلك كان خلف إصرارى فى قراءة ملايين السطور والتفتيش عبر وثائق كثيرة أتيحت لى كى أفهم ، فربما وجدت للجرح القديم رتقا ، ولعل ذلك أيضا كان خلف سلسلة المقالات التى نشرتها متتالية فى مجلة الدبلوماسى تحت عنوان «وثائق أمريكية سرية عن النكسة» ، ورغم أنه كان لى شرف المشاركة ضمن قوات الصاعقة المصرية فى نصر أكتوبر المجيد، ورغم وسام الشجاعة من الطبقة الأولى الذى يزين صدرى ، فلا زلت حتى اليوم أحرص على زيارة هذا القبو المظلم، أحاول بمصباحى الخافت أن أضىء بعض جوانبه الغامضة، وربما هو نوع من الإدمان لهذا الحزن المعتق ، ولكنه بالتأكيد أيضا جهد واع يهدف الى نقل صورة حية لمشاهد فترة من فترات الانكسار ، حتى لا تسقط من

ذاكرة الأمة، وتظل درسا ونبراسا، درسا لا تنقطع فائدته ، ونبراسا يؤكد مقدرة هذا الشعب العظيم على تجاوز أقصى المحن والأحزان ، وأن إرادة الانتصار تحقق المعجزات .



لقد أصبحت رفيقة الدرب القديمة جدة ، مشغولة بأحفادها وبعملها ، مات عنها زوجها منذ بضع سنوات ، تغيرت كثيرا ليس بفعل الزمن وحده، وكانت السنوات قد باعدت بيننا، حيث كان آخر اتصال حقيقى هو رسائلها التى كانت ترسلها لى فى جبهة القتال، كانت سطورا ملتهبة مثلما كانت سطورى أيضا فى رسائلى اليها، الا أن تلك السطور لم تتطرق أبداً إلى ذلك الشعاع الخفى الذى انبعث فيما بيننا، كانت لا تزال متمسكة بالحلم رغم اليأس المسيطر فى سنوات الهزيمة، وكنت واثقا من النصر رغم كل الشواهد التى تشير الى غير ذلك، كانت تكتب لى عن القاهرة كما تراها وتعايشها، وتعلق غاضبة على مشاهد سلبية، وكنت أكتب لها عن قناة السويس ، عن جيل كالرهبان ينعزل فى ملاجىء الخط الأول للقتال، شباب لم يعد لديهم سوى حلم واحد وهدف واحد وهو إزالة العدوان من فوق أراضينا الطاهرة، بإيمان لا يتزعزع بأن ما أخذ بالقوة لايسترد إلا بالقوة .

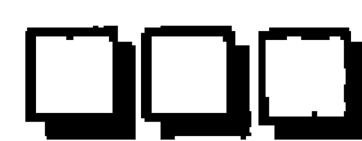
في الجبهة كنا نتبادل قراءة الخطابات التى تجيئنا من الوطن، وكنا نهتم بالطبع وبضرورة عاطفة الشباب، كنا نهتم بتلك الخطابات الغرامية ، وأحيانا كنا نطلب ممن وصله خطاب بديع معطر أن يعيد قراءته لنا مرة ومرة ، وقد كان رفاقى يتعجبون من خطاباتها التى ترسلها ، حتى أنهم منحوها درجة «الباتشويش» ، فيسألونى ساخرين عما إذا كان قد وصلنى خطاب من «الباتشويش» بما تحمله من جدية وتأمل في أحوال الوطن، وكان رأيهم أننا فى الخنادق الأولى ولا نحتاج إلى من يذكرنا بواجباتنا ، ولكننى كنت في كل خطاب لها أرى من بين السطور بريق عينيها القديم ، يدفعنى، يحثنى ، يبارك الغد القادم ببشارة الانتصار ...



قابلتها مؤخرا فى إحدى المناسبات الاجتماعية، ولأول مرة منذ ذلك اللقاء الأخير فى صيف ١٩٦٧ ، لم أكد أتعرف عليها، ولكنها عرفتنى ، أصبحت سيدة عجوزاً، امتلأ وجهها بالتجاعيد ، وقد لفت شعرها بخمار أبيض، لم يعد البريق فى عينيها نفس البريق القديم، تبادلنا أخبارنا ، عرفت منها قصة زواجها ، قالت فى خفر وحياء إنها كانت تنتظر فارسها ، وعندما تأخر لم تمانع فى قبول أول فارس دق باب أسرتها ،

تحدثت بحب شديد عن ذكرى زوجها الراحل ، عن أطفالها الذين كبروا وغادروها واحدا إثر الآخر إلى بيت الزوجية ، وتحدثت كثيرا عن أحفادها خاصة أحدهم التى قالت إنه يشبهنى ، وضحكت معلقة بشىء من المرارة: «هذا الولد المجنون.. يريد أن يحرر فلسطين!!» ، وأغرقنا فى الضحك حتى دمعت عيوننا .. انصرفنا فى النهاية دون موعد لاحق، بل نسينا تبادل أرقام الهواتف ...

وفى طريق عودتى بالسيارة، وبين الظلام المحيط، تعجبت من حقيقة أننا لم نتحدث عن أى شىء يتعلق بالشأن العام، كان الحديث عن الأولاد والأسعار وبعض فتات الذكريات، قلت لنفسى لقد شاخت وشخت وشاخ كل شىء ، ولكننى فجأة تذكرت حفيدها الذى قالت إنه يشبهنى ، لقد وصفته بالجنون لأنه يريد أن يحرر فلسطين، وتمنيت أن أراه ، كى أتأكد أن أوراق الشجرة الباسقة تتجدد ، وأن تلك التى ترميها رياح الخريف، تخلى مكانها لعشرات الأوراق الطازجة ، وأن البريق لم يخفت ، وأن الطريق لم ينقطع...



يونيو .. أيها الدن الذى يحمل أشد الخمور مرارة .. سيظل مذاقك فى حلقى ، ولسوف أواظب على زيارة قبول

المظلم الرطب العفن .. ليس حبا فيك، أو رغبة فى ملء كأس الأحزان .. وإنما لأنك كنت القاتل الذى اغتال سنوات عمرى الذهبية، وقد قررت مطاردتك إلى آخر العمر حتى لا أتيح لك مرة أخرى أن تغتال البراءة فوق أرضنا الطاهرة، وعلى أية حال فإن قليلاً من خمرك المعتق قد يصلح بعض العقول التائهة ...

أما أنت يا وردة الصبا الفائحة، فلازلت أرى بريقك القديم، ولن أعترف أبدا بتلك الصورة الشائخة التى صرت عليها ، فلا زالت سطورك الدافقة دافئة، تحكى عن الوطن والأمل ويقين النصر وحلم الغد الطموح ، سوف يضع حفيدك الزهور على ترابنا ، ولكنه سوف يمضى الطريق ... الطريق الذى اختطف فى صيف ١٩٦٧ ... فسلامى له ، ولكل الرفاق الذين أحبوا هذا التراب المقدس إلى درجة التوحد فيه ...

لحظة انكسار .. نفس لحظة الانتصار !!

يمكن الآن، ربما من وضع أكثر اتزانا وأكثر إلماماً أن نقترب من بعض الحقائق التى كانت خافية، ونختبر بعض الحقائق التى كانت ظاهرة، كى نصل من خلال هذه وتلك إلى حافة الحقيقة .. حقيقة ما حدث !

على حافة النكسة :

لقد مضت سنوات طويلة على ذلك الصيف الحار اللزج الحزين المحير ..

كان عمر الفتى أنذاك خمسة عشر عاماً بالتمام والكمال، يستمتع بإجازته الصيفية بعد أن اجتاز عامه الأول بمدرسة التوفيقية الثانوية، كان - كما اعتاد - يقرأ بنهم وخاصة الموضوعات السياسية والتاريخية والأدبية، يتابع بانتظام وحرص مقالات «هيكل» الأسبوعية التى كان ينشرها فى «الأهرام» تحت عنوان «بصراحة» تلك المقالات التى طالما شهد أفراد عائلته يتحاورون حولها من حين إلى آخر.

وعندما بدأ تصاعد الموقف بطلب مصر خروج قوات الطوارئ الدولية، توجه الفتى من فوره إلى مدرسته وقد ارتدى زى «الفتوة» العسكرى، وهو الزى الذى كان طلبة المدارس الثانوية يرتدونه فى فترات التدريب العسكرى خلال دراستهم، اندفع ضمن رفاقه (السبكى والبرلويلى وغيرهما)

للتدريب على أعمال الدفاع المدنى وحماية المنشآت، ولايزال يتذكر اليوم الأول فى منتصف مايو ١٩٦٧ حين وقف ضمن الصفوف فى ملعب كرة القدم بالمدرسة، بينما وقف أمامهم بعض قيادات المدرسة، وتحدث الرائد «يحيى» المسئول عن التدريب العسكرى فألقى خطابا حماسيا .

لاينسى حين كان على أهبة مغادرة الترام أمام مدرسة التوفيقية، حين أمسكت سيدة عجوز بكتفه قائلة من قلبها : «ربنا يحميكم يا بنى وينصركم» .

كان متشبعا بالحماس، يمتلئ عقله بإنجازات الثورة : القضاء على الإقطاع، وعلى سيطرة رأس المال على الحكم، التصنيع الثقيل، السد العالى، انتصار ٥٦ على العدوان الثلاثى، أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط .. الخ .. يتغنى بأغانى عبدالحليم : المسئولية، قلنا هانبنى وأدى احنا بنينا السد العالى، بالأحضان، صورة .. الخ، يحلم باليوم الذى يستكمل فيه دراسته الثانوية كى يلتحق بكلية الهندسة ليدرس هندسة الطيران كى يساهم فى تطوير صناعة الطيران فى مصر صبيحة يوم الخامس من يونيو، كان الفتى قد توجه مبكرا إلى مدرسته استمراراً للتدريبات، كانوا يصطفون فى الطابور داخل ملعب كرة القدم حين بدأت الحرب، قال لهم الرائد يحيى، وهو يكز على أسنانه «لسوء حظى أن إصابتى

تمنعنى من أن أكون ضمن أولئك الذين سيدخلون اليوم إلى تل أبيب»، بينما كان رجل يقفز وراء نافذة منزله وهو يهتف من وقت لآخر بالأعداد المتزايدة للطائرات الإسرائيلية التى تعلن البيانات الرسمية المصرية أنه تم إسقاطها، كان يقفز بشكل هستيرى لدرجة أن الفتى كان يخشى عليه أن يسقط من النافذة، ولكن الرجل لم يسقط، ولا كانت هذه الأعداد من الطائرات بالفعل تسقط !!

مظلى إسرائيلى فى شبرا :

كان الفتى ضمن مجموعة من أقرانه يقومون بأعمال الحراسة عند كوبرى شبرا المظلات مساء يوم الثامن من يونيو، حين مر عليهم أحد المسئولين وسلمهم ورقة صغيرة بها أرقام لسيارات مطلوب إيقافها والقبض على من فيها، ولم يجب على التساؤلات البريئة التى طرحها الفتيان : هل هؤلاء جواسيس؟ جنود إسرائيليون؟ .. تركهم لتخميناتهم التى استمرت تترى بينهم، ونظرا لحالة الإظلام الدامس اقتضى الأمر منهم إيقاف كل السيارات العابرة وتعطيل حركة المرور ونشوب بعض المشاجرات الصغيرة مع بعض قائدى السيارات الذين تصادف أن أرقام سياراتهم كانت تتشابه فى بعض أرقامها مع القائمة، واختلط فى ذهن الفتيان الشعور بالحماسة وبتملك السلطة فى آن واحد .. لولا أن «السبكى»

همس فى أذن فتانا : «لقد سمعت فى إذاعة لندن أن الجيش المصرى قد انهزم!!» .

صباح التاسع من يونيو، أعلن التليفزيون أن الزعيم جمال عبدالناصر سوف يلقى بيانا هاما إلى الأمة، وفى نفس التوقيت تقريبا حضر بعض المواطنين إلى موقع الفتيان عند الكوبرى ليقول لهم بانفعال إنه تم حصار أحد المظليين الإسرائيليين الذين تم إسقاطهم بالقرب من ميدان الخلفاوى .. أسرعوا وقد جهزوا بنادقهم النصف آلية ، وأثناء المسافة بين موقعهم والميدان، كان فتانا يفكر بعذاب : «ماذا يفعل مظلى إسرائيلى فى ميدان الخلفاوى»؟

كان الزحام شديدا، والناس على مختلف أطيافهم يتجمعون وهم يهتفون بانفعال، ويقذفون بالحجارة وبكل ما تصل إليه إياديهم، وفى مركز الدائرة وقف شاب أشقر يرتدى الأوفارول المموه بكامل السلاح والعتاد وقد سال الدم وغطى وجهه، وهو يصرخ دون أن يبين صوته من كثرة الضجيج .. تمكن فتانا ورفاقة من شق الطريق والوصول إليه، وبصعوبة حجزوا بينه وبين المتزاحمين حوله، وكان أول ما فعلوه هو أن طلبوا منه تسليم سلاحه، فرفض الجندى بعناد وهو يتشبث بالبندقية، ويقسم أنه جندى من قوات الصاعقة المصرية، والمحيطين به يشتمونه بأقذع السباب ويتهمونه بالكذب:

«الإسرائيليون يعرفون العربية أحسن مما يعرفها العرب!!»، «اقتلوا ابن الكلب !!» .. الخ، ولكن السؤال الذي عجز الجندى أن يجيب عليه هو : «ماذا يفعل جندى الصاعقة المصرية فى ميدان الخلفاوى فى قلب القاهرة، بينما المعركة تدور رحاها على مسافة آلاف الأميال فى سيناء؟» .. كل ما يذكره الفتى الآن أن الجندى أقسم وهو يبكى أنه قد صدرت إليهم الأوامر بالانسحاب .. أن كل رفاقه ماتوا .. أنه جوعان وظمآن ويريد أن ينام ..

قطع :

ستمر السنون ويصبح فتانا ضابطا بقوات الصاعقة، ويحارب ضمن صفوفها فى معركة العبور، وينال وسام الشجاعة من الطبقة الأولى، وسيعرف يقينا أن جندى الصاعقة يموت ولا يسلم سلاحه .

....

ها نحارب !!

ضمن عائلته الصغيرة، جلس مشدوداً أمام شاشة التليفزيون، ولايزال يتذكر الحوار المقتضب مع والده قبل أن يظهر عبدالناصر على التليفزيون، كان الفتى يؤكد لوالده أن ما أذيع عن انسحاب القوات المصرية إلى الخط الثانى ما هو إلا استدراج للقوات الإسرائيلية كى تدخل إلى سيناء، ويتم

القضاء عليها قضاءا مبرما حتى ينفتح الطريق إلى فلسطين الحبيبة، وطفق الفتى يلون هذه الصورة بكل ما يملكه خياله الواسع من خصوبة، حتى ظهر وجه جمال عبدالناصر على الشاشة .. في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالذات، أدرك الفتى الهزيمة .. فهذا ليس وجه جمال عبدالناصر، وتلك ليست ملامح قائد منتصر أو لديه أمل في الانتصار.

يتذكر أن قلبه كان يخفق بشدة بينما كان جمال يلقى بيانه، لم تذرف عيناه دمعة واحدة، رغم أن أصوات العويل والصراخ كانت قد بدأت في الانفجار خاصة عندما وصل جمال إلى الجزء الذى أعلن فيه تنحيه عن السلطة .. لقد نهض فتانا بقلب كسير، نزع صورة عبدالناصر الكبيرة المعلقة في حجرته، حملها بين يديه، ودون أن يتبادل كلمة واحدة مع أسرته نزل إلى الشارع .. ولم يكن وحده .. كان هناك رفاقه وآلاف من الرجال والنساء يصرخون، يهتفون.. توجه مع جمع غفير إلى قسم الشرطة القريب، كانوا يصيحون مطالبين أفراد القسم أنْ يسلموهم بنادق، ويتذكر الفتى أن المأمور خرج ووقف مذعورا حائرا على أعلى درجات القسم، وهو يرجو الناس الهدوء، ويقسم لهم أنه ليس لديه سلاح لتوزيعه، وأنه سوف يطلب من رئاسته ذلك، وفي تلك الأثناء تعالت أصوات انفجارات هائلة، كانت المدفعية المضادة

للطائرات حول العاصمة تضرب بشكل متواصل رغم أن أحدا لم يلحظ وجود صوت لأى طائرة قريبة .

ستمر الأعوام إلا أن موقف هذا الفتى - وقد أصبح الآن شيخا - لم يتغير عما صورته لموقف هذا الفتى يوم ٩ يونيو حين نزع صورة عبدالناصر من على الجدار دون أن يذرف دمعة واحدة، وحملها كى يسير ضمن الملايين هاتفا باصرار ودون توقف : « ها نحارب .. هانحارب » .. وبقدر ما كان ذلك رفضا للهزيمة من الناحية النفسية، فإنه كان - وهو الأهم - إصراراً على تجاوزها بالجهد والعرق والدم إذا تطلب الأمر ذلك .. ولا أريد أن أزكى هذا الفتى الذى هو مجرد صورة مجسمة لجيل كامل، فلقد أعطى بالفعل الجهد والعرق والدم، والسطور السابقة هى استمرار لنضاله .

خواطر على ضفاف القناة ..

وضعت الحرب أوزارها على جبهة القتال، وبدأنا نحصى قتلانا وجرحانا وأسرانا، ولأول مرة صباح ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣ شعرت برغبة حادة فى البكاء، وكأننى وقتها فقط شعرت بأحزانى على رفاق السلاح الذين فارقونا، ولكننى كنت حزينا أيضا على أجندتى التى كنت أدون فيها خواطرى ويومياتى أثناء خدمتى على جبهة القتال، فلقد نجح العدو فى التسلل أثناء الثغرة إلى مؤخرة كتيبتنا، ورغم أنه ارتد عنها بعد ذلك إلا أن جنوده استولوا على كل شئ وجدوه فيها، ومن بينها كانت «أجندتى» التى حملت ذكريات وخواطر الجبهة، أروع أيام جيلى ..

كان عزائى هو أن بعض الأوراق التى نثرت فيها بعض خواطرى كنت قد حملتها معى إلى القاهرة فى إجازاتى الميدانية، وكانت هذه الأوراق منذ تلك الأيام البعيدة تشبه تميمة أتبرك بها، ومناديل معطرة برائحة زمن جميل، زمن الشموخ والصلابة والشباب.. الزمن الحقيقى ..

اختناق :

أحيانا أتساءل كيف أصبح الجبل بحرا، والصعود سباحة، والهاوية غرقا، والتيه طفوا، والعمر زجاجة ممتلئة بالدم ذات فوهة واسعة، والبخر علامة هذا الزمن التجارية ؟

أولئك الذين اقتربوا من بعض تحكمات (قوانين) الطبيعة، هل كشفوا لنا أيضا عن تحكمات الدم المتوحش الذى يرتشف دما مسالما؟ .. أليست هذه أيضا طبيعة؟! .. أو لماذا يحلو التعميم بينما الظواهر تكشف عن خصوصيتها، لماذا نفضل الطفو على السباحة؟

لقد فات عمر التأكد والجزم والإبرام، وأدرك عمر الشك والتساؤل والاضطراب، حين الجهل يدق كل الأبواب ويدوس على كل العلوم ويفرغ الأحشاء إلا عن فراغ مرير يتلظى بسائل ملتهب أمر .. كأنما نتزلج على حافة بيضة ملساء معلقة فى فراغ ..

فى إجازتى الأخيرة ، قال لى «أحدهم» : أنتم تحلقون بلا أجنحة ولا حتى خيال ..! .. فهل نحن كذلك فعلا ؟

- تساؤلات :

ربما هى تلك المدينة الغجرية المتحضرة حجبتنا عنك أيتها الحبيبة، أعرف جوعك اللا منتهى لتشرب الذكريات حتى النخاع، ربما تلك «البلكونة» التى تستشرف سرمدية الزمن، حين تتكور الصور في قبضة اللحظة، ويفور القلب ويحدث الانتشاء، حنانيك حبيبتى، أن كل ما حدثتك عنه قديما بينما تشحننى رغبة مؤكدة فى القفز عبر حواجز الأزمنة والأماكن، الآن يستقيم خطابى وتصح عبارتى، إلا أننى تحت نفس

العباءة التى تظللنا بها سويا اتقاء للمطر، أو قد يكون تقاربا للدفء .

قرأت فى الصحف التى وصلتنا من القاهرة مؤخرا خبرا عن اغتصاب أنثى بالقوة، تأملت صورتها مليا، شعرت بالانقباض خوفا عليك .. هل أستطيع أن أحميك وأنا هنا مكبل بسلاحى؟! .. بالمناسبة، لا أعلم إذا كنت قد قرأت كتابات ذلك الرجل حول الإسلام، إننى أتساءل أحيانا : هذا الرجل وأمثاله، ماذا يريدون؟ .. أحترم الجرأة لكننى أحتقر الاجتراء على الحقائق، ومن عظيم الأمور أن ننظر إلى الأمام، لكن فلسفة الزمن هى الاتصال، وها أنذا أناظر الزمان كله والمكان كله مصبوبين فى كوكبة واحدة .. لا جدال أن الدهشة مطلوبة فى زمن غير مثير، لكن مجرد الإثارة لاتعطى الدهشة عمقها الفلسفى، بمعنى التساؤل الجذرى، ومعاناة التحقق، ومتعة الشك، وإرهاصات الوصول .

حروف الدم :

على ضفة القناة، بالقرب من بور توفيق ، أفسح الشلال لنفسه - فجأة - مجراه بين الصخور، فكان طوفان نوح وسفينته، ومن كل طائر وحيوان زوجان اثنان .. أقول للتى غلبت على نفسى إنه لولا انحسار التواضع وغلبة الطابع لنضب المداد واحتشم اليراع، فأنت وأنا بين السطور، وإتأمل

من فيها أنت ومن أنا ؟

تذكرت في موضع حين اتسعت المسافة بين فخذي جبل، ومشت طوابير النمل الأسود حاملة قطع الخبز والسكر إلى جرحه المنفلج عند التقاء العنق بالكتف، قال لي باكيا : « هل أزفت؟» .. وضعت رأسي على كتفه ، حدقت في أشرعة السحاب الراحلة إلى مدن الطوب والرصاص، همست : «لي فيك يا ليلى مرام، والأم في الدين حرام» .. وسدته حفرة ومشيت مقهورا، أتابع بعيني عمود الدخان الصاعد في كبد «سيناء» . أتساءل إن كانت تلك نهاية سنوات التيه، وأوهمت نفسي أني «آنست نارا» .

عودة من الإجازة :

أنا لا أتعطر يا حلوتي، ولكن تلك رائحتي التي تخنقهم .. الإنسان في رحلة الصعود يجد النار التي تهديه والنار التي تحرقه، مسافة غير مرئية بين النار الدليل والنار الحريق، يظن الواهمون أنهم سيمرون بها فإذا هي بردا وسلاما .. قلت لهم - وكان الموت ضبابا يغلف نوافذ المدينة : لست منكم، فانتمائي لزهور برية، لطيور لاتسقط أجنحتها، لنهر لا يتلوث .. أنا من هذا الغروب الدافق الذي يعطي الدماء في الشرايين لونها، أنا نسغة من ضوء فجر تتسع في أحداق الحب التي هي ينابيع حياتي .. أنتم شئ مختلف، دورة مستنقع في زمن

آسن، أسمـاك تعـفنت .. أشـمخ عليكم بكل مـا تقـرأونـه فى الصـفـحـات وتهـزأون، وأعلو علوا كـبـيـرا .. لا أملك من تلك الذات شيئاً هى تملكنى فلا أصير تلك الثنائية المزعجة «ذات + مرآة تعكس شيئاً» !! .. إنما أصـيزها، توحداً، خصوبة، وإثمـاراً، قلت لهم : «أكلتم جـسـدى فـوق كل الموائد، ولم تخجلوا أن تقبلوا دعوة العشـاء على مائدتى .. تلك فاكهتى يا سادة : «كلمة طيبة» ، وشهيتى «الحب»، ولا أهضم إلا لطيف المشـاعر.. وضـعنى أبى فوق مـائدة مـزدحمـة، قـاومت الأيدى المـمـتدة والأفـواه الفـاغـرة، قـاومت التـآكل، فـأنذا فـى عصـر الديناصـورات مـرة أخـرى أقـاوم الانزلاق فـوق ألسنتـهم المعسولة حتى لا أسقط فى أجوافهم اللاسعة ..

النجم وما هوى :

لا أستطيع أن أحصى المرات التى رأيتك فيـها تسبحين بين النجوم، إذن ما أهون إحصـاء قواقع البحار فى أعماقها .. لا أبالغ، أيضـا ليس فى مـقدورى أن أكابر، لقد انفـتحت طاقات زرقاء عاقدة جبينها من الغضب، لكن كانت فى صفحة الصفاء عصافير لها قلوب الأطفال، تتهجى تاريخ الشدو بين مآذن قاهرة المعز .. طالما تطوف بنا على ضفاف القناة، فمن المحقق أن الفجر آت، ولا جدال فى أن يومنا الكسيح وأمسنا الجريح سوف يعلقان فى مشانق النسيان .. أنا لا أحلم، أنت

أيضا تحدثت - أثناء إجازتي - عن تلاشي المسافات، إنه الزمن أيضا ينكمش فيه كل شئ، تتعدد نقاط التماس حتى ليتطابق زمان الحلم وزمان الوعد وزمان التواجد .

لازلت أرى النجم الذى سأتبعه فى «سيناء» حين يكون الموت منجلا يدور على الأعناق بلا تمييز (حين صرخ رقيب فصيلتي ووقع بصرى على نفق الدم المحفور فى صدره أدركت أن رحلة الثأر هي عمرى المكتوب وقدرى المحتوم، جثوت في الوادى المقدس أقرأ في عينيه آخر الوصايا، لازلت أحفظها : « إن الأحفاد يجيئون يوما ويحكون عنا بينما نحن جميعا راحلون، فلنترك لهم أعطر حكايانا : «دمنا» ..

ولو أن بالقلب شغفاً بالحوار، إلا أن طاقة الجسد إشعاعات خطفها النهار، فدعيني أحوار الآن صمت صحراء سيناء الممتدة، وأصف النجوم فى مسبحة ترتيلى، وأشهد الله فى روحى وجسدى ويقينى، فأرى شهوة الزوال والفناء، أستطعم رشفة الحلم الذى هو صحو ويقظة ..

نبوءة :

عصفورتي الصغيرة الحبيسة فى سجن المدينة الخرسانى .. أكتب إليك الليلة وأنا أشعر بأشياء كثيرة، قريبة وبعيدة، تكاد تفيض، لكنها بين الضلوع، أسيرة فى حيز المخ المغلق بعظام غبية، كأنني أود أن أثقب ثقبا، كي أدعها تتسامى،

تخرج إلى حيزها الذى لايقل أبدا عن حدود هذا الوجود الذى بلا حدود .

يا بن النور أنت النور في الدجى، فاحمل القلب إشارة، واللسان بشارة، بعد هذا الجبل سوف تمشى الطريق، فتزود، سوف تظللك سحابة .

وجهك المصرى منحوت فى الجبل، منقوش على راحات الزهور (لم أكن غير طفل يشاكس رمل الشواطئ ، يشيد المدائن ويقصقص صور الجرائد، يحن إلى صدر أم .. لم أبال بمشى الزمان ولا بجبين العجوز الحكيم، ولما تعلمت «اقرأ»، قرأت ولم أتعلم، وقالوا الكتاب طريق ستمشيه سطرا فسطرا ، وأن القبائل سوف تدعوك حكما ، فلا تتوقف عند الكراسى، وخذ من وجيب فؤادك علما ، وسر لاتخف من ظلام الطريق) .

أعلم أننا فى منتصف الجبل، وأعلم كم من عناء، لنأخذ لذة العشق زادا ، وحين يجمعنا الطريق سوف ألقي عليك السلام وأمضى، وأحمل في القلب عنك شدو العصافير كل صباح، وغربتنا التى تضرب كالصخر فينا ، وحين تسافر كل المراكب، وترحل كل الغمامات من الأفق المزدهر سوف أحمل عصفورتى بين كفى وأعلمها الغناء ..

إرهاصات العبور :

عصفورة الجنة التى تحتبس فى صوتها أعذب كلمة .. أريد أن أعلق على آخر حوار لنا قبل سفرى إلى السويس : الجوع يا طفلتى ليس للحواصل الفارغة، الفقر ليس عرى ريش .. لقد فقدت الأقدام خطواتها فى التيه.. السراب يا حبيبتى جسدها وأشرف لباسها رجيع دودة وأشرف شرابها رجيع نخلة .. جنين أنا حينذاك لم أخرج بعد من ظهر أبى، ذرّة سابحة بين ملايين متشابهة، الزحام ليس صراعاً ولهاثاً وعرقاً، ليس رغبة، شىء أكبر وأعمق، صعود متتال، ارتقاء بلا سبيل .. الكون والملكوت أنا، يدور أدور، يساقط طينى أتجلى .. أتجلى .. شفاه ؟؟ .. أى شفاه !! .. النطق الكامن فى المجموع بغير لسان ، ما هيئة كونى ؟ لا أعرف .. ولأين السبحات تولينى؟ لا أذكر .. لكنى فى المجموع «الواحد» بالمجموع «الواحد» .. أعانى فى القرب، أتشكى عجزى والجدارن.. أهفوا لمزيد .. يأتينى .. أهفو لمزيد آخر .. يأتينى .. أتبين أنى لا أروى ويعاودنى الظمأ الحاد المتشوق فتفيض العين وترويني ..

هل تذكرين عندما قلت لك إن حجم الامتلاء هو نفس حجم الفراغ .. لم أغير جلدى لكنه ينسلخ بكل حرائق البارود فيه، بكل ذكريات حبات الرمال، فحين تصير دماء الشهداء عقودا

فى أعناق النساء، فكل كبش يدس رأسه فى مؤخرة كبش، فلن ينزل واحد من السماء.

حبيبتى .. آنست نارا ولكن بقى لى عناء الجبل، وأشعر فى الروح زيغ يميل ، وأخشى التصاق الهوى بالهوى، أنا لست إلا نداء سخياً ولكن ريح الزمان شتات، فإن أدركتنى قوافله لن أضل، وإن غاب عنى فأين الرجاء ؟ .. تمنيت لو أننى كالطيور، أو لم أكن إلا هباء .. أدرك خطانا فإن الطريق اختلف، اغفر لنا ما سلف .. اغفر لنا ما سلف .

التوقيع :

طويت أوراقى القديمة التى حال لونها، ولكن الدهشة لم تنطو.. كنا بالفعل أطفالا فى خط الجبهة ، صرنا بمرور الوقت شيوخاً، لا نتقابل إلا فى صفحات الموتى، والآلة دارت فاغتالت كل الصفحات، لقد كان قلمى ريشة تزركش المدى بالألوان، مزمارا يعزف أنغام الزمان، وخنجرا يشق بطن الصحراء كى تبزغ النبتة المدفونة، وقبسا يتيح لى ضوءا ودفئا وهدى .. نعم .. لقد آنست نارا، ولا زلت أعانى صعود الجبل .

الدم الرخيص ..!!

أصبح عاديا جدا، مألوفا لحدقاتنا المجهدة، فى الصبح والمساء، وفى كل الأوقات، أن نشاهد الدمار والخراب والجثث

المتناثرة فى الأرجاء ، فى شوارع عاصمة الخلافة العباسية، فى أفغانستان ، فى باكستان، فى فلسطين .. دم، دم ، دم .. جفت الدموع في الأحداق ولم تجف الدماء ..

ما هذا الجنون؟ .. اللامعقول صار أكثر من معقول، والعبثية صارت عنوان كل يوم، ومع ذلك، بل ورغما عن ذلك، فلا زالت عواصم الورد والياسمين تدغدغ مشاعر البشر بأنغام حقوق الإنسان والقانون الدولى الإنسانى، لازالت تلك العواصم ترتدى زى الحمل وهى التى تخرج من أحشائها أفتك أسلحة الدمار، وترسم بطبشور الدم مصائر الشعوب المغلوبة على أمرها، أو التى هان أمرها على نفسها فهان على غيرها ..!!

لقاء الحضارات :

فى إحدى تلك العواصم المتلألئة بأضواء الفكر الإنسانى، والتى ترشرش على العالم المجهد نرات من دموع التماسيح، وقف الدبلوماسى الشرقى فى أحد المنتديات كى يقول : «إن الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون هو اسم الرجل الذى كان يرى الجانب الأخلاقى أساسا للسياسة الخارجية، فى إطار مبادئ القانون الدولى، وأن رئيسا أمريكيا آخر هو كوينسى قال فى بلاغة إن أمريكا لاتذهب إلى خارج حدودها بحثا عن وحوش لتقتلها، وإنما هى الدولة التى ترسل أمنياتها الطيبة

بعالم يسوده السلام والمحبة» .. وكأن ذلك صوت تائه فى البرية، أو أصداء لذكريات زمن البراءة والطهارة التى لم يعد يعرفها هذا الزمن المتوحش .

وقفت تلك الطفلة العشرينية الشقراء بعد انتهاء الندوة تتحاور مع ذلك الدبلوماسى الشرقى المخضرم، تسأله أن يحدثها عن المزيد من الحق والعدل والمساواة والحرية، تقول له بدهشة إنها لم تعد تسمع عن هذه المعانى، وأن ما تعلمته فى جامعتها المشهورة يتعلق فقط بقواعد السياسة العملية أو Realpolitik، وتوازن القوى Balance of power، والكثير عن النصر التاريخى للغرب فى الحرب الباردة، وعن صراع الحضارات Conflict of Civilization، سألته من أى مصدر يستقى ذلك اليقين العجيب فى عالم أكثر حبا وعدلا ومساواة، ذكرت له أنها لم تتعلم منذ طفولتها سوى أن «البقاء للأصلح» ، وأن الضعيف لا يستحق الاحترام لأنه قبل على نفسه هذه الصفة ..

كان يسمعها بصبر مشوب بالألم ، فهذا الكائن الرقيق البديع يحمل فى أحشاء عقله بذوراً وحشية، إن ملائكية المظهر تخفى شيطان الجوهر ، ولكنه شعر بالرثاء لها، فهى نتاج حضارة مادية وعصر غير متسامح ، فهى بشكل ما ضحية أيضاً لمفاهيم غرست فيها دون إرادتها حتى أصبحت

جزءاً من نسيجها الفكرى ، وبطبيعة الحال تحدث إليها كمسيح معذب مصلوب على جدران أفكاره وأحلامه ، حاول أن يخترق قشرتها الصلبة كى يصل إلى أعماق فطرتها البريئة، فسرد عليها بعض التاريخ وبعض أدبيات عصر الفرسان والأخلاق، شرح لها الفارق بين مثالية ودرو ويلسون وواقعية تيودر روزفلت، لم تكن مقتنعة تماماً ، وكان ذلك مفهوماً لأنه من الصعب أن يهدم فى دقائق قلاعاً من الصلب غرزت فى أعماقها، واتفقا على مواصلة الحديث عبر البريد الإلكترونى ... وسافر...

بريد الكترونى

فى البداية فكر أن الأمر لن يزيد عن ذلك، وهو ما تكرر كثيراً خلال رحلته الدبلوماسية عبر أقطار الأرض الأربعة ، ولكنه تذكر ذلك الهولندى الذى قابله فى أمريكا اللاتينية ، وكان أكثر تشدداً وتعصباً واحتقاراً لكل ما هو غير غربى، لقد تغير ذلك الرجل عبر حوارات ممتدة ، بل أصبح متحمساً لقضايا الإنسان المغلوب على أمره وخاصة فى فلسطين.. بضعة سطور فى البريد الإلكترونى لن تستغرق وقتاً طويلاً على أية حال .. كتب لها وأرفق بعض صور الدم.. وجاءه الرد فوراً محتشداً بأسئلة أكثر.. أجاب وأرفق مزيداً من صور الدم .. وفوجئ بها ترسل إليه غاضبة أن يكف عن تلك الصور

التي أصبحت كوابيساً تؤرقها وتجرح مشاعرها المرهفة.. فأرسل لها بضعة سطور يشرح لها فيها أن تلك الكوابيس هي حقيقة كل يوم في عالمنا ، وأنها لم تعد تؤذى شعور أحد، فالناس تشاهد كل هذه البشاعة على شاشات التليفزيون أثناء تناول طعام العشاء دون أن تفقدهم الشهية أو يتقيأون ... صارت أمراً عادياً...

أرسلت له سطرين أخيراً تعلن فيهما تقززها من ذلك «الدم الرخيص» Cheap blood وتسـاءل كيف يرضى الناس بذلك ؟؟..

لقد قالت إنه دم رخيص ، إلا أن تكلفته الحقيقية باهظة تصل إلى مليارات يحصلها صناع السلاح والدمار، بل إن التكلفة تزيد على ذلك فهي تعبر عن كرامة بشرية لا تقدر بثمن يتم إهدارها ، وعن ضمير إنساني يفقد حسه ويتبلد ، وعن شعوب تساق إلى مذابحها كما تساق المواشي.. لا ليس دماً رخيصاً، بل هو فكر رخيص ، سياسة رخيصة، وقوة رخيصة... قرر ألا يكتب لها مرة أخرى .. فهي قالب تجمد ولا سبيل إلى إعادة تشكيله سوى بكسره ، إن بحوراً من الدموع لن تغسل ذلك الضمير الذى دربوه على التبلد ، ولن تجدى آلاف السطور والمناشدات في تحريك القلب الجامد ، فدم الضعفاء رخيص في نظرهم ، ولن تزيد قيمته سوى بالمقاومة ، فالحديد لا يفله سوى الحديد .. ولكن كيف ؟!

جهاد النفس :

المقاومة لا تعنى بالضرورة إعلان الحرب على العالم ، ولا هى دعوة للانتحار، المقاومة فى أول ترتيباتها تعنى إدراك نقاط الضعف ومعالجتها ، تحديد العدو بشكل واضح، فلن يكون من المفيد أن يضاف إلى القائمة كل يوم عدو جديد، بل يجب أن يكون الحرص على إزاحة أكبر عدد ممكن من هذه القائمة، فالعدو هو الذى يهدد بالفعل وجودك وحريتك وهويتك ليس هو العدو المتوهم ، أو الذى لا يشتمل تهديده على أمورك الجوهرية ، ثم من المهم الوعى بالذات وبالمعطيات الواقعية لها ، والمحاولة المستمرة لدعمها بما يخدم قضية المقاومة ، فالجسد القوى هو المانع الأول لاختراق الجراثيم والميكروبات ، وجهاز المناعة لأى أمة يتشكل من قوة الاستغناء من خلال الاعتماد الجدى على النفس والثقة بها بغير إفراط أو تفريط ، أن نوقظ فى شبابنا الشعور الوطنى من خلال منهج علمى (وليس عن طريق مباريات كرة القدم!!) ، وأن نزودهم بسلاح العلم الذى يكسبهم مزيداً من الثقة بالنفس، وليس بأسلحة التطرف العاطفية الخشبية التى لا تقتل نملة وتؤذى بأكثر ما تنفع ، ألا نتظالم فيما بيننا ، والفساد أكبر مظاهر الظلم لأنه مثل السوس ينخر فى جذع الأمة فيضعفها ويفتتها ، وأن نكون أكثر صراحة مع النفس من خلال حوار

الشركاء لا حوار الطرش.. باختصار علينا أن نبدأ بالجهاد الأكبر (جهاد النفس) قبل أن نشرع في الجهاد الأصغر (جهاد العدو) الذى ربما لا نحتاج إليه إذا انتصرنا فى الأول..

رغم كل شىء ، قرر الدبلوماسي الشرقى المخضرم أن يرجع عن قراره ويواصل الكتابة للغربية الشقراء على بريدها الإلكترونى ، سيقول لها إن دمنا ليس رخيصاً ، سيصر على محاولة الوصول إلى أعماقها التى لا يشك فى طهارتها كطهارة النفس البشرية بشكل عام ، سيحاول أن يخلصها من قيود الفكر الوحشى التي كبلتها منذ طفولتها ، ربما نجح فى تحريرها من عبوديتها ، والحق أنه لا توجد قضية خاسرة لحق عادل إلا إذا تهاون أصحاب القضية فى متابعتها بكل ما يملكون من وسائل ، وليس أمام المظلومين سوى الصبر والإصرار والمواصلة ، ولن يضيع حق وراءه مطالب..

كتب للغربية الشقراء رسالة حب تستدعى ذكريات عناق الأندلس فى لحظة الوهج الحضارى الإنسانى المتألقة، قال لها إن دمى هو دمك ، ولن أرضى لدمك أن يكون رخيصاً ، فلا تقبلى أن يصبح دمى المسال خبراً من أخبار اليوم العادية...

مقامات الانتفاضة

حمامة بيضاء ، بيضاء وعذراء ، كانت ترفرف فى بهجة بالحياة ، تكتب بمنقارها على سحابة بيضاء «إيمان هوجو» .. انقضت عليها أربعة غربان أو خمسة أو ستة ، راوغت فزعة ، ناورت ، تألقت دمعة في مقلتها ، انقضوا عليها، نكشوا زغب رأسها الجميل نتفوا ريش أجنحتها ، كانت «تفرفر» ، تتطلع إلى كل اتجاه مستنجدة ، وليس إلا الظلام والخوف ومناقرهم وأظافرهم ، وهى تصرخ صرخات مكتومة..

اغتصبوها.. اغتصبوا الحمامة البيضاء العذراء.. في عرض الطريق الدولي العام ، وكفنوها في علم الأمم المتحدة..

(١)

يوم من أيام الله .. يا الله ..

كل ما فى الوجود يردد فى خفوت : أغنيتى .. الزهور هنا، الطيور هناك ، والعطر سابح، والأفق غنى .. يا الله .

قالت لى اليمامة :

– يا بن النور ، أنت النور فى الدجى، فاحمل القلب إشارة، واللسان بشارة ، بعد هذا الجبل سوف تمشى الطريق، فتزود ، سوف تظلك سحابة..

فى الدم الفوار ، فى الماضى العتيق ، صوتها يحمل ألغاز

الشروق ، يصدح البلبل، أنتشى ، أحلق فوق رؤوس النخيل، وجهها العربى منحوت في الجبل، منقوش على راحات الزهور، فهل أستريح ؟..

لم أكن طفلاً يشاكس رمل الشواطئ ، يشيد المدائن، يقصقص صور الجرائد، يحن إلى صدر أم ، لم أبال بمشى الزمان ولا بجبين العجوز الحكيم، ولما تعلمت «اقرأ» ، قرأت ولم أتعلم ، وقالوا الكتاب طريق ستمشيه سطراً فسطراً ، وأن القبائل سوف تدعوك حكماً ، فلا تتوقف عند الكراسى ، وخذ وجيب فؤادك علماً، وسر لا تخف من ظلام الطريق.

مشيت غير عابئ، طرقت مئات الدروب، قطعت رؤوس الجبال، حططت بصدر الوهاد، ونمت قريراً بأحضان صخرة، تحممت بضوء السماء، صادقت من طل الصباح ألف قطرة ، ولا زلت أمشى .. سعيداً بما جاءنى فى المنام، ومس على جبهتى بالسلام ، تيقنت أنى بحضرته فانتبهت ، حاولت نطقاً فجف الكلام، سلاما على من يعشقون السلام، ففى لذة الوصل معنى الوجود، وكل الحقيقة بغير حدود ، فهلا وصلت إلى حيث يفارق الخل خليله؟ أم أن بعد كل جبل طريقاً؟.

رمانى الملك بسر الفلك وقال تأدب ، ثم سلك . قلت : لأين؟، فقال : إلى حيث لا أين ، فقلت : الهوى ؟ . فقال : تعلم ، وقلت : الطريق ؟، فقال : شقاء ونعمة ... قال الملك : ما تظن

برجل يسير ليلاً بغير نجوم؟ ، فقلت : هلك .. قال : خذ ما تشاء ودع ما تشاء ، فقلت : ليس لدى خيار.. قال : خذ ما تشاء ودع ما تشاء ، فكررت وكرر حتى إذا ما حل بى الإعياء عانقنى وقال : نجوت ..

أنا فى منتصف الطريق ، أريد من لذة العشق زادى، وحين يجمعنى الطريق بكم سألقى السلام وأمضى، وأحمل فى القلب عنكم شدو العصافير كل صباح، وغربتنا التى تضرب كالصخر فينا، وحين تسافر كل المراكب ، وترحل كل الغمامات من الأفق المزدهر ، سوف أحمل عصفورتى بين كفى وأعلمها الغناء..

(٢)

الليلة أشعر بأشياء كثيرة ، قريبة وبعيدة ، تكاد تفيض ، لكنها بين الضلوع ، أسيرة فى حيز المخ المغلق بعظام غبية، كأننى أود أن أثقب ثقباً، كى أدعها تتسامى، تخرج إلى حيزها الذى لا يقل أبداً عن حدود هذا الوجود الذى بلا حدود.

ذلك أننى لم أجد متنفساً ، رغم المدن والوديان والأنهار، والخلق.. كل هذا التنوع والتباين ، اللغات ، العادات ، الموسيقى وكأنها خامات أرضية، أو حفريات فرعونية، بعضها تراتيل الفجر ، وبعضها نداءات الباعة فى حوارى وأزقة

«الحسين» .. هل يصح أن أقول إنني أشعر أن الموسيقى هى لهجة الإنسان الأول فى خطابه مع الله ؟..

الناس فى الطرقات ضائعون ، أشفقت عليهم ، وعلى نفسى .. إنهم يرقصون، يمرحون ، يضحكون ، يبكون .. صدمة غيبتنى وأفاقتنى ، شىء كالمستنقع لكنها محاولة للخلاص، كأننى طائر يصطدم بأغصان الأشجار فى محاولاته المستمرة كي يجد منفذاً إلى السماء، لماذا يجب أن يحمل «واحد» خطايا الجميع ؟ يبكى من أجل ضياعهم ؟.. أجسد ذلك الحيوان الذى يغلق صدفيته وينام فى قاع المحيط المظلم ، يخلق فى أحلامه العالم الذى يشتهيه ..

ولكن .. لا يزال طينى مشدوداً إلى نظائره ، لا زال وهمى الجميل مقيداً فى سلاسل المعمورة الأربعة، لا زلت أجهل تطوحات الرياح ، لا زلت ذلك الطفل المبهور أبداً بالمجهول خلف أعتاب كل لحظة ، لازلت أتعقب مالا أعلمه ، وأهرب من أشباح لست أدريها، وفى قرارة العمق منجم من الأمانى كلما نقبت الطريق إليه، تهايلت جدران الشرايين وحاصرتنى كرات الدم وجدائل الأنسجة ..

(٣)

كلما هممت بالسطور ، أعرضت عنى الحروف ، وكلما حفزت الشوق، تدللت أفكارى، وأسفر قلمى عن عقوقه

وأضرب عن المداد..

كان لابد أن أعاود مرة أخرى طريقة الهجاء الأولى، أتلعثم فى المد والنصب والفتح، وأستلهم حروف «العطف» كلها، فربما تعطف المجهول وأمطرنى ما يعيد للسطور خصوبتها ، ولأننى لا أحب حروف «العلة» ، وأعرف أن «المبتدأ» لابد له من «خبر» فإننى أصر على الكتابة، رغم كل شئ ، راجياً ألا يكون ما حرصت عليه فى خبر «كان» . ربما هى تلك المدينة الغجرية المتحضرة قد حجبت عنى صفاء السماء، ولكن جوعى اللامنتهى لتشرب الذكريات حتى النخاع يدفعنى، ربما تلك «البلكونة» التى تستشرف سرمدية الزمن، حين تتكور الصور فى قبضة اللحظة، ويفور القلب ويحدث الانتشاء.. تشحننى زغبة مؤكدة فى القفز عبر حواجز الأزمنة والأماكن ، وها أنذا أناظر الزمان كله والمكان كله، لا جدال فى أن الدهشة مطلوبة فى زمن غير مثير، لكن مجرد الإثارة لا تعطى الدهشة عمقها الفلسفى ، بمعنى التساؤل الجذرى، ومعاناة التحقق، ومتعة الشك وإرهاصات الوصول..

إنه السأم بعينه ، حين تخنقنا حياة المكاتب والصالونات ولقاءات البالونات المفرغة..

(٤)

كم فقدت الأقدام خطواتها فى التيه .. السراب جسدها

العاجى، والظمأ فيها والضياع .. كرم الله وجهه قال (أشرف شرابها رجيع نحلة ، وأشرف لباسها رجيع دوده) .. جاءت جدتى العجوز فى الليل عند الوسادة ، رغم أنها فارقت دنيانا منذ فترة ، سألتنى عن غيابى، شكوت لها من وحدتى، ابتسمت ومسحت شعرى كعادتها : «طفل كبير يا ولدى ، تعيش طفلا وتموت كذلك» .. احتججت بسنوات الركام التى أشرفت على الكهولة ، خدجتنى بحكمة السبعين ، قالت قبل أن تفارقنى: «لم تكن فى الجنازة ، لكننى أراك تقترب»... نغم، كأنه أنفاس وردة عبقرية، يتسلل كالخدر اللذيذ، يسرى فى مناطق غير مرصودة، ليس البدن هو البدن، ولا العين هى التى... شئ أشد حساسية من سائل الأذن ، كيف للكلمة أن تحمل الذى خرست حين ملتقاه الألسنة، جنين أنا حينذاك لم أخرج من ظهر أبى ، ذرة سابحة بين ملايين متشابهة ، الزحام ليس صراعاً ولهاث وعرق، ليس رغبة ، شىء أكبر وأعمق ، صعود متتالى ، ارتقاء بلا سبيل ، الكون والملكوت أنا، يدور أدور ، يساقط طينى، أتجلى .. أتجلى ..

آه.. حجم الامتلاء هو نفس حجم الفراغ ، يتقدم الذبيح والأعناق مشرأبة للسماء تترقب الفداء.. لم أغاير جلدى لكنه ينسلخ بكل حرائق البارود فيه، بكل ذكريات حبات الرمال ، فحين تصير دماء الشهداء عقوداً رخيصة فى أعناق النساء،

فليس لنا عزاء..

فلسطينية من المخيم ، تركت فيه أجزاءها الضرورية (زوجها وطفلها) في بركة من دماء ، شرفها وانتسابها، وهبطت كطائر نازف أمام العدسات، ومضة في نشرة أخبار المساء، ثم أنطفأت واختفت .. تلاشت ..

نعم .. آنست ناراً ، ولكن بقي لي عناء الجبل، وأشعر في الروح زيغاً يميل، وأخشى التصاق الهوى بالهوى، وأنا لست إلا نداء سخياً ولكن ريح الزمان شتات، فإن أدركتني قوافله لن أضل، وإن غاب عني فأين الرجاء؟ .. تمنيت لو أنني كالطيور ، أو لم أكن إلا هباء.. أدرك خطانا فإن الطريق اختلف، اغفر لنا ما سلف.. اغفر لنا ما سلف ..

(٥)

أنا لا أتعطر ، لكن تلك رائحتي التي تخنقهم .. الإنسان في رحلة الصعود يجد النار التي تهديه والنار التي تحرقه، مسافة غير مرئية بين النار الدليل والنار الحريق.. لست منكم، فإنتمائي لزهور برية، لطيور لا تسقط أجنحتها ، لنهر لا يتلوث .. أنا من هذا الغروب الدافق الذي يعطي الدماء في الشرايين لونها، أنا نسغة من ضوء فجر في أحداق الحب التي هي ينابيع حياتي .. أنتم شيء مختلف، دورة مستنقع في زمن آسن، أسماك تعفنت .. أشمخ عليكم بكل ما تقرأونه

فى الصفحات فتهزأون ، وأعلو علواً كبيراً.. لا أملك من تلك الذات شيئاً، هى تملكنى ، فلا أصير تلك الثنائية المزعجة : «ذات + مرآة لا تعكس شيئاً .. إنما أصيرها ، توحداً ، خصوبة ، وإثماراً .. قلت لهم : أكلتم جسدى فوق كل الموائد ولم تخجلوا أن تقبلوا دعوة العشاء على مائدتى .. تلك فاكهتى يا سادة : «كلمة طيبة»، وشهيتى «الحب» ، ولا أهضم إلا لطيف المشاعر.. وضعنى أبى فوق مائدة مزدحمة ، قاومت الأيادى المتدة والأفواه الفاغرة ، قاومت التآكل ..

ها أنذا فى عصر الديناصورات مرة أخرى ، أقاوم الانزلاق فوق ألسنتهم المعسولة حتى لا أسقط فى أجوافهم اللاسعة ، وحلقت فى طاقات زرقاء أتهجى تاريخ الشدو بين مآذن قاهرة المعز، وعصافير الجنة تطوف حولى ، فأرى أنه من المحقق أن الفجر آت ، ولا جدال فى أن يومنا الكسيح وأمسنا الجريح سوف يعلقان فى مشانق النسيان.. سوف يتطابق زمان الحلم وزمان الوعد وزمان التواجد ..

إن وعى هؤلاء هو البرميل الخاوى الذى يحترفون الدق عليه كى يثبتوا وجودهم في عالم مزعج، ومهما هللوا وكبروا لتلك النجمة النجسة، فلازلت أرى النجم الذى تابعته فى ليل سيناء حين كان الموت منجلاً يدور على الأعناق بلا تمييز ، وحين صرخ رقيب فصيلتى ووقع بصرى على نفق الدم

المحفور فى صدره أدركت أن رحلة الثأر هى عمرى المكتوب وقدرى المحتوم ، جثوت فى الوادى المقدس اقرأ فى عينيه آخر الوصايا، لازلت أحفظها، إن الأحفاد يجيئون يوماً ويحكون عنا، بينما نحن جميعاً راحلون، فلنترك لهم أعطر حكايانا «دمنا» ..

(٦)

هكذا .. كان يجب أن أودع آخر الألعاب التى هويتها : الكتابة !!

لم يعد ثم شيء مثير أو مدهش ، الحروف أصبحت كالطبيخ البايت.. الحياة تبدو ظلاً باهتاً، نصف الطريق، نصف الأسى، ونصف المتعة، اختناق وحشرجة الكلمة.. لا شيء ، لا شيء على الاطلاق.. فقط ندعى.. كل ما توارثناه من ثقافات وعلوم لم تكن سوى إدعاءات ، خدعنا السابقون وسنخدع اللاحقين .. ما هو الخير والجمال والحق والعدل؟.. لماذا كلمة «خير» تعنى ما تعنيه مثلاً؟ لماذا لا تكون أى مجموعة أخرى من الحروف مثل «زلعط» مثلاً ؟..

شئمت هذه الأبجدية التى لم تعد تعبر عن شيء ، هذا إذا كانت يوماً قد عبرت عن أى شيء لماذا نتحرك أو نقف ؟.. ذات يوم نسيت شريط المسجل على وضع التسجيل، وكنت استضيف البعض ، وما أغرب ما وجدته فى الشريط بعد

ذلك، وكأنما مجموعة من الصم يتعاركون، هل تحدثنا عن شئ مفهوم ؟ ، هل استمع أحد للآخر ؟.. لا .. فقط كان كل واحد منا يفرغ ادعاءاته كأنما يتقيأها .. لاحظت أيضاً أننا جميعاً كنا نتحدث بصوت عال .. لماذا ؟ .. لا أعرف .. الإنسان الخائف يصرخ من الفزع ، الإنسان المحاصر يعوى، وكذلك الحيوان .. لماذا كنا خائفين ؟ ، ومن الذى كان يحاصرنا ؟ .. لاحظتِ أيضاً تكرار كلمة «أنا» و«أعتقد» .. وضحكت كثيراً لأن «أنا» لم تكن – ولم تعد – تعنى «أنا» .. أما «الاعتقاد» فهو وهم نكرره لأنفسنا وللآخرين كى نتقمص شخصيات أخرى..

ذلك منجم أحزانى الذى خرجت منه متفحماً ، بينما الأقمار الصناعية تنقل صور المذابح الوحشية، والحريق مجرد نيران تليفزيونية ، واشتعالنا للداخل، جرحنا للداخل، نتآكل فى صمت لأن صوتنا أيضاً أصبح للداخل .. فالدخان يملأ أغشيتنا ، وتطفو بين الأوعية كلمات ميتة تلتف حول أغصان الأعصاب لزجة باردة.. وحين يأتى الكرى ، تلكزنا «إيمان هجو» ، نتحسس شواربنا العربية التى سقطت شعيراتها ، نتثاءب ، نتقلب بين أبيات الشعر نستحلبها رغم اليقين بأن الضرع جف وأن الخصب عز...

نبش الحضارات

أحداث كثيرة متنوعة تدافعت متزاحمة على المسرح العالمى خلال الفترة الأخيرة ، ولا أعنى هنا السنوات وإنما الشهور وربما الأسابيع الأخيرة، ليس فقط الفوز الذى أحرزه بوش فى الانتخابات وفاجأ البعض- ولم يفاجئنى - أو التدهور السريع الذى أعقبته وفاة الزعيم أبو عمار، أو تلك المعركة التى تدور رحاها - أثناء كتابة هذه السطور - فى الفلوجة .. إن الأحداث التى أعنيها هى تلك التى تختفى خلف ما ذكرته ، وتدفعه دفعاً إلى اتجاه محدد .. عندما تحدث «فوكوياما» عن «نهاية التاريخ»، وجد الكثير من المعارضة والانتقاد، وعندما تحدث «صمويل هنتنجتون» عن «صراع الحضارات» ، اندفع الكثير من المحللين والمنظرين ليفندوا «نظريته» ويشككوا فى سلامة عناصرها.

ومن ناحية أخرى عندما كانت تفلت من الرئيس الأمريكى بعض العبارات مثل «الحرب الصليبية» و «الإلهام الإلهى» و «العدالة المطلقة» ، كان المعتذرون عنه يسارعون بنفى المعنى الواضح للمفردات ، وإشاعة فكرة أن الرئيس فى الغالب لا يجيد فن الحديث، وليست اللباقة إحدى عناصر قوته، وأنه لا يجب تحميل هذه الزلات النطقية بأكثر مما تحتمل، ومن الملاحظ أن العديد من «المتأمركين» فى الوطن العربى قد تبنوا

هذه الاعتذارات، بل وأضافوا إليها بعض التأكيدات الخاصة بالنموذج الديمقراطى الرائع لأمريكا ، والضمانات الدستورية الخاصة بالفصل بين الدولة والدين، وأن «العلمانية والدولار» هما الإلهان اللذان يعبدان فى هذه الدولة العظيمة.

ولعل السؤال الذى قد يكون كاشفا هو : ما هو العامل الأكثر أهمية فى فوز الرئيس الأمريكى بفترة رئاسة ثانية ؟ ، هل هو حرب العراق؟ ، أم الحزب ضد الإرهاب؟، أم برامجه الداخلية ؟ أم .. ماذا ؟؟..

ودون الدخول فى غابة من التفاصيل التى تؤكد أن الإجابة القاطعة هى بالنفى ، فيكفى أن نشير سريعاً إلى أن بوش الأب لم ينجح فى الحصول على فترة رئاسة ثانية رغم انتصاره العسكرى ، (وضد العراق أيضاً!) ، وأن ابنه متورط حتى أذنيه فى هذه الحرب التى يبدو أنه بعد أن شنها بدأ يبحث عن مخرج منها ، كما أن ما يسمى «الحرب ضد الإرهاب» قد أدى إلى زيادة ملحوظة فيما يسمى بالعمليات الإرهابية بطول وعرض الكرة الأرضية وبشكل غير مسبوق ، بل ربما أدت هذه الحرب وما صاحبها من شعارات ذات مسوح دينية ، ربما أدت إلى تحريض أوسع عجز عنه أسامة بن لادن وأتباعه، بما أضاف لهذا الاتجاه مزيدا من الجنود

ومزيدا من التعاطف والتأييد .

إن أغلب الدلائل تشير إلى أن جورج بوش قد فاز بأجندة دينية واضحة تكشف عن نوع جديد من «المكارثية الدينية» المتحالفة بشكل متزايد مع ما يسمى «المحافظون الجدد» ، والمفارقة هنا أنه بينما يذهب «الإنجيليون» إلى حد المبالغة والتطرف فى الطهارة الدينية المستندة إلى الحقيقة المسيحية كما يرونها، فإن أغلب إن لم يكن كل غلاة المحافظين الجدد يدينون بالديانة اليهودية ، وربما يكون العامل المشترك الأكبر بين الفريقين هو «الصهيونية» بمعناها السياسى والأيديولوجى المعروف .

إن هذا التحالف غير المقدس بالضرورة يتضمن ثلاثة متناقضات جوهرية :

فهو أولاً خروج صارخ على المبادئ الأساسية التى قام عليها المجتمع والتاريخ الأمريكى ، أخذا فى الإعتبار التنوع العرقى والدينى لهذا المجتمع باعتباره بوتقة لانصهار المهاجرين من شتى بقاع العالم ، ثم إنه ثانياً صيغة مؤكدة لنوع من الاستقطاب والانقسام داخل هذا المجتمع قد يصل إلى درجة كارثية ويكفى هنا الرجوع إلى تاريخ الحروب الدينية فى أوروبا ، أما التناقض الجوهرى الثالث فهو أنه

تحالف يؤكد أن «الصهيونية» لا تعبر تعبيراً حقيقياً عن مصالح اليهود ، خاصة أولئك الذين يعيشون فى أمريكا ، لأنه فى حالة ازدياد الاستقطاب الدينى ، فإنه من المرجح أن يتزايد «الإضطهاد الدينى» وخاصة ضد اليهود ، ولعل فيلم «ميل جيبسون» (آلام السيد المسيح) وما صاحبه من جدل يؤكد ذلك .

ولعل هناك من يتساءل عما إذا كان يهدف هؤلاء «المحافظون الجدد» - رغم يهودية أغلبهم - إلى جعل حياة اليهود فى أمريكا لا تطاق إلى درجة إجبارهم على الفرار إلى إسرائيل ؟! ، وهل يؤكد ذلك من ناحية أخرى الدور الذى لعبته الصهيونية وأنصارها فى صعود «النازية» فى ألمانيا ؟ ... فإن طرح هذا النوع من الأسئلة لا يثير مسألة «نظرية المؤامرة» وإنما يؤكد وجودها ..

وبطبيعة الحال لا نزعم أننا نحتكر الحقيقة ، ولكن الطرح السابق قد يبدو الأكثر معقولية لتفسير الأحداث الأخيرة ، والمشكلة ليست فى صواب أو خطأ هذا الطرح ؛ لأنه لو كان خاطئاً فإن أثره لن يتجاوز هذه السطور المتواضعة ، ولكنه لو صح فإن توابعه مخيفة ليس فقط على المجتمع الأمريكى وإنما على العالم كله .

لقد توصل العالم المسمى «بالمتحضر» منذ نهاية الحروب الدينية في أوروبا إلى خطورة أن يتقمص الكاهن دور رجل الدولة أو جنرال الحرب ، والعكس صحيح تماماً ، وذلك بديهى لأن إدارة أعمال الدولة - خاصة فى بعدها الخارجى - تتطلب قدرا كبيرا من المرونة والنسبية ، بينما ينطلق رجل الدين إلى المطلق ، ولننظر مثلاً إلى المساومة أو التفاوض بإعتباره أحد أهم أدوات العمل السياسى للتوصل إلى الحلول الوسط التى تعد المنطقة الحرجة لتقابل المصالح بين خصمين أو متنافسين ، هل يمكن تصور المساومة أو التفاوض على المقدسات أو الثوابت الدينية ؟ حين يعد التوصل فيها إلى حل وسط بمثابة كفر أو تحريف على أقل تقدير ؟ ، إن دراسة للحروب الدينية فى أوروبا - ليس هذا محلها - تعطى إجابة واضحة على ذلك ، بل إن مجرد قراءة عصر (أو عصور) الفتنة فى الدولة الإسلامية يؤكد المخاطر التى نشير إليها .

ولكن هل تقتصر خطورة الأمر على مجرد قناعات لرئيس أكبر دولة فى العالم أو حتى قناعة المجموعة التى تحيط به وتشارك فى صنع القرار ؟ ، الإجابة المرجحة على ذلك هى النفى ، خاصة فى مجتمع مفتوح كالمجتمع الأمريكى

سبق له بنجاح أن واجه كارثة استعباد الزنوج ووصل -.وإن كان ذلك متأخراً - إلى منحهم كافة الحقوق المدنية والسياسية ، كما أنه نفس المجتمع الذى أسقط «المكارثية» إلى مزبلة التاريخ .. الخطورة ليست فى قناعات بوش أو من يحيط به ، وإنما فى اتساع هذه القناعات كى تشكل ظاهرة تزحف كالسرطان على الفكر الأمريكى المعاصر ، وهو ما أكدته نتيجة الانتخابات الأمريكية الأخيرة .

وبداية اتساع هذه الظاهرة لم تكن فى تاريخ ١١ سبتمبر كما يدعى البعض ويزعم المتذرون ، بل إنها تعود إلى إدارة ريجان وما تلاها من سقوط مدو للكتلة الشرقية ، ففى هذا المفصل التاريخى البارز قفز المنظرون من أمثال «فوكويوما» و«هنتنجتون» ومن لفهم كى يطبلوا ويزمروا للانتصار الذى نسبوه إلى تفوق النموذج الأمريكى ، وأستنتجوا من ذلك بعض الاستنتاجات وأبرزها ضرورة سحب هذا النموذج كى يغطى الكرة الأرضية ، وبدأت ملامح الفكر الإمبراطورى تتوغل فى قلب وعقل المجتمع الأمريكى بشكل غير مسبوق ، وأصبحت أدبيات السياسة تتحدث عن الأسس «الأخلاقية» للحضارة «المسيحية» كنقيض لحضارات أخرى «همجية» و«بربرية» ، بل بدأت تتحدث بلا

مواربة عن التوافق الكامل بين مبادئ الديمقراطية والليبرالية وحرية الأسواق مع «الحضارة اليهودية / المسيحية» ، وتعارض ذلك مع الديانات الأخرى ، ومن الطريف هنا أن نعيد للذاكرة أن هذه المزاعم سبق أن استخدمت للمقاربة بين البروتستانتينية والديمقراطية كنقيض للجمود والمحافظة الكاثوليكية .

لذلك فليست مبالغة أن يذكر أن جورج بوش الذى يفاخر دائماً بأنه مولود مسيحى جديد لم يحصل على أصوات انتخابية وإنما على مبايعة دينية ، حيث كانت أهم دعاياته الانتخابية تستند بشكل كبير على مسوح دينية واضحة فى قضايا خلافية مثل الإجهاض وزواج المثليين .. إلخ .

لكل ما تقدم فإن مجرد متابعة الأحداث لن تضيف جديداً لتقدير الموقف والتنبؤ بشكل المستقبل ، فعلى سبيل المثال ذهب البعض إلى أن وفاة عرفات قد أزاحت العذر الذى كان يتخفى خلفه بوش وشارون لعدم المضى قدماً فى عملية السلام ، واستخلص هذا البعض أن ذلك يعنى أن المرحلة القادمة ستشهد خطوات فعالة وملموسة فى هذا الصدد ، إلا أن ذلك يقتضى الإجابة الأمينة عما إذا كان عرفات بالفعل عقبة فى سبيل السلام ؟ ، إن أغلب المحللين

الموضوعيين يعتبرون أن عرفات كان الأقدر على تحقيق السلام ، وبالتالى فإن التفاؤل الذى أبداه البعض لموت عرفات قد لا يكون له ما يبرره ، إذ يجب البحث عن الأسباب الحقيقية لموت عملية السلام ، وربما لن يقودنا هذا البحث سوى إلى ذلك التحالف غير المقدس الذى أشرنا إليه .

والأمر نفسه ينطبق على الاجتياح الجارى فى مدينة الفلوجة ، فالمسألة لا يمكن تصورها فى إطار التمهيد للانتخابات العراقية فى يناير القادم ، لأنه لو كان ذلك صحيحاً فإن أنهاراً من الدماء يجب أن تسيل فى العشرات من المدن العراقية الأخرى ، إنها «الإمبراطورية» التى أسكرها غرور القوة ولا يمكن أن تقبل معارضة خاصة إذا جاءت من أبناء حضارة متخلفة أو همجية كما وصفوها .

إن ما يحدث باختصار هو حلقات من عملية نبش الحضارات ، ربما فى محاولة غير واعية وغير مأمونة لاستخراج ثارات التاريخ من قبورها ، مثلما فعل اللنبى قبالة قبر صلاح الدين فى دمشق حين نفخ صدره قائلاً : «ها قد عدنا يا صلاح الدين !!» ...

إشكاليتى مع الآخر !!

ليس جديداً أن نقول إن العالم قد أصبح قرية صغيرة بسبب التقدم المستمر فى وسائل الاتصال والتكنولوجيا ، والوعى المتزايد بالاعتماد المتبادل بين الثقافات والحضارات المختلفة فى العالم ، والحاجة للفهم والتعاون المتبادل بين الشعوب ، بما يتطلب أن يحترم كل واحد الآخر ويتفهمه ويحرص عليه ، أو فى كلمة واحدة «أن يكون متسامحاً» . ولتحقيق هذا التفاهم ، فإننى أريد أن ألقى بعض الضوء على واحد من الموضوعات الشائكة المثارة فى العالم اليوم وهو موضوع «الإرهاب» والمزاعم التى تحاول الربط بين هذه الجريمة النكراء وبين شعوب أو دين معين مثل العرب والمسلمين أو الشرق الأوسط بوجه عام .

إن الغرب حالياً يشهد حمى الخوف من الإسلام Is-lam-phobia ، خاصة بعد الأحداث المؤسفة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وتزايدت الحملة ضد الإسلام التى تستند إلى حوادث يقوم بها مسلم لتشويه ما يقارب من بليون ونصف مسلم .

من الضرورى أن تتوقف هذه الحملة الظالمة التى يمكن أن تؤدى فقط إلى صراع لا يسعى إليه أحد ، حيث يجب الاقتراب من الإسلام بمنظور جديد بما يساعد على تنمية

التفاهم المتبادل من خلال التعليم المتبادل ، ولا يقل عن ذلك ضرورة أن يعرف الكافة أن «عملية التعليم المتبادل» لم تتوقف، وإن لم تكن دائماً متساوية على الطرفين ، فلقد تعلم الغرب من الإنجازات العظيمة التى حققها المسلمون فى كافة المجالات ، واستطاع الغرب أن يواصل البناء عليها ، فى حين بدأ المسلمون فى التراجع بعد هزيمتهم العسكرية ، ومع ذلك فبعد انتهاء المرحلة الاستعمارية ، بدأ العالم الإسلامى فى التعلم من الغرب بشكل حثيث .

إن ما نلاحظه من تواصل حركة نقل التكنولوجيا ، والتطور الذى يحاول ملاحقة التطور الغربى فى مصر والعالم العربى خلال فترة قصيرة ، يعد أمراً مذهلاً ، ويملؤنى بالأمل؛ لأن المجتمعين (الإسلامى والغربى) يمكن لهما أن يتعايشا معاً ، وأن يتعلم كل واحد من الآخر ، دون محاولة أى من الطرفين أن يفرض على الآخر مواقفه .

ومما يؤسف له أن تصدر تلك التصريحات التى عزت أهمية استمرار حلف الأطلنطى (الناتو) رغم انهيار حلف وارسو ، إلى أنه لمواجهة الإسلام ، وهو يشبه ما يطلق عليه «نظرية صراع الحضارات» ، ولابد من مقاومة هذا الاتجاه غير الصحيح والخطير فى نفس الوقت .

ولكن ما هو الإرهاب ؟ :

إن الإرهاب ليس ظاهرة جديدة ، بل هي قديمة بعمر وجود الإنسان فوق الأرض ، وتاريخ ظهورها الحقيقي يسبق بكثير تاريخ سبتمبر ٢٠٠١ ، وسوف تستمر في الوجود كظاهرة ، لأن ١١ سبتمبر لم يكن بداية التاريخ ، ولا ينبغي اعتباره نهاية التسامح ، وأريد أن أذكر أن الدعوة لتحالف دولي لمواجهة الإرهاب بدأت في مصر ، وكانت فكرة مصرية ، حيث كان الرئيس مبارك هو أول زعيم على مستوى العالم يرسل تحذيراً بأن الإرهاب قد أصبح خطراً ليس فقط على المستوى الوطني وإنما على المستويين الإقليمي والدولي .

وبالتالي فإن الموقف المصري ليس مجرد رد فعل للأحداث الفظيعة التي حدثت في ١١ سبتمبر ، حيث إن مصر نفسها عانت من الإرهاب ، وكانت تطالب مراراً بتنسيق الجهود على المستوى الدولي لمواجهة هذه الظاهرة العالمية .

ولكن من الأهمية بمكان التمييز بين الإرهاب والمقاومة المسلحة المشروعة ضد الاحتلال ، وضرورة عدم الخلط بين المفهومين ؛ حيث إن الشعوب التي ترزح تحت الاحتلال لديها الحق بل وعليها واجب مقاومة المحتل ، وهو حق يكفله ميثاق الأمم المتحدة والمواثيق الدولية ، ولابد من التنبه لمحاولة إسرائيل الخلط بين المفهومين ، ويجب أن يكون التعامل مع

الإرهاب له معيار واحد وبدون تفضيل لأحد .

كيف يمكن قبول المفهوم الذى يساوى بين النضال المسلح من أجل التحرر وبين الإرهاب ، أو ذلك المفهوم الذى يزعم أن إرهاب الدولة ليس إلا حقها فى الانتقام ، وما هو الوصف الصحيح لفرق الاغتيال الإسرائيلية هل تعد إرهابية أم لا ؟ وهل هناك تمييز حقيقى بين «القوة» و«الحق» ؟ ، لابد أن تكون هناك إجابات على هذه الأسئلة .

إن أى مسلم لا يمكنه أن يعتبر الذى يرتبكون بعض الجرائم الفظيعة يعبرون عن الدين الإسلامى ، مثلما لايمكن اعتبار «تيموثى ماكجفى» (الذى دمر مبنى فى أوكلاهوما سيتى) معبراً عن الدين المسيحى ، إن العرب والمسلمين يستنكرون قتل أى إنسان لأنهم يؤمنون بأن الله رحيم غفور ، وبأن القرآن يحرم قتل الأبرياء ، حيث إن الحياة منحة إلهية يجب الحفاظ عليها ، ولكن يجب أن نعرف أن جذور العنف بشكل عام تكمن فى الشعور الحاد بالظلم والمهانة ، وانتهاك كرامة الإنسان ، فالعنف يبدأ عندما تغلق كل الطرق أمام حق الشعوب فى تقرير مصيرها .

ولا أظن أن هناك شكاً فى أن الفلسطينيين كانوا يفضلون بالتأكيد أن يناضلوا من أجل الحصول على حريتهم باستخدام «وسائل محترمة» ، مثل مقاتلات ف ١٦ وطائرات

الهليوكوبتر الأباشى وصواريخ الليزر الموجهة مثل تلك التى يتم تزويد إسرائيل بها ، وأنه لو حصل الفلسطينيون على هذه الأسلحة فإن مشكلة العمليات الانتحارية سوف تنتهى ولكن إلى أن يحدث ذلك ، وطالما ظل الشعب الفلسطينى لا يرى أى أمل فى مستقبل أفضل ، فلا يجب أن يندهش أحد من أن الفلسطينيين يستخدمون ، «وسائل التوصيل» الوحيدة التى يمتلكونها وهى «أجسادهم» !! .

إن الحرب ضد الإرهاب يجب أن تكون فى إطار القانون الدولى والأمم المتحدة؛ لأنه لا ينبغى لدولة أن تتقلد دور الأمم المتحدة ، وإذا سمح المجتمع الدولى لأية دولة أن يكون لها حق تقرير وتنفيذ العقاب خارج نطاق القانون الدولى ، وفى غيبة معاهدات دولية لمكافحة الإرهاب ، فإن ذلك يعنى المخاطرة بأن يصبح العالم أسيراً فى دائرة دموية من رد الفعل ورد الفعل المضاد ، وأن يؤدى إلى نشوء نظام عالمى شبه استعمارى يدار من خلال مجموعة من القوى التى تستحوذ لنفسها حق اتخاذ القرارات المتعلقة بالأمن والسلم الدولى ، وهو ما يشل الأمم المتحدة .

إشكالية فهم الآخر :

إن المزاعم التى تلصق الإرهاب بالعرب والمسلمين قد تزايدت مؤخراً ، دون محاولة دراسة جادة لهذه المزاعم ، .

والرأى العام العالمى يتأثر كثيراً بما يعرض فى أفلام السينما ونشرات الأخبار ، حيث يتم تقديم نماذج نمطية -Stereo typpw للعرب ، تقتصر فى أغلبها على نموذج الشيخ الثرى ، وراقصات البطن والإرهابى ، رغم أن هذه النماذج لا تعكس التنوع فى المجتمع العربى المعاصر وثراء التاريخ العربى .

إن التاريخ يحدثنا عن اختلاط العرب بغيرهم من المجتمعات وما أسفر عن ذلك من انتعاش ثقافي وعلمى وصل إلى ذروته خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن العاشر ، حيث كانت اللغة العربية هي لغة السياسة والعلوم ، حين قام المسلمون وغير المسلمين بترجمة أغلب إنجازات الحضارات السابقة على الحضارة العربية مثل الحضارة الإغريقية ، ولا يمكن لأحد أن يجادل فى الإنجازات التى حققها العلماء المسلمون آنذاك في مختلف فروع العلم .

رغم المفهوم السائد في الغرب وأمريكا عن وجود فوارق كبيرة بين الثقافة العربية والإسلامية وبين الثقافة الأوروبية المسيحية ، فإن العكس هو الصحيح حيث توجد قواسم عديدة مشتركة بين الثقافتين ، ومن الثابت أن المسيحيين واليهود كانوا جزءاً لايتجزأ من العالم العربى ، والأمثلة للتعاون بين المسلمين والمسيحيين واليهود خلال فترة تواجد العرب فى أوروبا لا تعد ولا تحصى ، وما أسفر عنه هذا التعاون من

فائدة لأوروبا فى عصر النهضة .

أكذوبة صراع الحضارات :

إن ما قيل حول مايسمى «صراع الحضارات» هو مجرد أكاذيب لخداع العالم ، فلا يوجد ما يسمى «صراع الحضارات» ، فالصراع قد يوجد بين الأيديولوجيات والدول ، بعكس الحضارات التي تميل إلى التكامل والتوصل في رباط تاريخي وثيق لا ينقطع .

على عكس ما حدث ويحدث فى أوروبا ، فإن غير العرب وغير المسلمين الذين عاشوا فى الدول الإسلامية لم يعانوا من «عدم التسامح» حيث إن غير المسلمين بشكل عام يعاملون بروح التسامح فى العالم الإسلامى وأن العديد منهم أحتل مكانة كبيرة ، وليس أدل على ذلك من أن رفاعة الطهطاوى (الفقيه الإسلامى المصرى) بعد زيارته لأوروبا فى بداية القرن العشرين قال إنه وجد هناك تطبيقا للإسلام .

وعلى الرغم مما نراه على شاشات التليفزيون من تصاعد دينى خاصة فى أمريكا ، واقتراب بعض عناصر هذه الحركة من مراكز صنع القرار ، فإننى لا أظن أن العلمانية الأوروبية تتراجع ، وسبب ذلك هو أننى أرى أن العديد مما نراه ، كمبادئ وأخلاقيات علمانية ، هى فى الأصل مشتقة من المبادئ والأخلاقيات الدينية .

وهنا يجب التفريق بين «التدين المشروع» و«التدين غير

المشروع» (إذا جاز أن نقول ذلك) حيث إن الأول هو الذى يستند بشكل أساسى على جوهر الدين ، وفى هذا الصدد يجب أن نشير إلى هيمنة «الكنيسة» على أوروبا لقرون عديدة، وبشكل يمكن اعتباره «غير مشروع» لأنها لم تلتزم بما نصت عليه المسيحية ، حيث لم تلتزم مثلاً بقاعدة «بع ما لديك وأعط للفقير» ، بل حرصت على تجميع الثروة وفرض الضرائب على الفقراء ، وقد كان ذلك أهم الأسباب التى أدت إلى إخضاع الكنيسة للدولة أو ما يطلق عليه العلمانية .

خلاصة ذلك أنه من الناحية الثقافية لا يوجد حقيقة فصل بين الكنيسة والدولة فى الغرب العلمانى ، وأما مجرد خضوع إحداهما للأخرى ، فقد كانت تجربة الثورة الفرنسية مثلاً واضحة فى هذا الصدد .

أما فيما يتعلق بالإسلام ، فإنه لا يعرف مؤسسة دينية تشبه الكنيسة فى أوروبا ، ولا يوجد ترتيب هرمى لقيادات دينية ، ولا يوجد ما يمكن أن يطلق عليهم المفسرون الرسميون للإسلام ، ولقد كان معظم المفكرين الإسلاميين المعروفين رجال علم وتجارة ولم يكونوا «رجال دين» بالمعنى المفهوم ، والنصوص الدينية الإسلامية متاحة للجميع .

وهناك أمثلة تطبيقية عديدة فى التاريخ الإسلامى ، منها كلمة أبوبكر بعد أن حصل على البيعة (بالأسلوب

الديمقراطى) ، حيث تضمنت أن طاعة الرعية له مرتبطة بممارسات العدل ، وأنه إذا لم يكن عادلاً فلا طاعة له ، كان ذلك في القرن السابع الميلادى ، أى قبل ١١ قرناً من النظرية السياسية التى تحكم أوروبا الآن ، بل يكفى أن ننظر لرابع الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب يمثل فى نزاع قضائى بينه وبين أحد اليهود ، بما يؤكد مفهوم سيادة القانون فى الإسلام ، وكيفية معاملة الأقليات في الدولة الإسلامية .

لكل ما تقدم فإنه يجب عدم الخلط فى المصطلحات ، حيث يجب التفريق بين «الأصولى» Fundamentalist الذى يتبع تعاليم الإسلام بشكل دقيق ، وبين «المتطرف» Fanatic ؛ لأن الأول هو المعتدل ، ويجب عدم النظر إلى العالم الإسلامى من خلال منظور متحيز .

إن الإسلام يحض على الاعتدال ، والعدل ، والتراحم ، والمساواة ، والحرية ، والإخاء وكرامة الإنسان وحقه فى حرية العبادة الذى نص عليه القرآن ، فهل هناك من يمكنه أن يعترض عليها أو يخاف منها ؟.. إن الذين يهاجمون الإسلام اليوم عليهم أن ينظروا إلى تلك الفترة من التاريخ الأوروبى التى تم إغفالها ، وأن يطلبوا من أساتذة التاريخ أن يعلموا تلامذتهم هذه الفترة الهامة من التاريخ ، حيث لم يعرف المسلمون نظيراً لمحاكم التفتيش التى عرفتها أوروبا وعانى

منها المسلمون واليهود .

وبهذا الأسلوب سوف يواصل المسلمون والغرب كل يوم اكتشاف اعتمادهم المتبادل ، شريطة أن يتخلى الغرب عن فكرة إخضاع العالم الإسلامى أو النظر إليه باعتباره عدواً ، لأن المسلمين لاينظرون إلى الغرب من هذا المنظور ، والدليل على ذلك أن هناك العديد من المسلمين يتوجهون للإقامة فى الغرب .

إن الحضارتين (بعكس ما يشاع) متقاربتان ، وأن هذا التقارب ينبع من مفهوم عميق لفكرة التسامح ، وأهم أسباب الخلاف بين العالم الإسلامى والغرب هو إسرائيل التى تلقى كل الدعم والتأييد رغم مواصلتها احتلال الأراضى العربية ولابد أن يفهم العالم خطورة الممارسات الاسرائيلية على السلم والأمن ليس فقط فى الشرق الأوسط وإنما فى العالم كله .

نظرة للأمام :

أرجو أن يرى العالم صورة للإسلام «كشريك» وليس «كعدو» ، بغض النظر عن أى خلافات أيديلوجية ؛ لأن المفاهيم المشتركة للتسامح فى كل الأديان سوف تتيح هذه الشراكة وتؤدى إلى نجاحها ، وهذا خطاب موجه أيضاً إلى النخب العربية والإسلامية فلا معنى لمن يقول أنه متسامح مع

جـاره إذا لم يكن هناك أى خـلاف بينه وبـين جاره ، حـيث إن التـسـامح يظـهر حـين يكون هـناك خـلاف ، وهـذا هـو أسـاس التـعـايش السلمـى ، وهناك جـملة ذات مـعنى تقـول : «إننى اعتدت على اعتبار أى شخص يتصرف بشكل شاذ أنه شاذ ، حـــتى أدركت أن الناس التـى ترى الآخـرين شـــواذ هـم الشـواذ».

مرثية زمن لن يعود

خلال أسابيع قليلة غادر الحياة ثلاثة من أصدقائي ، من نفس الجيل الذى شهد معظم ما شاهدته وأحس تقريباً بنفس المشاعر ، ورأى نفس الأحلام .. غادروا دون أن نتبادل كلمة الوداع الأخيرة ، ولازالت فى خاطرى صورتهم فى أزهى ملامح شبابها ..

إن استرجاع تلك الوجوه الحبيبة التى غادرت دنيانا، وكانت مساحات هامة فى حياتى ، هو استرجاع مؤلم بقدر ما هو ممتع .. فكم أتذكر مثلاً وجه أبى بابتسامته الطيبة ، بنظرته الذكية الثاقبة ، وجه خالى صلاح يشع وسامة وحباً ووطنية ، وجه خالتى كريمة المرحب المشجع دائماً، وجه جدتى، جدى .. أصدقاء العمر الذى سقطت أوراقه .. ملامح توارت تحت التراب، لكنها لا تزال حية فى حشاش أعماقى ، وصفحات ذاكرتى ..

ماذا تبقى من أريج العمر ؟ وما الذى لم تتضمنه دفتى البوم الصور العتيق الذى تراكمت عليه جبال من الأتربة ؟ .. سؤال يتصدر واجهة المشهد الخريفى ، ولكنه ليس السؤال الوحيد ، فقد وصل العمر إلى عتبة النهاية حيث يتزاحم الدائنون للمطالبة بما لهم أو ما قد يكون لهم قبل فوات الأوان .. وأهمهم على الإطلاق الذات أو النفس.

إن مجرد إلحاح هذا السؤال على الخاطر يحمل مسحة نوستالجيا أو استدعاء عاطفياً للماضى، أو محاولة الإستناد إليه كعصا يتوكأ عليها العمر فى شيخوخته ..

آه من تلك الصور القديمة .. ليست تلك فقط المثبتة فى الألبوم المحفوظ، وإنما تلك - الأهم - المثبتة فى الوجدان والعقل، التى تحتجز مكانتها المميزة فى الذاكرة مهما تزاحمت الصور..

منذ أيام علمت بخبر وفاة أحد رفاق السلاح، الذى شهد معى حرب العبور المجيدة ، وكم شهدنا معاً مواقف لم تمحها الأيام ، وكانت لنا حوارات طويلة تبقى منها الشذى وإن ضاعت التفاصيل .. لقد خضنا معاً تجربة الدم والنار ، بكل تصميم على النصر أو الشهادة ، وشاء الله أن نعود سوياً سالمين ، كى نخوض معركة الحياة مرة أخرى ، وأشهد أنها كانت أشد صعوبة ..

وأثناء وجودى فى مكتبى اتصلت بى زوجتى لتقول لى إن التليفزيون قد أذاع خبر وفاة الكاتب الأديب / محمد مستجاب .. ورقة أخرى مشبعة بتفاصيل لقاءات وحوارات ومواقف ، وآخرها عندما التقينا فى أحد المقاهى التى يتجمع فيها المثقفون ، وأوصلته بسيارتى إلى منزله ، وأصر أن أنتظر حتى يبعث لى بآخر مطبوعاته ، وأنزلها لى من شرفته

بالسلة..

أستعيد الآن ابتسامة مستجاب الساخرة، وتعليقاته النافذة بلا تنميق أو تزويق ، أتذكر أحد اللقاءات التى كنا نجريها فى أوائل الثمانينيات لمجموعة من الأدباء على أحد الكازينوهات المطلة على النيل، وفى أحد هذه اللقاءات حضرت أديبة لتقدم لنا أول كتاب لها ، وكانت هذه السيدة على قدر بهيج من الجمال على حد تعبير أحد الحضور، وحين بدأت فى قراءة إحدى قصصها اتضح عدم إلمامها بقواعد اللغة العربية ناهيك عن قواعد القصة، ومع ذلك فقد آثر أغلب المتحدثين إطراءها ومدحها، ربما لحضورها البهيج وربما مجاملة ، إلا «مستجاب» الذى قال لها بحكمة مضيقا عينيه ، وبلهجته الصعيدية الصافية : «أنت يا بنيتى تشوفى لك شغلانة تانية غير الأدب » ، ثم أردف مقهقها : «ربما قلة الأدب أحسن !».

رغم أن صراحته بكل ما فيها من خشونة وسخرية كانت تصيب بسهامها الجميع ، إلا أن أحدا لم يحب الجلوس معه والاستماع إليه، فقد كان بلا منازع أحد أبرز ظرفاء هذا العصر .. رحمك الله أيها الصديق العزيز ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إيهاب الشريف :

كنت قد كتبت الكلمات السابقة قبل أن تصلنى الأخبار عن

اختطاف الصديق إيهاب الشريف فى العراق، رأيت صورته على شاشات المحطات الفضائية، ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى التعليق بأن إيهاب سوف تكون لديه ملاحظات عديدة على الصورة ، ورغم أننى كنت أشعر منذ اللحظة الأولى بما ينتظره من مصير، وذلك لإدراكى بأسلوب الجماعة التى قامت باختطافه ، إلا أننى كنت أحاول الهروب من هذا الشعور من خلال إيهاب نفسه ، تناسيت إيهاب السفير وفكرت فى إيهاب الفنان ، الإنسان ، الزوج والأب ، كان لدى أمل بل وثقة فى أن هذه الصفات النبيلة سوف تكسر قسوة خاطفية ، فهو الفنان الذى التقط بروحه الصافية أروع لقطات الحياة ، وكم كانت تدهشنى بعض لقطاته الفوتوغرافية ، وأسارع بالقول بأنها لم تكن «فوتوغرافية» بالمعنى الدارج ، وقد شرح لى ذلك فى مرات عديدة ، أنها نفس اللقطات التى تصادف كل إنسان فى أى مكان ، إلا أن الفنان المبدع يغوص ويتعمق فى هذا السطح العادى كى ينقب باحثاً عن جواهره ، ولعله فى لحظات الاختطاف المريرة كان يفكر لو استطاع أن يلتقط صوراً خاطفية ، وليته كان قد استطاع ، ربما تأمل فى ملامحهم طويلاً، ومن المؤكد أنه تمكن من اختراق أعماقهم، ولعله أدرك النهاية منذ البداية.

أستعيد بعض سنوات البداية عندما تزاملنا معاً فى العمل

بمكتب الدكتور بطرس غالى حين كان وزيراً للدولة للشئون الخارجية ، كنا نجلس فى نفس الحجرة ، وحين يتاح لنا الوقت بين مشاغل العمل الكثيرة كنا نتجاذب أطراف الحديث عن الفن والحياة والكتب التى نقرأها ، وتلك اللحظات الفريدة التى كنا نقتنصها من بين مناوبات المكتب التى لا تنتهى كى نتناول الطعام ومعنا بعض الزملاء من المكتب فى مطعم قريب من مبنى الوزارة فى ميدان التحرير ، لن أنسى حواراتنا آنذاك ، تعليقات إيهاب الهادئة وابتسامته التى لا تغادر ثغره، وكذلك قوة منطقة وحجته ، فقد كان دبلوماسياً من الطراز الأول.

وكيف أستطيع أن أنسى تلك الإجازة القصيرة التى قمت خلالها بزيارة سوريا حين كان إيهاب يعمل فى سفارتنا هناك، ودعوته الكريمة لى ولأسرتى لتناول العشاء فى منزله ، تلك الأمسية الدمشقية البديعة ، لقد جلست معه فى شرفة منزله ، وتحدثنا فى أمور كثيرة تتعلق بالعمل والسياسة ، ولكننى لم أنس حماسه وبريق عينيه وهو يطلعنى على آخر إبداعاته الفنية، ويقترح أن نقوم سوياً بعمل فنى مشترك ، هو بعدساته وأنا بقلمى ، وكم ضحكنا عندما اقترحت عليه أن نعكس الأدوار ، حيث علق بسرعة أنها ستكون «مصيبة فنية»!!.

ولم يكتف إيهاب بدعوتنا فى منزله ، فقد أصر على أن نقترب من روح الشام ، ودعانا فى الليلة التالية كى نزور دمشق القديمة ونسهر مع القدود الحلبية والأنغام الشرقية البديعة .. وكانت ليلة من ليالى العمر التى لا تنسى ..

كنت أحاول بهذه الصور أن أهرب من إحساسى بالنهاية المحتومة ، ولكننى كنت أعول أيضاً على قدرات إيهاب التفاوضية البارعة ، كنت أقول لنفسى سوف ينجح بلا شك فى إقناعهم ليس فقط بالدور الذى يلعبه ، وإنما أيضاً بأهمية استمرار وجوده الإنسانى لفترة أطول من أجل خدمة القضايا التى نؤمن بها والتى عمل بها إيهاب طول حياته، ولكن ... أصر خاطفوه أن يمنحوه وساماً أرفع من كل الأوسمة التى حصل عليها أثناء حياته ، منحوه الشهادة ... وكانت اللقطة الأخيرة من حياة إيهاب هى أهم لقطة لم يلتقطها .. لقطة غطت الكرة الأرضية كلها تعلن نهاية رحلة إنسان فنان...

هكذا تتعرى شجرة العمر من أوراقها ، تقف عارية فى مواجهة عواصف الأيام ، وسوس الناس الذى ينخر فيها ، إذن هو جيلى يغادر خشبة المسرح فى هدوء، بغير أضواء أو تصفيق أو تهليل ، لقد أدى دوره ولم ينتظر حتى لينحنى تحية للناظرين ، إنه يرفض الانحناء كمبدأ حتى ولو كان لأغراض التحية..

هذا الرحيل المتوالى هو أيضاً إشارة واضحة للتأهب للرحيل، فربما ما تبقى من الوقت لن يكفى حتى لجمع صناديق الذكريات ، فمن ضمن عاداتى المرعية أن أعاود زيارة الكتب فى مكتبتى مرة ومرات ، ولقد تكدست بآلاف الكتب والأوراق والمذكرات ، بل وشرائط الفيديو التى سجلت عليها مئات الساعات الهامة العامة والخاصة ، وملفات مكتظة بالمقالات والقصص التى نشرتها على مر السنوات.. أقف أمام كل هذا الآن وأتساءل : هل سيكون متاحاً أن أقوم بزيارة أخرى لأى من هذه الصحبة التى رافقتنى أياماً وليالى لا تنسى ؟.. إن كل زيارة قد أصبحت تشبه إلى حد كبير زيارة مودع...

أرجو ألا يستنتج أحد مما سبق أن غرضنى هو نقل صورة متشائمة أو يائسة ، فالعكس هو ما أريد ، إنها دعوة للشباب والشيوخ معا كى نحترم الزمن ، فالشباب يجب أن يقبلوا بكل حماس وحب وبهجة لملء صفحات العمر بسطور تكون جديرة بالاسترجاع فى زمن الخريف، والشيوخ يجب أن يعلموا أن الرسالة تبقى ما بقى نفس أخير يكفى ولو حتى لغرس فسيلة فى الأرض، إلا أن الأهم هو أن يدركوا حقيقة أن الضيف الثقيل فقط هو الذى لا يعرف الزمن الذى ينبغى أن يغادر فيه، مثل الممثل الذى يصر على البقاء فوق خشبة

المسرح بعد أن انطفأت الأضواء وانصرف المشاهدون..

إن الموسمية هى سنة الطبيعة ، فالمياه التى تمر فى النهر من أمامنا اليوم غير المياه التى ستمر علينا غدا ، إلا إذا كنا نتحدث عن ماء مستنقع راكد آسن، وهو أمر لا يليق بالطبيعة الحرة المتجددة.. الموسمية هى جوهر الحياة ، إذ بدونها لا تستحق الحياة أوصافها المميزة . أتذكر فى مطلع شبابى أننى كتبت قصيدة عصماء بعد النكسة تحت عنوان «آنست ناراً»، وكان مما جاء فيها : (لا تصغ لصوت يصدر عن شفتين اكتهلتا) .. استعيد الآن هذه الجملة، وأتساءل عما إذا كنت قادراً على توجيه النصيحة نفسها من شفتيى اللتين اكتهلتا؟! .. كم كانت الدماء حارة آنذاك ، وكم كان الجرح عميقا ، إلا أن الإرادة كانت واعية وعاصفة فى آن واحد أتذكر قصيدة أخرى كتبتها بعد عودتى من الجبهة إثر انتصار العبور، ومن بين أبياتها كتبت : «كنا أطفالاً فى خط الجبهة ، صرنا بعد مرور الوقت شيوخ، لا نتقابل إلا فى صفحات الموتى». كم شيخوخة مرت على أعتاب العمر، إلا أن الشيخوخة التى رمت إليها الكلمات السابقة ترتبط بالحكمة والإدراك ، أكثر من ارتباطها بالزمن.

لا ندم ولا حزن على ما فات .. ولا فرحة بما هو آت .. ذلك كل ما استطيع أن أوقع به قبل اللحاق بالرفاق !! .. ولست

في حاجة لأى تفصيل سوى التذكير بأن كل ما فات من أفعال وأقوال، من نجاح وإخفاق ، من أفراح وأتراح، كل ذلك لن يغيره ندم أو حزن ، ومن الخير ألا يدعى المرء الحكمة بأثر رجعي، فلقد عشت هذا الماضي خائضاً تجاربه بما تسنى لى حينها من خبرة وعقل، ولست أقول جديداً إن قلت إنني تعلمت من أخطائى أضعاف ما تعلمت من نجاحاتى ، أما الآتى فهو مهما فعلت أقل كثيراً مما تمنيت ، لأن الأمانى أيضاً موسمية، تتجدد وتتطور مع كل نبضة قلب، مثل سباق تتجدد نهايته كل مرة، وكلما أدرك العداء شوطاً تبين له أنه لا يزال أمامه أشواط أخرى ..

الفك والتركيب

سوريا ، السودان ، العراق ، الصومال.. أربع دول أعضاء في جامعة الدول العربية ، كل دولة منها لها حكاية ، بلا بداية ولا نهاية » على رأى عمنا «نجيب محفوظ» ، ومحاولة الدخول في التفاصيل – مجرد المحاولة – تشبه محاولة مجنون فهم نظرية «النسبية» لاينشتاين» ، ولعل التفاصيل لم تعد تهم الآن، وربما الوضع يشبه بيوتاً مشتعلة أو على وشك الاشتعال بحيث لا يفيد التوقف والتأمل والبحث والتدبير فيما كان في سالف العصر والأوان ، أو لتبادل الاتهامات والاستمتاع بالمعايرة والشماتة.. فما كان كان ولم يعد لدى أحد ترف المماحكة والجدل ، فالنيران مشتعلة أو تكاد ، والمطلوب هو رؤية ما هو كائن وما قد يكون ، وبعد ذلك قد يكون هناك وقت لأولئك المتقعرين كي يبكوا على الأطلال ، أطلال البيوت المشتعلة !!..

هذا ما هو كائن الصومال لم تعد دولة ، السودان يتوزع دمها بين القبائل، العراق على أهبة التشرذم، أما سوريا .. أما سوريا .. فهي على وشك أن تصبح بعضاً مما سبق ..

لقد أوضحت الآنسة «كوندليزا رايس» بعض ملامح «الفوضى البناءة» Constructive Chaos ، ولعل الجميع يعرفون ما هي الفوضى ، فلا شك أنها سمة واضحة للعيان

لا تحتاج إلى شرح أو تفصيل ، ولعلى أطلق عليها اسم «الفوضى المنتظمة» Organized chaos ، وهى نوع من الفوضى التى أصبحت من طول المعاشرة جزءاً من النظام العام ، ولا أظن أن أحداً يمتعض منها (سوى قلة مارقة لا تزال متعلقة بأفكار مثالية ليس هذا زمانها وليس هؤلاء ناسها) ، فهى الفوضى اللذيذة التى يتمتع بها الجهول والكسول وأكلة الفول ، هى الفوضى التى يعمى فيها البصر والبصيرة ، فالكل يعيش فى بلهنية وليس أبدع من ذلك لاستقرار الحال والدوام ، فوضى بلا رابط أو ضابط ، أو بالضبط «مولد وصاحبه غايب» كما يقول أهل البلد..

الآنسة «رايس» فهمت «الفولة» ، فهذه الفوضى اللذيذة رغم أنها قدمت أحلى الفوائد لأمريكا أثناء الحرب الباردة ، إلا أنها الآن مصدر صداع، بل أكثر من ذلك مصدر طائرات تخبط فى عمارات أمريكا الشاهقة ، فلا مانع من الفوضى المحلية فى هذا القطر أو ذاك ، ولا مشكلة فى الفوضى الإقليمية ، ولكن تصدير الفوضى إلى أمريكا أمر محظور ، حتى ولو قال أحد أن تلك بضاعتها ردت إليها ! .. فمثلاً لم يكن هناك مانع من خلق فوضى «الحرب المقدسة» على أرض أفغانستان إبان الاحتلال السوفييتى لها، حين كان خبراء المخابرات المركزية يرتلون على شباب المنطقة آيات الجهاد

والشهادة، ويغنون أكثر التفسيرات تطرفاً وتهافتا ، فقد كان ذلك مطلوباً وبشدة ، ولم يكن هناك مانع من مساندة الرجعية والسلفية (فى السياسة والدين) ، ولم يكن هناك مانع من تسليط أشعة الفوضى على فكرة القومية العربية ، فذلك كله محمود ومرغوب آنذاك ، وفي هذا الزمن الفوضوى اللذيذ كان «صدام حسين» طفل واشنطن المدلل، ولم لا ألم يكن قاتل بالنيابة عنهم وعن أهل الخليج حرباً ضروساً ضد إيران ، ونجح أن يضرب عصفورين بحجر : حيث عطل مسيرة الثورة الإيرانية لمدة تناهز عشرة أعوام ، واستنزف مقدرات الشعب العراقى التى كانت تؤهله كى يحتل مكانة مميزة فى العالم، بل وأستطيع أن أضيف أن خدمات صدام الخاصة فى هذا الصدد قد شطبت العراق من حسابات القوة العربية الشاملة (وقد كانت تلك مصلحة استراتيجية إسرائيلية بقدر ما هى أمريكية ، وليس هناك فارق كبير على أى حال) ... فى زمن الفوضى المنظمة كانت واشنطن وغيرها من حواضر العالم المتحضر (أو الذى يصف نفسه بذلك) أبواقاً تردد شعراً ونثراً مديحاً فى الاستبداد ورموزه وهجاء مريراً ضد حاملى مشاعل النور والحرية، كانت تلك الحواضر المتباهية بزخرف القول والمعانى الإنسانية ترسل أدوات القهر وتدرب السجانين وتبنى الزنازين ، وتتباهى بلا خجل باستقرار وجمال الشرق

الأوسط، وسيولة بتروله ، وصلابة إيمانه في مواجهة المد الشيوعي الملحد.. حتى عند انكسار يونيو ١٩٦٧ تبادلت تلك الحواضر أنخاب الأمل بمزيد من الفوضى المنظمة، أو المسيطر عليه Controlled chaos.

إلا أن هذه الفوضى الممتعة - وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي - لم تعد بهذا القدر من المتعة، فلم يعد للغضب المكبوت متنفس تجاه شبح «وهم التغلغل الشيوعي» ، وفقدت المنطقة أهميتها الاستراتيجية من هذا المنظور ، ولم يعد فيها ما يهم سوى أمرين بلا ثالث: البترول وإسرائيل.. وكان يمكن أن يبقى الحال على ما كان ، لولا أن «العفريت» قد خرج من القمقم ، وبدا أن المنطقة التي غسلوها من أدران القومية العربية على وشك أن ترتدي دروع الإسلام كي تتوحد تحت راية لديها منهج وطريق وتاريخ وتجارب ، فوجئ الجميع بنظرية تتولد من بين هشيم «الفوضى المنظمة» بشكل فوضوي أيضاً ولكن بلا سيطرة Uncontrolled chaos . لذلك أدركت الآنسة «رايس» ومن لف لفها من أخيار «المحافظين الجدد» أن نعيم الفوضى المنظمة قد أوشك أن يتحول إلي جحيم ، ومن بين الأدخنة المتصاعدة من توأمي برج التجارة العالمي في منهاتن بزغ شعاع فكرة «الفوضى البناءة» ، فهم لا يريدون نظاماً أي نظام لهذه المنطقة لأن ذلك

خطر استراتيجي لا يقبلون به ، فالمطلوب هو استمرار «الفوضى» ولكن بثوب جديد..

وبدأ البكاء على «الديمقراطية المسكوبة» ، و «حقوق الإنسان المهدرة» ، و «تمكين المرأة المغلوبة على أمرها» ، و «حقوق الأقليات» ، و «الفساد» ... وهكذا أصبح مثلاً «صدام حسين» المدلل عدو البشرية رقم واحد ، وأصبح الفكر الرجعي والسلفي مفرخة توايد الإرهاب ، وهكذا بدأ الغناء على «نوتة» أخرى ولكنها تحمل نفس اسم سيمفونية الفوضى..

ومن أسس الفوضى أنه للخروج من وضع فوضوى إلى آخر .. ينبغى أولاً تفكيك الموجود وتركيب المأمول ، والتفكيك - بداهة - لا يتم بين ليلة وضحاها، ولكن يجب أن يتم على كافة المستويات ، والبداية تكون مع بعض المسامير الاستراتيجية على الخريطة (العراق ، السودان ، سوريا .. إلخ) ، بحيث تتطاير تلك الخريطة فلا يصعب خلخلة بعض المسامير الأصعب، وخلال ذلك يتم تفكيك الفكر السائد وتركيب فكر مناسب، لذا نجد «سوا» و «الحرة» وبعض منظرى «الوقوعية» من النخب العربية ، وبتفكيك العراق مثلاً يتم تركيبه «الديمقراطى» بشكل يضمن استمرار الفوضى ولكن فى شكلها المسيطر عليه، ونفس الوضع فى السودان وهكذا دواليك (وهل هناك فوضى أكثر من شكلها الدموى

الحالى فى العراق ؟!).

والحقيقة هى أن الواقع العربى أضعف من أن يصمد لهذا المخطط الجديد ، فلا زالت آثار «داحس والغبراء» تحكم عقول القبائل، رغم أن النيران التى اشتعلت فى بعض البيوت العربية توشك أن تمتد إلى غيرها، وكأن الجميع ينتظرون زمن الأطلال كي يبكوا عليها، بينما تضحك الآنسة «رايس» وعصبتها لنجاحهم فى تسويق بضاعة «الفوضى البناءة» فى أسواق الشرق الأوسط التى اشتهرت بالشطارة فى الفصال والجدال ، ولكنها اعتادت مع ذلك على أن تبيع رخيصاً وتشترى غالياً، والمزاد اليوم معقود لبيع شقيق عربى آخر...

ما بعد العولمة .. نهاية الدولة ؟

بانتهاء الحرب الباردة وظهور الولايات المتحدة الأمريكية منفردة كقوة عظمى بلا منافس على الصعيد الدولى، توالت التحليلات حول شكل النظام الدولى الجديد، وعن مستقبل العلاقات الدولية فى إطار هذا النظام.

ومن ناحية أخرى ثار التساؤل عن مدى صلاحية القانون الدولى الذى يستند إلى مبدأ السيادة المتساوية بين الدول فى تنظيم العلاقات فى زمن العولمة؟ ، حيث إن أول مظاهر هذا الزمن الجديد هو أن الدول لم تعد لها القدرة المنفردة فى السيطرة على أسواقها، وكذلك تزايد نفوذ المنظمات غير الحكومية بشكل غير مسبوق.

إن العولمة فى مظهرها الخارجى تعبر عن نفسها فى شكل الانفتاح الاقتصادى ، بينما فى مظهرها الداخلى تتمثل فى ازدياد تغلغل منظمات المجتمع المدنى فى الحياة السياسية.

ومن الأمثلة الصارخة التى تثيرها الدراسات الدولية المعاصرة ، هو التساؤل عما إذا كان ميثاق الأمم المتحدة قد تحول من كونه اتفاقية متعددة الأطراف إلى دستور حاكم فى العلاقات الدولية؟ ، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً، وبالمقارنة بالمفهوم الدستورى الوطنى، ما هى ضمانات التوازن والفصل بين السلطات المختلفة التى يوفرها ذلك «الدستور»؟.

إننى أعتقد أن القوة كانت موجودة دائماً، وتواجد معها القانون بشكل أو بآخر، ولكن فى العلاقات الدولية عندما تصطدم القوة بالقانون تكون المحصلة هى أن المنتصر هو قانون القوة، فعلى سبيل المثال عندما تم اغتيال الأرشيدوق فرذناند، أصدرت الإمبراطورية المجرية النمساوية إنذاراً إلى صربياً يحمل شروطاً تعجيزية بحيث لا يمكن للأخيرة أن تقبلها، وقد ترتب على ذلك بالطبع ما نعرفه جميعاً عن بدء الحرب العالمية الأولى، ولكن قد لا يعرف الكثيرون أن صربيا قد أجابت على هذا الإنذار باقتراح قانونى وهو عرض النزاع على المحكمة الدائمة للتحكيم فى لاهاى، وبالطبع لم تكلف الإمبراطورية نفسها مجرد عناء النظر فى هذا الاقتراح، فهى تملك القوة، والقوة هى التى تصنع القانون.

وقد ترتب على الحرب العالمية الأولى ظهور المدرسة المثالية التى رأت وضع أساس «مؤسسية العلاقات الدولية» فى إطار قانونى ملزم كعلاج للنظام الدولى السابق الذى كان يستند إلى نظرية «توازن القوى» فى العلاقات الدولية، وبناء على ذلك أنشئت عصبة الأمم.

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية، سقطت المدرسة المثالية فى العلاقات الدولية والقانون، وإن لم يتخل الفكر العالمى عن مفهوم «مؤسسية العلاقات الدولية»، ولكنه رواج

بينها وبين نظرية توازن القوى التى عضدتها الحرب الباردة، وهكذا أدى سقوط المدرسة المثالية إلى ظهور المدرسة الواقعية، وقد كانت هذه المدرسة الأخيرة تربط دائما بين المدرسة المثالية وبين القانون الدولى، حيث رأت أن وهم المثالية بما أقامته من مؤسسات دولية قد أدى إلى إغفال واقع الحياة السياسية الدولية بما أدى فى النهاية إلى حرب عالمية مدمرة، وكان على رأس من تبنوا هذه الفكرة الكاتب الأمريكى الشهير هانز مورجنثاو، ومواطنه جورج كينان.

ولقد ولج العالم فى ظل العولمة إلى المرحلة الثالثة، حيث يتبنى أصحاب الواقعية الجديدة فكرة أن العلاقات بين الدول تحكمها المصالح العليا لكل دولة على حدة، ولا يعترفون بأى أثر أو جدوى للقانون الدولى إلا فى الموضوعات التى ليس لها اعتبار كبير فى حدود تلك المصالح العليا للدول .

وفى الإطار السابق نرى أن مجلس الأمن قد أصبح جهازا للتشريع الدولى والتنفيذ فى نفس الوقت، وذلك فى غياب سلطة قضائية دولية واضحة واختصاصات قانونية محددة، دون أن نجد فى الفكر الليبرالى الغربى أى تفسير لقبوله بمفهوم الجمع بين سلطات التشريع والتنفيذ إلا فى تسليمه بسلطة ديكتاتورية دولية .

فعلى سبيل المثال، نجد أنه فى الحالات التى قام فيها

مجلس الأمن بتفويض بعض الدول لاستخدام القوة (مثل العراق والصومال وكوسوفو .. إلخ)، رأى المدافعون عن هذا الإجراء أنه مبرر على ضوء عجز مجلس الأمن نفسه عن تفعيل المادة ٤٣ من ميثاق الأمم المتحدة والخاصة بإنشاء قوات تابعة للأمم المتحدة، ولكن لم يجد هؤلاء أية غضاضة فى أن ذلك التفويض فى حد ذاته ينتهك مواد الميثاق نفسه، كما أنه يتناقض مع المبادئ القانونية المعترف بها بالنسبة للتفويض، حيث لاينبغى أن يتجاوز التفويض سلطات الأصيل (مجلس الأمن)، كما أنه من غير الجائز التفويض فى المسئولية.. والواقع فإن أى تفسير لقرارات مجلس الأمن فيما يتعلق بالعراق مثلا لا يمكنه أن يضع تكييفا قانونيا لهذا التفويض المطلق، وذلك بالتأكيد يلقى بظلال من الشك على شرعية النظام الدولى فى زمن ما بعد العولمة .

يمكن القول إذن باختصار أن هناك تراجعاً واضحاً للقانون الدولى فى مواجهة متغيرات السياسة الدولية، ولعل ذلك يتطلب ضرورة إعادة النظر فى نظام القانون الدولى الحالى كى يتم تعديله ليتماشى مع هذه المتغيرات، ويضع لها قواعد واضحة محددة.

فعلى سبيل المثال أصبحت الحاجة ملحة لتعديل ميثاق الأمم المتحدة فيما يتعلق بتشكيل واختصاصات أجهزة

المنظمات الدولية وعلى رأسها مجلس الأمن، وذلك لايتحقق فقط من خلال زيادة عدد المقاعد دائمة العضوية، وإنما من خلال إلغاء تلك المقاعد الدائمة ومعها حق النقض باعتبار ذلك متناقضا مع جوهر ديمقراطية العلاقات الدولية أو «العولمة»، ونفس الأمر ينطبق على محكمة العدل الدولية بما يتيح لها أن تلعب دورًا أكبر في تحقيق السلم والأمن الدوليين.

لايجب أن نغفل أن ميثاق الأمم المتحدة بكل ما يحمله من قواعد تخدم البشرية جمعاء، لم يكن سوى معاهدة جماعية لأولئك المنتصرين فى الحرب العالمية الثانية، ولذلك فهو لايعكس بالضرورة حقيقة النظام الدولى التى طرأت إثر المتغيرات الهائلة خاصة بعد انتهاء للحرب الباردة، فرغم ما يكتب وما يقال عن «التحالف الدولى» أو «الإجماع الدولى»، فإننا لاينبغى أن نختبئ خلف هذه المسميات، لأن الحقيقة هى أننا أمام إرادة عالمية منفردة تمثلها القوة العظمى الوحيدة فى العالم الآن وهى الولايات المتحدة الأمريكية، أو على أحسن تقدير هى إرادة مجموعة من الدول التى هى الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن.

إن ما تعنيه العولمة فى منظورها...

محاكمة المسئولين عن الجرائم الدولية

متى يمكن قبول دعوى أمام المحاكم الوطنية ضد أحد المسئولين فى دولة أجنبية؟ هل يمكن مثلا أن نتصور قيام عائلات بعض ضحايا فلسطين برفع دعوى قضائية فى محكمة عربية ضد رئيس الوزراء الإسرائيلى إيريل شارون؟

فى البداية نقرر أنه كقاعدة عامة يتمتع رؤساء الدول والحكومات ووزراء الخارجية بالحصانة القضائية، سواء كانت حصانة وظيفية functional Immunity أو حصانة شخصية personal Immunity، والهدف من هذه الحصانة هو الحفاظ على حسن وانتظام العلاقات الدولية، ويمكن أن يضاف إلى هذه الحصانة بعض العناصر العرفية الأخرى مثل قواعد المجاملة الدولية، ومبدأ المعاملة بالمثل .

إلا أن تطور القانون الدولى مؤخرا قد شهد بعض الاتجاهات القضائية والفقهية التى تمهد الطريق لاستثناءات عديدة على هذه الحصانة، وفى واقع الأمر يمكن تتبع هذه الاستثناءات بدءا من ميثاق محكمة نورمبرج والأحكام التى أصدرتها ضد قيادات الرايخ الثالث فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وصولا إلى النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية .

وقد شهد القضاء الدولى مؤخرا بعض الحالات التى

طرحت هذا الموضوع بقوة، ومنها مثلا القضية التى رفعت فى بلجيكا ضد وزير خارجية الكونغو، وكذلك القضية التى رفعت فى فرنسا ضد العقيد القذافى .

محاكمة وزير الخارجية الكونغولى :

فى ١١ إبريل ٢٠٠٠ أصدرت السلطات البلجيكية أمرا بالقبض على عبدولايا يروديا وزير خارجية الكونجو لاتهامه بارتكاب جرائم تعد انتهاكات جسيمة لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، والبروتوكولات المكملة لها، ولاعتبارها كذلك جرائم ضد الإنسانية .

وقد استندت هذه الاتهامات على الخطابات التى ألقاها المذكور وتضمنت الحض على الكراهية العرقية فى شهر أغسطس ١٩٩٨ مما أدى إلى مجزرة للمئات من قبيلة التوتسى، حيث تقدم ضحايا هذه المجزرة وغيرهم ممن يحملون الجنسية البلجيكية إلى المحكمة.

وقد صدر أمر القبض طبقا للقانون البلجيكي الذى صدر فى ١٦ يونيو ١٩٩٣ الخاص بمعاقبة الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف للعام ١٩٤٩ والبروتوكولات الملحقة بها والصادرة عام ١٩٧٧، والمعدل بالقانون الصادر فى ١٩ فبراير ١٩٩٩ الخاص بمعاقبة الانتهاكات البالغة للقانون الدولى الإنسانى .

فقد أصبحت هذه الجرائم مؤثمة فى بلجيكا بغض النظر عن مكان ارتكابها أو جنسية مرتكبيها أو ضحاياها، حيث يمكن إقامة الدعوى ضد الشخص المتهم رغم عدم وجوده فى الأراضى البلجيكية، ولم يستثن القانون أولئك المتمتعين بالحصانة الخاصة بالأفعال التى تتم بصفة رسمية .

وعندما صدر أمر القبض كان وزير خارجية الكونغو لايزال فى منصبه، ولذلك احتجت حكومة الكونغو بأن النشرة الدولية للقبض علي وزير خارجيتها قد انتهكت القانون الدولى العرفى التى تقضى بحصانة وزير الخارجية من أية إجراءات جنائية ، كما انتقدوا القانون البلجيكى نفسه لاعتماده وضعية الاختصاص القضائى العالمى بما ينتهك السيادة الإقليمية للدول الأخرى ومبدأ السيادة المتساوية، وعلى هذا الأساس طلبوا من المحكمة أن تعلن أن إرسال هذه النشرة الدورية هو إجراء غير قانونى، مع التعويض عن الأضرار المعنوية التى تسبب فيها ذلك للكونغو، وإبطال أمر القبض والتخلى عن مطالبة باقي الدول للتعاون فى تنفيذه .

وفى نوفمبر ٢٠٠٠، حدث تعديل وزارى فى الكونغو، ترك فيه وزير خارجية الكونغو منصبه واحتل منصب وزير التعليم، وقبل ذلك كانت الكونغو قد تقدمت بطلب لإجراءات مؤقتة بخصوص طلب القبض على أساس أنه يحد من قدرة الوزير

على السفر وممارسة مهامه كوزير للخارجية، وقد رفضت المحكمة الطلب.

ورغم أن طلب القبض كان موجودا فإن المنصب الجديد للوزير المذكور لايتطلب أسفارا عديدة خارج القطر، وبالتالى فقد خفف ذلك من أى أضرار مستقبلية لهذا الطلب.

وفى إبريل ٢٠٠١، عندما تم تشكيل الحكومة الجديدة فى الكونغو، لم يعد المذكور يحتل أى منصب وزارى، وحينذاك طلبت بلجيكا من المحكمة أن تعتبر القضية منقضية حيث لم يعد هناك نزاع قانونى بين الأطراف، ومن ناحية أخرى سحبت الكونغو طلباتها بشأن الاختصاص العالمى على أساس أنه مجرد انتهاك للحصانة المطلقة من الإجراءات الجنائية لوزراء الخارجية أثناء احتلالهم لمناصبهم .

وقد رأت أغلبية الآراء فى المحكمة أن اختصاصها قد ثبت فى النظر فى القضية منذ التاريخ الذى رفعت فيه الدعوى، دون أن يتأثر ذلك بالأحداث التالية على هذا التاريخ، وعندما بدأت الإجراءات بعد هذا التاريخ، كان هناك نزاع قانونى يتعلق بمدى قانونية أمر القبض، ومن الصحيح أن الأحداث التالية قد تجعل الدعوى بدون هدف وبالتالى فإن الفصل فيها ليس ضروريا، إلا أنه فى هذه الحالة لم تؤد إلى نهاية النزاع.

إن قانونية أمر القبض لاتزال محل نزاع، بالإضافة إلى

أن الكونغو لم تزعم أنها كانت تتحرك فى إطار حماية مواطنيها وبالتالى فإن مركز المذكور الحالى لايؤثر بأى شكل على ما إذا كانت حقوق الكونغو قد تم انتهاكها .

حصانة الوزير :

ونتيجة لتعديل الطلبات، فإن مسألة الحصانة كانت هى المسألة الوحيدة للنظر أمام المحكمة، وقد بدأ ذلك بمراجعة المعاهدات ذات الصلة، حيث تبين أنه لايوجد ما ينظم هذه المسألة سوى القانون الدولى العرفى، وقد رأت أغلبية المحكمة أن تطبق تحليلا وظيفيا لما يقوم به وزير الخارجية فى العلاقات الدولية، وتوصلت إلى أن وظيفته تتطلب السفر المتكرر وبالتالى يحتاج إلى الحرية لممارسة ذلك، فضلا عن أن مركز الوزير يشبه رئيس الدولة أو رئيس الحكومة من حيث إنه يمثل الدولة، وبناء على ذلك فإن الوزير يتمتع بالحصانة الكاملة ضد الاختصاص الجنائى خلال احتلاله لهذا المنصب.

وقد أشار البعض إلى مشروع المواد الخاصة بمسئولية الدولة والتى أعدتها لجنة القانون الدولى، حيث لاحظوا غياب أية مادة تحتفظ بالامتيازات والحصانات لوزير الخارجية، حيث يتمتع بها فقط رؤساء الدول طبقا للفقرة الثانية من المادة الثالثة من مشروع اللجنة، وهو ما يتفق أيضا مع مشروع معهد القانون الدولى لعام ٢٠٠١، ومع ذلك فقد وافق

هؤلاء في الرأى مع الأغلبية على أساس تفادى أى معوقات في العلاقات الدولية إذا لم يتم الاعتراف بحصانة وزراء الخارجية أثناء وجودهم في مناصبهم .

وقد رفض أغلبية القضاة أية تفرقة بين الأفعال التى تم فعلها بمناسبة ممارسة الوظيفة الرسمية وبين تلك التى تم فعلها بشكل شخصى، وكذلك التفرقة بين تلك التى تم فعلها قبل تقلد المنصب الوزارى وتلك التى تم فعلها بعد تقلده، حيث إن الأثر سيكون هو نفس الأثر من الحيلولة دون ممارسة الوزير مهامه بما يؤثر بشكل سلبى على عملية الدبلوماسية الدولية والعلاقات بين الدول .

وقد تمت الإشارة إلى الأعمال الرسمية باعتبارها الخط الفاصل بين التمتع بالحصانة وبين توجيه الاتهام، وبالإضافة إلى ذلك فإن الصفة الرسمية باعتبارها موضعاً للتفرقة تم التعبير عنها فى الأدوات القانونية التى تم وضعها فى المحاكم الدولية الجنائية المختلفة، وعدم التمسك بهذه التفرقة لتحديد أية أفعال يمكن حمايتها بالحصانة لايعكس ممارسات الدول كما ذهب بعض القضاة والأمثلة على ذلك محاكمة إيخمان وبينوتشيه، فضلا عن الأفعال التى تتم بالصفة الرسمية كأساس للحصانة لم يتم الاعتراف به فى ميثاق نورمبرج والنظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية .

وقـد دفـعت بلجـيكا بأنه إذا منحت الحـصـانة لوزير الخارجية، فإن ذلك سوف يشكل عائقا أمام المسئولية الفردية عن جرائم الحرب أو الجرائم ضد الإنسانية، وأن تلك الجرائم لا تقع تحت طائلة الحصانة التي يمنحها القانون الدولي.

ولقد دعم هذا الموقف ما اتخذته محاكم بريطانيا وفرنسا في حالات بينوتشيه والعقيد القذافي، ورغم أن أغلبية القضاة قـد درسـوا قـرارات تلك المحـاكم إلا أنـهم رأوا بأن ذلك لا يعكس ممارسـات الدول التي يمكن أن ترقى إلى القـانون الدولي العرفي، وبالإضافة إلى ذلك فإن مدى الاختصاص القضائي العالمي أو امتداد القانون إلى ما بعد الإقليمية فيما يتعلق بالجرائم الدولية يوجد في معاهدات عديدة ولكنه لايؤثر على الحصانة .

المحكمة الفرنسية :

تم رفع دعوى ضد العقيد القذافي في فرنسا بسبب حادثة تفجير طائرة فرنسية في ١٩ سبتمبر ١٩٨٩ بما تسبب في وفاة ١٥٩ و ١٥ من أفراد الطاقم، وكانت المحكمة الابتدائية قد أصدرت حكما غيابيا ضد ستة مواطنين ليبيين، وبناء على هذا الحكم قام بعض أقارب الضحـايا برفع قضـية ضـد الحكومة الليبية ورئيسها العقيد معمر القذافي .

وقـد تقـدم المدعي العـام الفـرنسي (بإيعـاز من الحكومة

الفرنسية) بالدفع بإلغاء الإجراءات أمام محكمة الاستئناف على أساس مبدأ حصانة رؤساء الدول، وهو ما قبلته المحكمة ورفضت نظر الدعوى.

وقد أثار الفقه الدولى العديد من القضايا على هامش هذه القضية، فقد شكك بعضهم مثلا فى أن العقيد القذافى يعد رئيسا للدولة، على أساس الأوضاع القانونية الداخلية فى ليبيا نفسها فأشاروا مثلا إلى ما قاله القذافى أمام المؤتمر الشعبى فى ٢ مارس ١٩٩٢ من أنه ليس له مكتب فى الحكومة الليبية وذلك فى مجال تأكيده أنه ليس لديه سلطة لتسليم المواطنين الليبيين المتهمين فى واقعة لوكيربى، فهو دستوريا ليس رئيسا للدولة، وقارنوا بين وضعه وبين وضع رئيس بنما السابق مانويل نورييجا الذى اعتقلته القوات الأمريكية، حيث رأت إحدى المحاكم الأمريكية أن كونه الرجل القوى فى الحكومة لايعنى أنه رئيس للدولة .

وحتى بأخذ الظاهر، أى بافتراض أن العقيد القذافى كان بحكم الواقع يحتل منصب الرئيس، فقد رأى جانب آخر من الفقه أن حكم محكمة الاستئناف الفرنسية لم يحدد أية حصانة يتمتع بها العقيد القذافى، هل هى الحصانة الوظيفية أم الحصانة الشخصية التى تمتد إلى حياته الخاصة، فلو كانت هى الحصانة الأولى (الوظيفية) فإن ذلك يعنى عدم

إمكانية رفع الدعوى ضده حتى بعد مغادرته لمنصبه، أو هى الحصانة الثانية (الشخصية) والتى يتمتع بها فقط طوال شغله لوظيفته كرئيس للدولة .

والحصانة الوظيفية تعنى الحصانة للأعمال الرسمية التى يقوم بها الرئيس وهى تمنح عادة لكل المسئولين فى الحكومة، وإنما يتم محاسبة الدولة نفسها عن أفعالهم، ومثال على ذلك الحصانة التى يتمتع بها الدبلوماسيون (الفقرة الثانية من المادة ٣٩ من اتفاقية فيينا لعام ١٩٦١) .

أما الحصانة الشخصية فهى تستند إلى تلك المعاملة التى تشبه معاملة الدبلوماسيين فيما يتعلق بأفعالهم الشخصية، والتى تمنح حصانة من القضاء المدنى والجنائى ولكن مع استثناءات محددة على الأقل بالنسبة للدبلوماسيين .

الخلاصة :

ما سبق يؤكد أن هناك تحركا في جانب الفقه الدولي، وكذلك في الممارسة الدولية بلغت ذروتها التطبيقية في النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، في اتجاه نسبية حصانات المسئولين في الدول وذلك بالنسبة لجرائم معينة مثل جرائم ضد الإنسانية أو جرائم الحرب أو جرائم الإبادة، وربما تشمل أيضا (فقهيا على الأقل) ما يسمى بجريمة العدوان، إلا أن ذلك لايعني أن هذا التحرك وتلك الممارسة قد اكتسبا قبولا عالميا، والحجج التي تدعم هذا الاتجاه تجد حججا أخرى مناقضة، فربما لايزال من الصعب على الدول ذات السيادة أن تقبل قيام جهات أخرى (دولية أو إقليمية) بمحاكمة مسئوليها، وتبلغ الصعوبة غايتها إذا كان هؤلاء المسئولون قد ارتكبوا الجرائم المزعومة أثناء أدائهم لمهامهم الرسمية وبسببها، خاصة مع العلم بطبيعة تعقيدات عملية اتخاذ القرار وخصوصا في الموضوعات الحيوية التي تتعلق بالمصالح الاستراتيجية للدولة، ثم إن أغلب دساتير الدول توفر حصانة وظيفية لمسئوليها في ممارستهم لواجباتهم الوظيفية، أي أن القول بإمكانية محاكمة هؤلاء المسئولين دوليا يعني انتهاكا صارخا لسيادة هذه الدول، بل للقانون الدولي في وضعه الحالي الذي لايزال يضع اعتبارا خاصا لمبدأ المساواة

فى السيادة بين الدول، ومن ناحية أخرى يرى جانب كبير من الفقه أن إطلاق العنان لهذا التوجه قد يؤدى إلى نتيجة واحدة وهى التكريس القانونى لتبعية الدول الصغرى، حيث سيخشى مسئولو هذه الدول من اتخاذ أى قرارات لا ترضى الدول الكبرى قد تؤدى إلى تعقبهم قضائيا لسبب أو لآخر .

ورغم وجاهة الحجج على طرفى الموضوع، إلا أن هناك حقيقة لايمكن إغفالها، وهى أن سياسات القوة فى النهاية هى التى تفرض قانونها، فلولا هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية لما كانت هناك محكمة نورمبرج، وربما لو توقفت تلك الحرب فى إحدى مراحلها بصلح مثلا لما تعرض حكام ألمانيا النازية لهذه المحكمة أصلا، وربما ظلوا فى تاريخ بلادهم أبطالا أسطوريين، ولكن .. ويل للمهزوم.. ويل له مرتين : فمرة كنتيجة مباشرة للهزيمة، ومرة أخرى لخضوعه لما يكتبه المنتصر ليس فقط فى التاريخ وإنما أيضا فى القانون.

الفهرس

رواية الهلال تقدم

بلــــد المحبوب

للروائى

يوسف القعيد

صدرت ١٥ ديسمبر ٢٠٠٩

رئيس مجلس الإدارة
عبدالقادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبدالصمد

أحدث إصـــــدارات كتاب الهلال عامى ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
أبو نواس	عبدالرحمن صدقى	إبريل	٢٠٠٩
برتراند راسل أمام المحاكم الانجليزية الامريكية	د.رمسيس عوض	مايو	٢٠٠٩
دولة الأيام	رجائى عطية	يونيو	٢٠٠٩
من بعيد ومن قريب	د. مصطفى سويف	يوليو	٢٠٠٩
تراث المدن الإسلامية	د. خالد عزب	أغسطس	٢٠٠٩
التجديد والحفاظ على الهوية الإسلامية	د. جعفر عبدالسلام	سبتمبر	٢٠٠٩
الصهيونية تاريخها وأعمالها	حلمى النملم	اكتوبر	٢٠٠٩
قد تكون الديانة تجسيداً للعقل	رجائى عطية	نوفمبر	٢٠٠٩
الحوار فى القرآن الكريم	د. محمد أبو ليلة	ديسمبر	٢٠٠٩
شخصيات ومواقف	د. وليد محمود عبدالناصر	يناير	٢٠١٠

هذا الكتاب

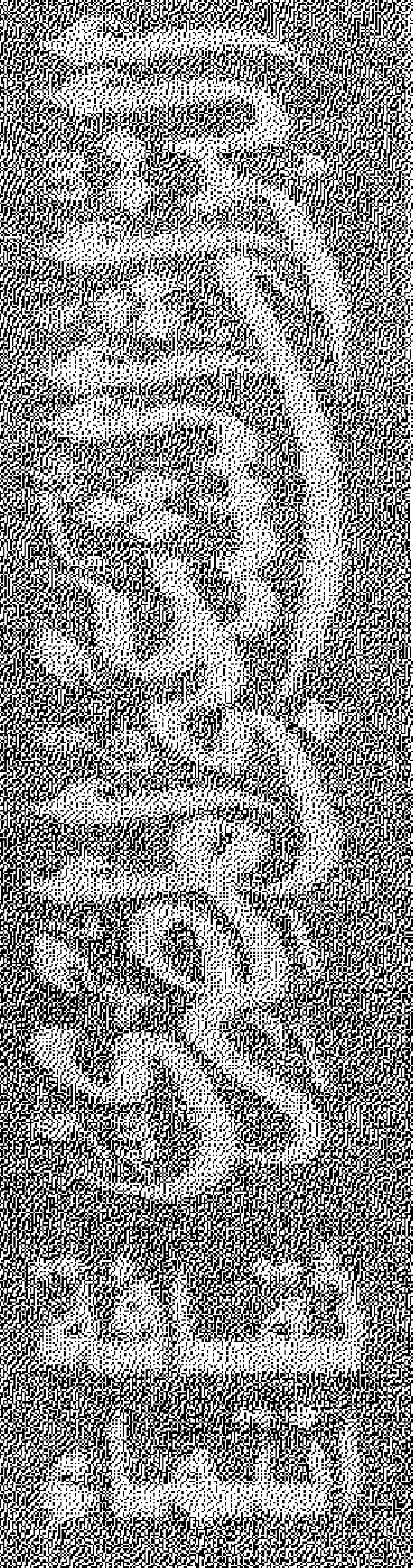
ارتبط تعبير «كلام دبلوماسى» فى الوجدان الشعبى بأنه الكلام المنمق المجامل الذى لا يجرح ولكنه فى الوقت نفسه المتصف بالحكمة والتعقل والصراحة .

وقد شاء الأديب السفير معصوم مرزوق أن يقدم لنا فى هذا الكتاب ألوانا من كتاباته الأدبية وخواطره وذكرياته وتحليلاته السياسية وتجاربه الدبلوماسية بأسلوب مبسط يجمع بين عمق الفكرة وسلاسة الأسلوب .

إنه يأخذنا فى رحلة ممتعة مع خواطره وذكرياته وتحليلاته ، فمن استعراضه لألوان من الفن الدبلوماسى إلى استعادة بعض ذكرياته فى «أرجوحة الزمن» إلى «المحلل» السياسى عن بعض المدعين الذين يحترفون التحليل السياسى إلى إستعادة ذكرياته عن صمود مدينة السويس أثناء حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧ إلى خواطره على ضفاف قناة السويس إلى غيرها من الموضوعات والخواطر والذكريات الشخصية والسياسية والدبلوماسية لتضيف هذا الكتاب إلى هذا اللون الفريد من الأدب الدبلوماسى الذى يعطيك الفائدة والمتعة فى نفس الوقت .

الهلال

- الحوار بين الثقافات وأهدافه
- سويسرا: ملاذ بلا وطنية
- بينالي الإسكندرية والعولمة



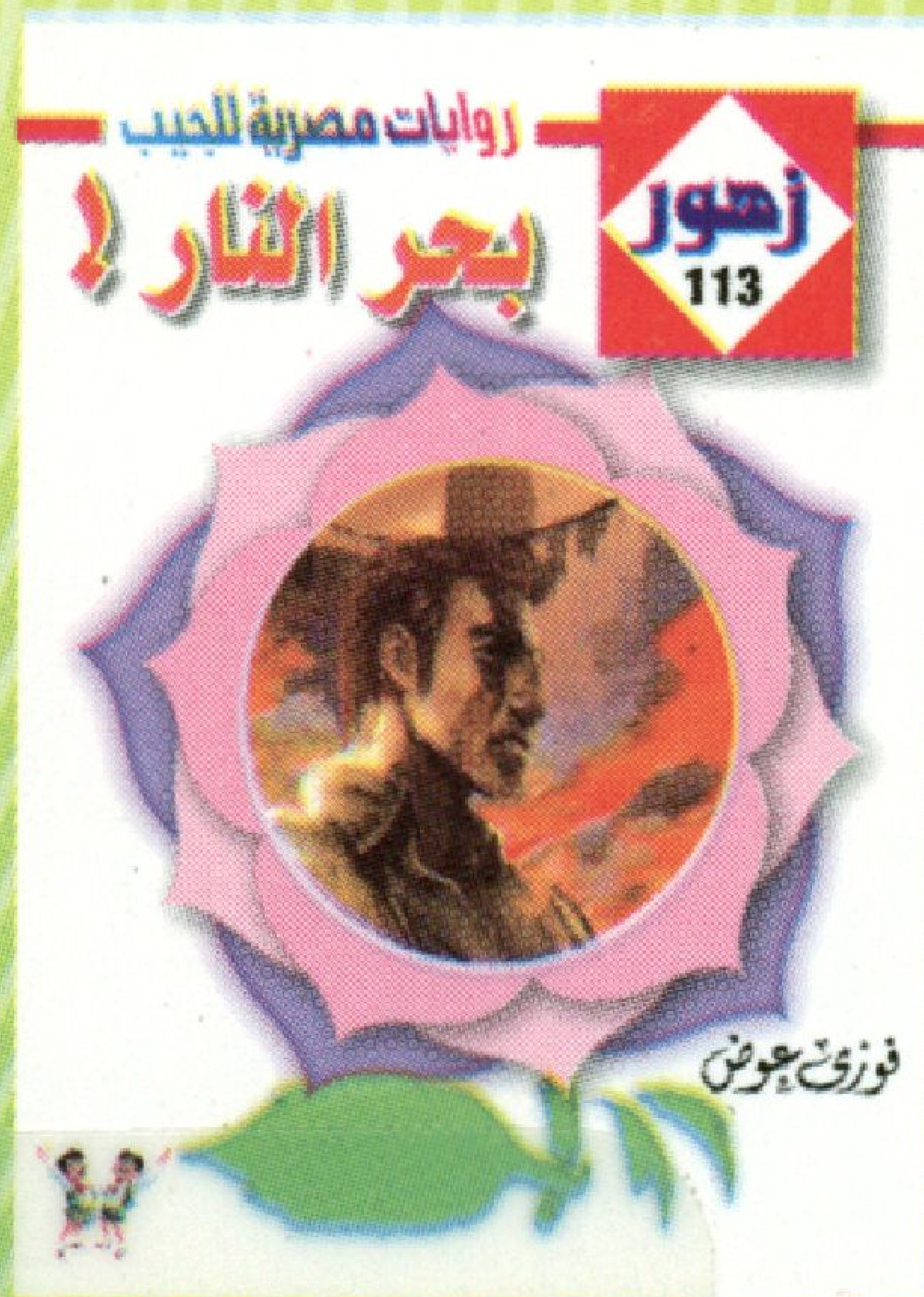


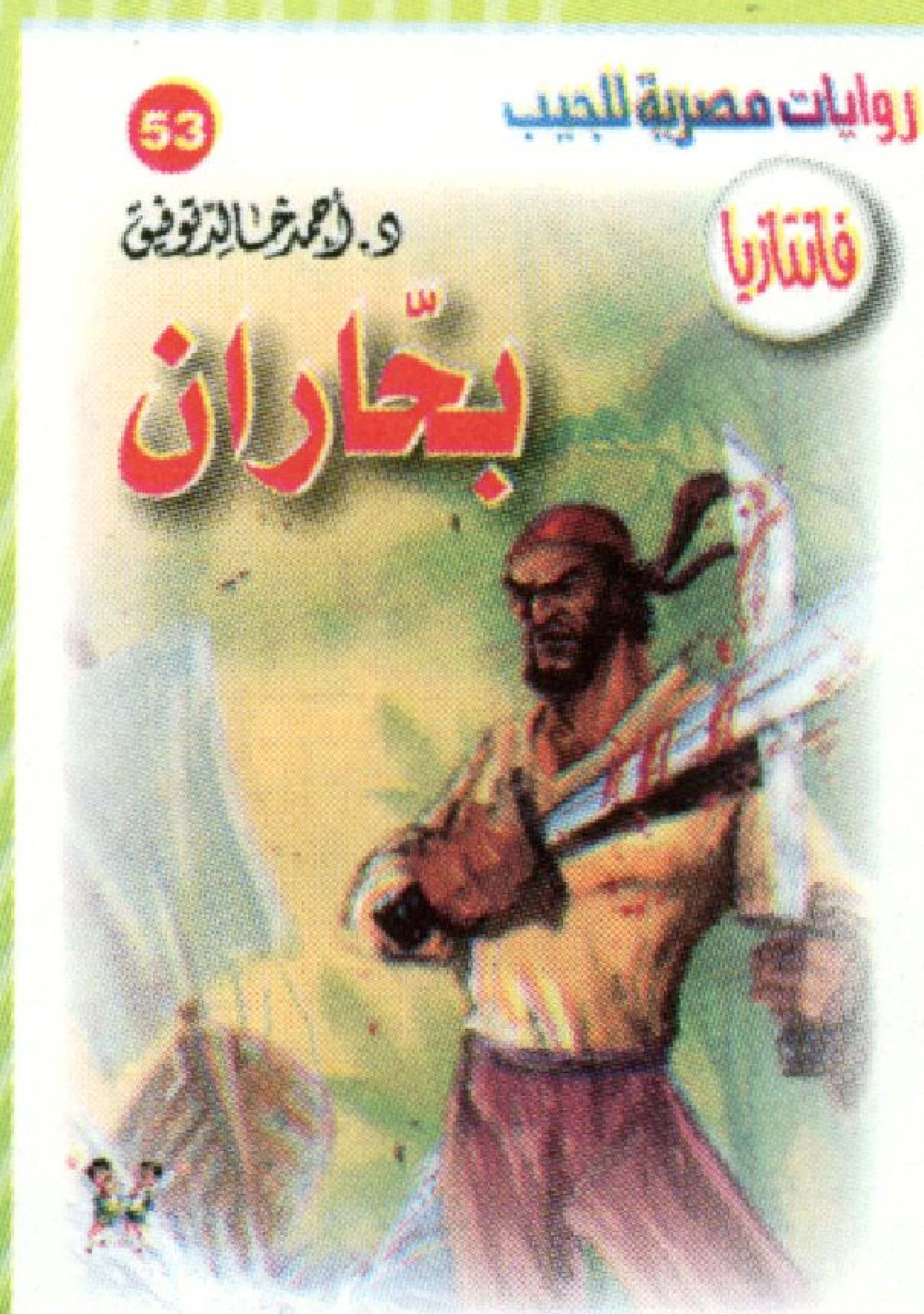
رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

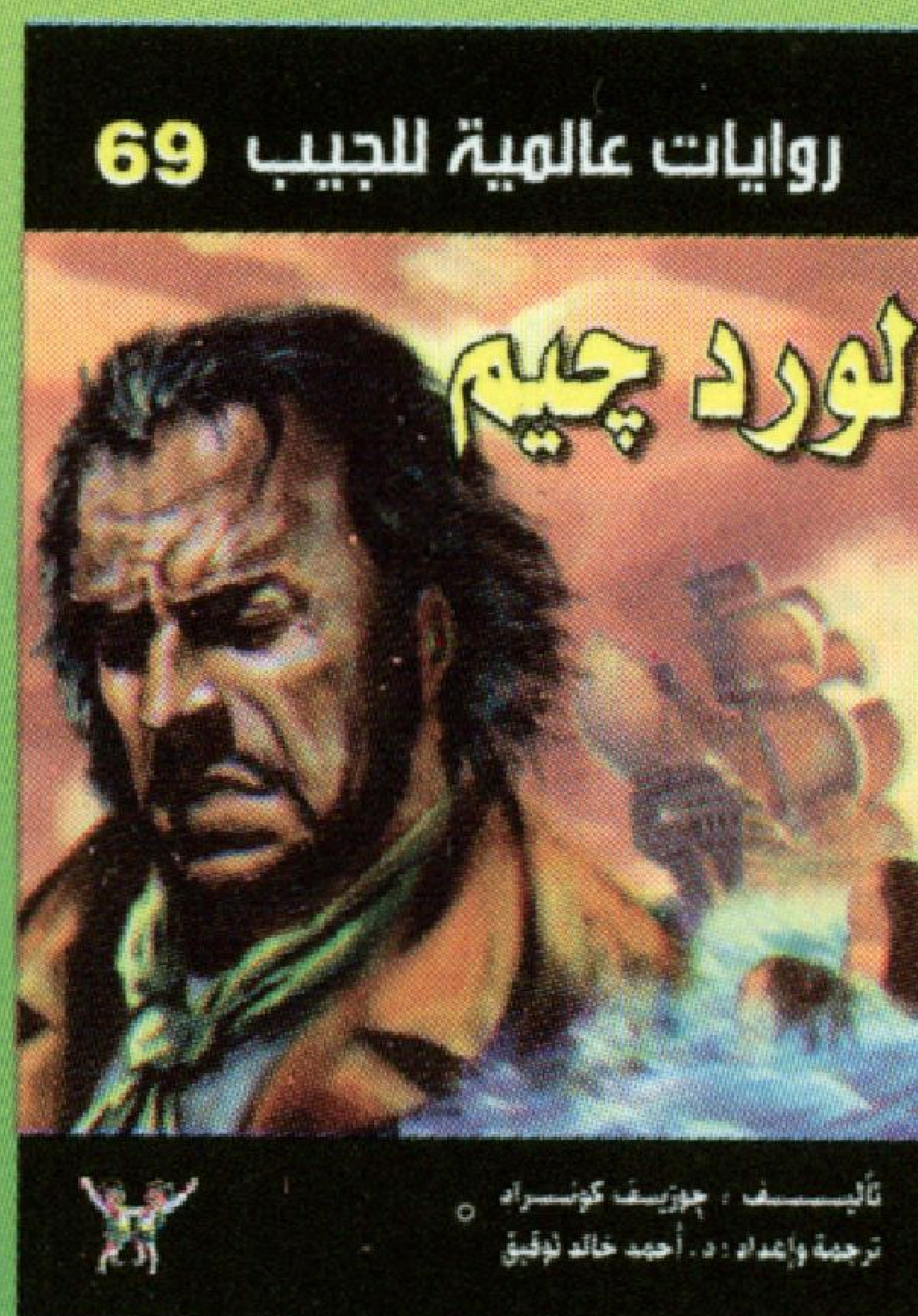
روايات مصرية للجيب

لا ترجمة ، لا اقتباس ، لا تقليد .. تأليف مصرى 100 ٪

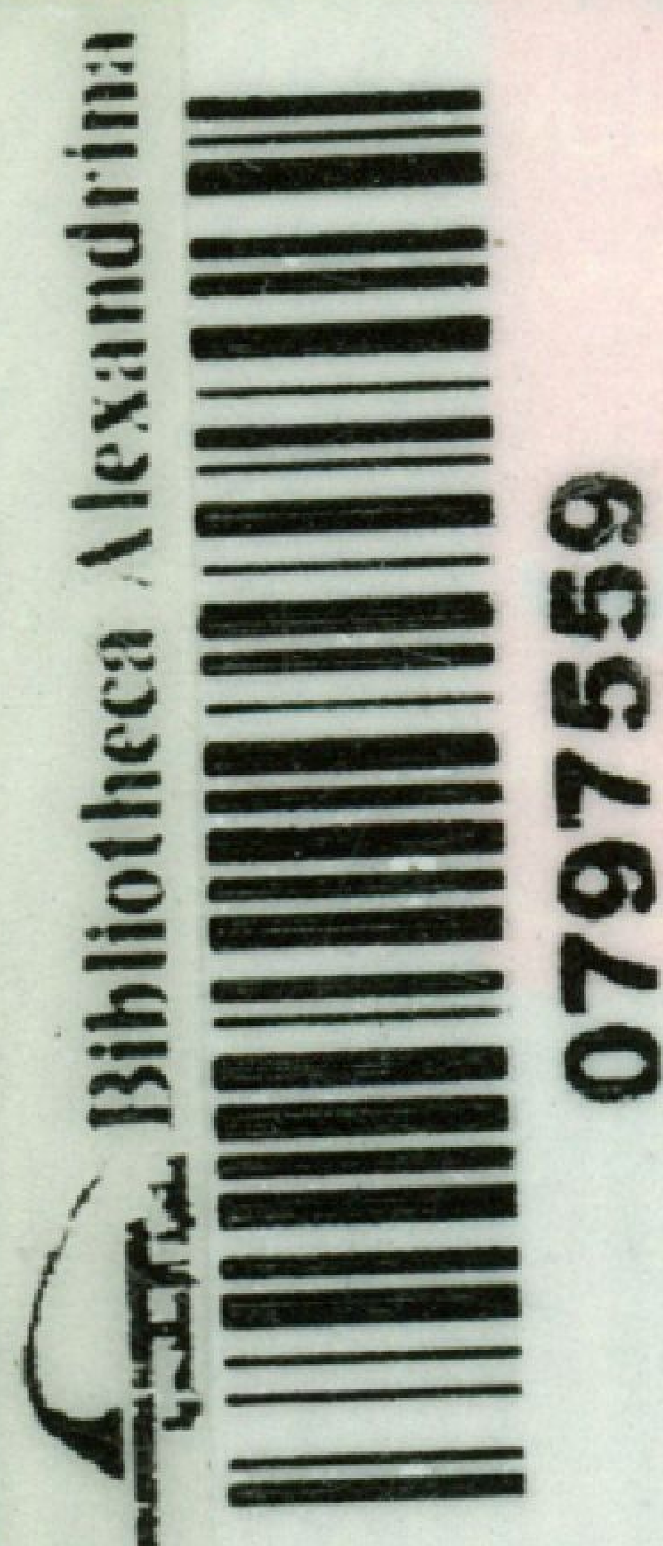












المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل
4 ش الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع ، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850